الفرقان في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادقي

انتشارات فرهنگ اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفرقان

۱-۲

الكتاب الفرقان فی تفسیر القرآن
المؤلف الدكتور الشيخ محمّد الصادقی
الجزء الاول والثانی ـ سورة البقرة
الطبعة الثانية
المطبعة مطبعة اسماعيليان ـ قم
الناشر انتشارات فرهنگ اسلامی
الهاتف ٢٤٤٢٥ قم
سنة الطبع ١٤٠٨ هـ ـ ق
عدد المطبوع ٣٠٠٠ نسخة
الثمن ١٥٠٠ ريالا

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

الجزء الأول والثاني

سورة البقرة

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ
إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ
قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ

لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ
قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ
وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا
يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

هنا عرض فسيح يفصح عن مدى لجاج اليهود أمام الله ورسوله ، تمحُّلاً للمعاذير الواهية المُهينة في أمر كان لصالحهم ، وقد تساءلوا موسى عنه ، وهو قصة القتل التي خلقت فيهم جواً من الحجاج واللجاج .

كلٌ من قبيلي النزاع يتهم الآخر ، مما يكاد يولِّع نيران الحرب بينهم ، وكما ورد في الأثر[1] المؤيَّد بملامح آيات القصة : « وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله

---

(١) البحار ١٣ : ٢٥٩ عن تفسير القمي ابي عن ابن ابي عمير عن بعض رجاله عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : ان رجلاً من خيار بني اسرائيل وعلمائهم خطب امرأة منهم ، فانعمت له ، =

مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » (٧٢ - ٧٣) .

نـدرس في قصة البقـرة - القصيرة - آماد الحمق والعنـاد في العمق لهؤلاء

= وخطبها ابن عم لذلك الرجل وكان فاسقاً رديئاً فلم ينعموا له ، فحسد ابن عمه الذي انعموا له فقعد له فقتله غيلة ثم حمله الى موسى (عليه السلام) فقال : يا نبي الله هذا ابن عمي فقد قُتل ، فقال موسى (عليه السلام) من قتله ؟ قال : لا أدري ، وكان القتل في بني اسرائيل عظيماً جداً فعظم ذلك على موسى فاجتمع اليه بنو اسرائيل فقالوا : ما ترى يا نبي الله ؟ وكان في بني اسرائيل رجل له بقرة وكان له ابن بارٌ كان عند ابنه سلعة فجاء قوم يطلبون سلعته وكان مفتاح بيته تحت رأسه وكان نائماً ، وكره ابنه أن ينبهه وينغص عليه نومه : فانصرف القوم فلم يشتروا سلعته ، فلما انتبه ابوه قال له يا بني ، ماذا صنعت في سلعتك ؟ قال : هي قائمة لم ابعها « ان المفتاح كان تحت رأسك فكرهت ان انبهك وأنغص عليك نومك ، قال له أبوه : قد جعلت هذه البقرة لك عوضاً عما فاتك من ربح سلعتك ، وشكر الله لابنه ، ما فعل بابيه، وامر موسى بني اسرائيل ان يذبحوا تلك البقرة بعينها ، فلما اجتمعوا الى موسى وبكوا وضجوا قال لهم موسى : « ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة » فتعجبوا وقالوا : « أتتخذنا هزواً » نأتيك بقتيل فتقول : اذبحوا بقرة ! فقال لهم موسى « اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين » فعلموا انهم اخطأوا فقالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر » والفارض التي ضربها الفحل ولم تحمل ، والبكر التي لم يضربها الفحل ، فقالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها » اي شديدة الصفرة « تسر الناظرين » اليها « قالوا ادع ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون . قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض » اي لم تذلل « ولا تسقي الحرث » اي لا تسقي الزرع « مسلّمة لاشية فيها » اي لا نقطة فيها الا الصفرة « قالوا الآن جئت بالحق» هي بقرة فلان فذهبوا ليشتروها فقال : لا ابيعها إلا بملء جلدها ذهباً فرجعوا الى موسى (عليه السلام) فاخبروه فقال لهم موسى : لا بد لكم من ذبحها بعينها ، فاشتروها بملء جلدها ذهباً فذبحوها ، ثم قالوا : يا نبي الله ، تأمرنا ؟ فاوحى الله تبارك وتعالى اليه : ﴿ قل لهم اضربوه **ببعضها وقولوا من قتلك ؟** ﴾ فاخذوا الذنب فضربوه به وقالوا : من قتلك يا فلان ؟ فقال : فلان ابن فلان ابن عمي الذي جاء به ، وهو قوله : ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ .

الأباقرة العباقرة ! وكم بَقروا : كَلاًّ في بصائرهم الكليلة العليلة في العقلية الإنسانية ، مهما بَقروا : شقاً للمسالك الحيوانية الشهوانية ، فهم في الروحية الإنسانية في أسفل سافلين ، وفي الترسُّلات الحيوانية والسياسات المادية في أعلى عليين !.

هنا السمات الرئيسية للطبيعة الإسرائيلية ، والوصمات النكدة النكبة ، تبدو واضحة وضْحَ النهار في هذه القصة ، من مدى انقطاع الصلة بين قلوبهم المقلوبة وبين مقلب القلوب ، انقطاعاً عن نبعة الحياة الروحية الشفافة الرقراقة ، واتصالاً طليقاً حليقاً بالمظاهر المادية ، لحد قد يسبقون الماديين في دورهم الدائر وحورهم الحائر حول المادة والحيوية الحيوانية الشرسة .

ولقد سميت سورة البقرة بها بمناسبة قصة البقرة ، وهؤلاء الأباقرة فيما تقصه عنهم في هذه المجالة وسائر المجالات المعروضة فيها ، عرضاً لحمقهم في عمقهم لحدٍّ قد تُهان البقرة في تمثيلهم بها وعبادتهم إياها ! .

وترى كيف يُلفت عن خطاب الحاضر لهم ـ فيما سبق هنا من خطابات ـ إلى عرض غائب في تقاولاتهم هذه ، ثم نقلةً إلى خطابهم عرضاً لمادة القصة المقدمة عليها : « وإذ قتلتم نفساً فادَّارأتم فيها » وهي أحرى أن تقدَّم بطبيعة الحال التسلسلية ؟.

علّه لأن القصة غير مذكورة في التوراة زمن نزول القرآن كما الحاضرة ، فليُعرضوا غُيَّباً فيها ، ومن ثم ـ وبعد تثبيت القصة ـ يأتي دور العرض لقتلهم نفساً وتدارئهم فيها ، ولها إشارة في التوراة(١) تلفيقاً دقيقاً رفيقاً للواقع المغفول

---

(١) في الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية : ١ « إذا وجد قتيل في الارض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يُعلم من قتله ٢ يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون الى المدن التي حول القتيل ٣ فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يُحرث عليها لم تُجرّ بالنير ٤ وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى وادي دائم السيلان لم يُحرث فيه ولم يُزرع ويكسرون =

عنه بالواقع المشار إليه فيها وليذكّروا ماضيهم فيعرفوا مَن هم ؟ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾٦٧ .

يقولها لهم موسى لمّا راجعوه بشأن القتيل المجهول أمره ليوضّح لهم ، وإذا هم بأمرٍ لا يناسب في قياسهم سؤلهم وسؤالهم ، وهو في نفس الوقت هتك لما يحترمونه من البقرة لحد عبدوها لفترة ، بل « واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » (٢ : ٩٣) ثم إذا كانت هناك صلة فلتكن إحياء الميت بذبح البقرة وذلك هو أبعد البعد صلة بأمرهم ! فكيف ـ إذاً ـ يذبحون بقرة ؟ ولا تمتّ بصلة قريبة ولا بعيدة لمعرفة القاتل ، أم كيف يُعرف القاتل بقتلٍ آخر ! .

لكنهم تناسوا الحكمة الربانية الخفية في أوامره ، الجلية في تطبيقاتها،كما جربوها ردحاً بعيداً من الزمن ، فتثاقلوا في الإئتمار، واثّاقلوا في الحوار ، فراراً عما أمروا به إلى سواه ، بسَيِّء الأدب مع الله ورسوله في أصل الأمر وفصله ، ولكنهم في نهاية الأمر « فذبحوها وما كادوا يفعلون » بعد ما تحمّلوا مواصفات زائدة في « بقرة » ما كانت عليهم لو ائتمروا من فورهم دون تعنّت وتساءُل ! .

الأمر الأول لم يحمل إلّا « بقرة » طليقة عن كل صفة إلّا كونها « بقرة » ثمينة أو رخيصة ، فارضاً أم بكراً أم عواناً ، صفراء أم سوداء أم بيضاءَ أم عواناً ، فقد كانت تكفيهم في البداية ـ حسب طليق الأمر ـ أيّة بقرة .

وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله : « . . ولو أنهم

= عنق العجلة في الوادي٥ ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي لانه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب حسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة٦ ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل ايديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي٧ ويصرحون ويقولون ايدينا لم تسفك هذا الدم واعيننا لم تبصر٨ اغفر لشعبك اسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريٍّ في وسط شعبك اسرائيل . فيُغفر لهم الدم فتنزع الدم البريّ من وسطك اذا عملت الصالح في عيني الرب .

اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا فشدّد الله عليهم » (١) .

يقول لهم موسى الرسول : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » فيردون عليه « أتتخذنا هزواً » وَيْكأن الله يهزء بعباده عن جهالة ، أو أن رسول الله يفتري على الله ما فيه جهالة !.

« قالوا أتتخذنا هزواً » في ذلك الأمر الإمر ، البعيد عن تحقيق سؤلنا ، « قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » في نقل الأمر إفتراء،وهو من أجهل الجهالة،أم في نفس الأمر أن يحمل امر الله بما أحمله جهالة الاستهزاء ! .

هنا نتبين أن الهُزء من الجهالة ، وطبعاً إذا كان بدائياً ومن جاهل ، وفي حالة الهجمة ، وأما الجزاء الوفاق من المجازي الحق دفاعاً عن الحق فليس من الجهل ، وكما في نوح (عليه السلام) : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون »

(١) الدر المنثور ١ : ٧٧ ـ أخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لولا ان بني اسرائيل قالوا : وانا ان شاء الله لمهتدون ـ ما اعطوا أبداً لو انهم . . . اقول : وقد رويت عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) بألفاظ مختلفة ، المتفق عليه فيها إطلاق الامر واجزاء أية بقرة ، ولكنهم لما شردوا شرد الله عليهم ، مما يلائم ظاهر الأمر الطليق في الآية ، وهنا عشرة كاملة من الاحاديث تحمل تدرج الأمر في قيود المأمور به وقد رواها أبو هريرة وعكرمة وابن جريج وقتادة وابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والبرنطي ومقاتل بن مقاتل ومحمد بن عبيدة عن الرضا (عليه السلام) وعلي بن يقطين عن موسى بن جعفر عليهما السلام وابن طاووس عن الباقر (عليه السلام) وهي كلها موافقة لظاهر القرآن في ذلك فلا يصغى الى قيلة القائل ان المأمور به كان مقيداً من اوّل الامر ، لا سيما وان قوله ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ امرٌ حال بإتيانه ولمّا تُذكر سائر المواصفات التالية ، ولو كان كما قيل لكان امراً بالمحال ان يأتوا بما لم يتبين بعدُ قيوده !

(١١ : ٣٨) وكما الله « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (٢ : ١٥) .

فالهزء والسخرية البادئة هما من الجهالة وسوء الصنيعة ، وقد نهي عن الإستهزاء في (٣٣) آية ، وفي عديدة أخرى عن السخرية ، مما يبين لنا مبدئياً أنها من المحرمات الناتجة عن الجهالة القاصدة المقصرة ، واما القاصرة فلا تكليف فيها ولا تنديد .

ففيم تهزء بإنسان ؟ أفي نقص من خلقه في مقياسك ؟ وليس إلاّ من خلق الله ، فلا تهزء ـ إذاً ـ إلاّ بالله ، وهذه جهالة بالله ! .

أم في نقص قاصر من فعلٍ أو تركٍ ؟ فكيف يُهزءُ بقاصرٍ وليس مكلفاً في أيٍّ من الأعراف ! .

أم في نقص مقصرٍ ؟ إذاً فهو مريض بحاجة إلى تمريض ، ولا يزيده هزءُك به إلاّ مرضاً إلى مرض ، وعليك أن تكون له طبيباً إن استطعت ، أم تأتي له بطبيب يداويه ، أم تتركه وحاله ، لا له ولا عليه إن لم تستطع في علاجه .

أم لأنك تظنك على كمال هو فاقده ؟ فكذلك الأمر ، وليس ظنك صائباً على أية حال !:« لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن » (٤٩ : ١١) وحتى إذا كانوا خيراً منهم « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١٢) !

فلا مجال للسخرية والهزء إلاّ بمن يسخر بالحق بدلاً عن الإنتباه ، هزءً عن مصدر العلم والحكمة دون أية جهالة بالله ، أم جهالة بالأعراف الشخصية

والجماعية ، أو الواجبات الدعائية ، وهنا السخرية لها مجال إعتداءً بالمثل ، وصداً عن نشوب الباطل بين أهل الحق .

« قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » هو عوذٌ بالله في بعديه ، بالله الذي أمره أن يقول لهم : « إذبحوا بقرة » فلا يجهل أمر الله ، والله الذي يعصم رسوله عن الجهالة فلا يجهل في رسالة الله ، وهم عارفون أنه رسول الله ، القائل قوله عن الله ، وهم يتهمونه بهذه الجهالة الفاتكة لاستبعادهم ـ في قياسهم المتهوِّس المركوس وعقليتهم الحيوانية ـ ألّا صلة لذبح بقرة باتضاح أمر القتيل ، وقد اتضح اخيراً ، إضافة إلى بيان الواقع من إحياء الموتى ، وجزاء الولد البار بأبيه في قصة البقرة .

لقد كان في ذلك التوجيه الوجيه كفاية لهم أن يثوبوا إلى أنفسهم ، ويتوبوا إلى ربهم ، تنفيذاً لأمره لصالحهم في المبدء والمصير ، أمراً كان لهم من السهل اليسير ، ولكنهم بدلوه بالإمر العسير ، أمراً واحداً طليقاً يتبدل في تساؤلاتهم المتعنتة بأوامر عدة لا تنطبق إلّا على بقرة يتيمة منقطعة النظير ، وهم لا بد لهم من تطبيقه حسماً لمادة النزاع في « من هو القاتل » ؟ .

وهنا ندرس دراسات أصلية أصولية على أضواء هذه الآية الطليقة ، المقيدة بعدُ بما تقيدوا .

[١] لا يجوز تقييد المطلق بسناد الإستغراب أو الاحتياط أو أنه القدر المتيقن أمّا هي من تقييدات لا سناد لها إلّا تخيلات لا حجة فيها ، اللّهم إلّا قيوداً عفوية من قبل الشارع نفسه ، في كتاب أو سنة قاطعة ، وقد كانت في « إذبحوا بقرة » منفية ، فلما تعنتوا في التساءل وشدَّدوا شدَّد الله عليهم جزاءً وفاقاً .

[٢] كما أن إطلاق المقيد بدليل محظور ، كذلك تقييد الإطلاق دون دليل

محظور ، فإنها تخلف عن ظاهر الدليل أو نصه ، ومشاقة مع الشارع في التشريع .

٣ تقييد الإطلاق ـ وهو في مقام البيان ـ هو تجهيل للمطلِق كأنه قصرٌ في بيانه « قل أتعلِّمون الله بدينكم . . » ؟ . إذاً فهو محظور عقائدي بجنب المحظور العلمي .

٤ وحتى إذا لم يتبين قطعاً أن المطلِق في مقام بيان كامل مراده ، فظاهر الحال يقتضي التماشي مع الإطلاق حتى يتبين له قيد أو قيود ، فإن كانت قبل وقت العمل فتقييدُ تبيين ، وإن كانت بعده فنسخٌ قَدَرَه .

٥ وهنا نرى تعاضل الأمر ـ بتضايق في أوصاف المأمور به ـ ما تعاضل المأمورون به ، فقد كان في البداية طليقاً عن أيّة صفة إلاّ أنه « بقرة » ثم لصقت بها أوصاف تلوَ بعضٍ ولِصْقَ بعضٍ حيث اثّاقلوا عن تطبيقه طليقاً وتعاضلوا ، وهذه بلية ربانية يبتلي بها المتعنّتون ولا ينبئك مثلُ خبير .

ورجوع ضمائر التأنيث إلى البقرة الأولى الطليقة لا يقيدها لأول الأمر ، فإنما القيود آتية تلوَ بعضٍ والبقرة هي جنس البقرة ، فـ « إنها بقرة . . » تعني أن المطلوب الآن بقرة . . . لا الأوّل فإنها كانت دون قيود .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾٦٨ .

« ربك » هنا ، دون « ربنا ـ أو ـ رب العالمين » ـ وقد كررت في ثالوث سؤالهم المنحوس ـ ذلك يشي بأنهم لا يزالون في ريبهم يترددون ، وفي غيّهم وعيّهم يعمهون ، كأن موسى هازىءٌ بهم ، أو أنه ينقل عن رب سوى ربهم ، ويكأن هناك أرباباً عدة هم متشاكسون في أوامرهم ، ثم وهم أولاء يحترمون رب

موسى أكثر من أربابهم ، لذلك « قالوا ادع لنا ربك ... » !

ثم « ما هي » سؤالاً عن الماهية ، إنه تجاهل عن أنها بقرة ، وقد نص عليها أوّل مرة ، ثم مزايدة جاهلة قاحلة حول ماهية البقرة من حيث الكيان في عمرها ، وكل أمرها ، حيث الأسعار والفاعليات تختلف حسب مختلف الحالات والمجالات .

« قال إنه يقول إنها بقرة » جواباً عن الماهية الأولى « لافارض ولا بكر عوان بين ذلك » جواباً عن الثانية « فافعلوا ما تؤمرون » وقد أمرتم أولاً في طليق الأمر ، ثم زدتم عليه ـ تطلّباً جاهلاً ـ مواصفاتٍ ماهوية ماكانت من ذي قبل إلاّ أنها « بقرة » « فافعلوا ما تؤمرون » دون مزايدة ومكايدة ، حيث الأمر صريح لا إبهام فيه ، لا يبقي مجالاً لأي سؤال !

ذلك تأكيد أكيد على واجب الوقوف لحد الأمر ـ أياً كان ـ بحدوده المذكورة معه أم دون حدود ، مما يوضِّح أن « بقرة » كانت طليقة ، ثم زيدت عليها قيود بأوامر أخرى جزاء بما كانوا يتعنتون .

والفارض ـ هنا ـ هي العجوز والبكر هي الشابة غير المضروب عليها بالفحل ، و « عوان بين ذلك » هي الوسط بين هذه وتلك ، وهو وسط العمر وكماله .

وقد تسمى فارضاً لفرض السن وقطعه ، ولفرض الأرض وقطعها ، ولفرض ما يُحمَّل عليها وقطعه من أشغال ، فروض ثلاثة في الفارض ، يجمعها طليق « فارض » .

وتقابلها البكر ، بكراً في العمر فما فرضته ، وبكراً عن الحرث فما استُعمِلت له ، وبكراً عن ضرب الفحل فما انضربت به .

إذاً فعـوان بين ذلك يعني الوسط بينهما ، لا متقدمة في العمر ولا حولة وقد ضربها الفحل .

ولماذا « ذلك » مفـرداً مذكـراً وكلٌّ من فـارض وبكر مؤنث ؟ علّه يعني مـا ذكر من مواصفات .

ولقـد كان في هـذا وفي ما قبله كفـاية لمن يصغي إلى الحق المُرام ، ولكن اسرائيل هي اسرائيل ! .

فإلى لجاج ثالث ، تضييقاً لدائرة الموضوع ، علّهم ينجـون عن أصله ، أم يتأكدون أكثر وأكثر في أصله :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾٦٩ .

فكـما أن الاثر علّه في مـاهيـة خـاصـة من البقـرة ، كـذلـك علّه في لـون خاص ، وفي ذلك تجهيل لساحة الربوبية كـأنه قـاصر أو مقصر في البيان ، وهم أحـرى بالحـائطة عـلى أوامره تعـالى ! ، ثم تعجيز لـه سبحانـه ، كـان الأثـر في خصوص بقرة خاصة وليس من الله ، فـ « ادع لنا ربك يبـين لنا مـا لونها » بـين مختلف الألوان « قال انه يقول انها بقـرة صفراء » وهنـا لا يكتفي بمطلق الصفـرة تقريباً لمضايقتهم في خاصة الميْزة ، وقـطعاً لمعـاذيرهم في تسـاءُلات أخرى حـول نوعية الصفـرة ، فهي ـ اذاً ـ « فاقـع لونها » صـادق الصفرة بمشبَعهـا فالفـاقع في الأصفر هو أشده وأشبعه وأنصعه ، كما يقـال : أصفر فـاقع ، وأسـود حالـك ، وأبيض يقق ، وأحمر قان ، وأخضر ناضر .

« تسر الناظرين » بلونها وسائر شمائلها ، فلا هي مكسـورة ولا عـوجاء ولا قبيحة المنظر من ناحية أخرى ، بل هي في مثلث الجمال والكمال ، مـاهية ولـوناً

وشكلاً ، ولا يتم سرور الناظرين إلاّ أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة .

وقد تلمح « تسر الناظرين » بعد « صفراء فاقع لونها » أن فاقع الصفرة هو من أحسن الألوان وأنضرها فأنظرها حسناً وجمالاً وكما يروى[1] .

أتراهم اكتفوا بعدُ بهذه المواصفات ؟ كلاّ ! فهم إسرائيل الحجوج اللجوج ، إذ عادوا مرة أخرى هي الأخيرة ـ إذ لم تبق بعده مواصفة يتعنّتون بها ـ يسألون فيها عن ماهيتها مرة أخرى :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾٧٠ .

وهم في هذه المرحلة الأخيرة مستندون إلى بقاء التشابه في موضوع الأمر : « إن البقر تشابه علينا » وواعدون الإهتداء بها بمشيئة الله : « وإنا إن شاء الله لمهتدون » .

ولماذا « البقر تشابه علينا » دون « البقرة » المكررة هنا وهناك ؟ علّه جنس البقرة مهما كانت أنثى ، فليس أي جنس من البقر له ذلك التأثير ، فليكن بقراً منقطع النظير لا مثيل له حتى يؤتى منه ذلك الأثر المنقطع النظير .

فهؤلاء الحماقى يفتّشون بعدُ عن بقرة خاصة لها خاصتها هذه ، متجاهلين أن الأثر كله هو من خالق البقرة وليس في البقرة نفسها ، ولولا قولهم أخيراً « وإنا إن شاء الله لمهتدون » لما بينت لهم آخر الأبد « والذي نفس محمد بيده لو

---

(1) نور الثقلين ١ : ٨٩ في الكافي عن جابر الجعفي عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : من لبس نعلاً صفراً لم يزل ينظر في سرورها ما دامت عليه لان الله عز وجل يقول ﴿ صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ .

لم يقولوا « ان شاء الله » لحيل بينهم وبينها ابداً »[1] اترى أن الله لم يشأ اهتداءَهم حتى الآن ؟ فهم إذاً معذورون ! أم شاء ؟ فتخلفت المشية عن الواقع ! فما هو دور « انشاء الله » هنا إن كان لهم الإختيار ؟ .

لقد شاء الله اهتدائهم بشرعته لما أمرهم بما أمرهم فتخلفوا عنه عاصين ، ولم يشأ حتى الآن اهتداءَهم تكويناً إذ هم لم يشأوا بسوء اختيارهم ، فليس لـ « إنشاء الله » هنا دورٌ إلّاتكويناً لاهتدائهم إن شاءوا هم أن يهتدوا وقد شاءوه أخيراً لما عيوا وأيسوا عن مكرهم .

والمتورط في العصيان عليه التبرك بـ « ان شاء الله » لصقاً بمشيئته إلى مشيئة الله تعالى،ثم « لمهتدون » قد تعني إضافة إلى هدي التطبيق لأمر الله ، الإهتداءَ إلى بقرة تحمل كل هذه المواصفات ، ثم الإهتداء إلى معرفة القاتل في هذا البين ، فقد يشاء الله - بما شاءوا - اهتدائَهم إلى ذبحها ، ثم لا يشاء اهتداءَهم إلى القاتل أن يضربوا المقتول ببعضها ، أم لا يشاء اهتداءَهم إلى هذه البقرة الخاصة بعد ما شاء اهتداءَهم لائتمارهم جزاءً بما تعنتوا .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾٧١ .

فلم تَعُد هذه البقرة - إذاً - متوسطة العمر صفراء فاقع لونها تسر الناظرين فحسب ، بل هي بقرة غير مذللة بإثارة الأرض وسقي الحرث ، ثم هي مسلَّمة : خالصة اللون في الصفرة الفاقعة « لاشية فيها » لا تشوبها علامة ، ولا تمازج لونَها لونٌ آخر ، كما هي مسلمة عن سائر العيوب :

وترى « لاشية فيها »هي - فقط - إيضاح لـ « مسلمة » ؟ وليس القرآن كتاب لغة ! ومسلمة اللون - طبعاً - « لاشية فيها » إذاً فهي توضيح للواضح !-

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٣ : ١٢٠ قال الحسن عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . .

قد تعني « مسلمة » عن كل العيوب ومنها « شية فيها » ومسلمة عن آثار العمل ، ومسلمة عن الحبس للعمل وعن كل نقص متصور لبقرة ، أم ومسلَّمة من والد إلى ولده البار به جزاءَ بره ، أمّا ذا من مسلمات في بقرة .

« قالوا الآن جئت بالحق » وَيْكأنه قبل الآن كان جائياً بالباطل من ربه ، وَيْكأن الله ما كان يعرف ما عرفوه « فذبحوها وما كادوا يفعلون » نكراناً لأن يؤثر ذبحها في التعرف إلى القاتل ، وتماسكاً عن دفع مال في ذلك المجال ، وتمنعاً عن ذبحِ بقرة ولهم سابق العبادة لها ، وذلك الثالوث المنحوس كان يمنعهم عن ذبحها لولا سؤلهم المدقع في التعرف إلى القاتل ، أم وليجربوا موسى في الإجابة عن سؤالهم !

ففي هذه الضَفَّة ـ البخيلة الماكسة الناكثة لعهود الله ، المتشاكسة في أمر الله ـ ينتهي أمر اللجاج إلى بقرة منقطعة النظير في كل إسرائيل عن بكرتها .

ثم في الضَفَّة المؤمنة : رجل بارٌ بأبيه[1] ، تاركٌ ربح التجارة حرمة له ،

---

(١) نور الثقلين ١ : ٨٧ في عيون الأخبار بسند متصل عن البزنطي قال سمعت ابا الحسن الرضا (عليه السلام) يقول : ان رجلاً من بني اسرائيل قتل قرابة له ثم اخذه فطرحه على طريق افضل سبط من أسباط بني اسرائيل ثم جاء يطلب بدمه فقالوا لموسى ان سبط آل فلان قتلوا فلاناً فاخبرنا من قتله ؟ قال : ايتوني ببقرة « قالوا اتتخذنا هزواً . . » ولو انهم عمدوا إلى أي بقرة اجزأتهم ولكن شردوا فشرد الله عليهم « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها . . . » ولو انهم عمدوا الى بقرة لأجزأتهم ولكن شردوا فشرد الله عليهم « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي . . . » فوجدوها عند فتى من بني اسرائيل فقال لا ابيعها إلا بملء مسكها ذهباً فجاؤا الى موسى (عليه السلام) فقالوا له ذلك فقال : اشتروها فاشتروها وجاؤا بها فأمر بذبحها ثم امر ان يضرب الميت بذنبها فلما فعلوا ذلك حيي المقتول وقال : يا رسول الله ان ابن عمي قتلني دون من يدعي عليه قتلي ، فعلموا بذلك قاتله فقال لرسول الله موسى بعض اصحابه : ان هذه البقرة لها نبأ[2] فقال وما هو ؟ فقال : ان فتى من بني اسرائيل كان باراً بابيه . . . فقال رسول الله موسى انظروا الى البر ما يبلغ بأهله ! .

تُوهَب له هذه البقرة بعينها جزاءً بما كسب ، والصفتان تتلاقيان في هذه الوهبة الأبوية بوهبة ربانية تجعله من أغنى الأغنياء في بني اسرائيل ، كما وان ضرب المقتول ببعضها شهادة معلنة أنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ٧٢ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾٧٣ .

هنا « نفساً » و « بقرة » هما مؤنثان ، فكيف تختص إحداهما بذكورة الضمير « اضربوه ببعضها » ؟

علَّ تذكير الضمير الراجع إلى « نفساً » باعتبار أنها القتيل ، وليوضِّح أنه المضروب ببعض البقرة وليست هي المضروبة به ، ولا سبيل لذلك الإيضاح إلاّ تذكير ضمير « نفساً » القتيل .

وهنا عرض لمادة القصة الأصيلة وهي واقع إحياء الموتى ، ففي « إضربوه ببعضها » نموذج منه يدل على إمكانية وواقع إحياء الموتى بالأولى ، فإذا يحيى ميت بضرب ميت آخر به ، فلئن يحيى بارجاع الروح إليه أحرى وأولى .

أنتم « قتلتم نفساً فادارأتم فيها » كلٌّ يدرءه عن نفسه ويلقيه على آخر « والله مخرج ما كنتم تكتمون »[1] بهذه الخارقة البارعة أن تضربوه ببعضها « كذلك » البعيد في قياسكم ، القريب القريب في قياس الله « يحيي الله الموتى »

(١) ١ : ٧٨ - اخرج احمد والحاكم وصححه والبيهقي عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو ان رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله الى الناس كائناً ما كان ، وفيه اخرج البيهقي من وجه آخر عن عثمان قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من كانت له سريرة صالحة او سيئة اظهر الله عليه منها رداءً يُعرف به .

على طول الخط ، مهما اختلفت الإحياآت هنا وفي الأخرى ، ولكنما الإحياء في الأخرى أحرى .

أحرى « لتجزى كل نفس بما تسعى » وهنا الإحياء لم يكن إلّا إخراجاً لما كنتم تكتمون ، كواقعة جزئية تهتدون فيها إلى جزاء القاتل بعد ما تعرفون .

وأحرى لأنه أهون من الخلق الاوّل : « وهو الذي يبدءُ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٣٠ : ٢٧) « أهون عليه » في قياسكم ، إذ ليس في قياس الله لنفسه هين وأهون ، فـ « كما بدأكم تعودون » ثم و « كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » مما يلمح أنهم كانوا في شكٍ من إحياء الموتى ، وكما لا نرى في التوراة الحالية ـ على طولها ـ نصوصاً حول المعاد ، اللهم إلّا إشارات ، مما يدل على حالة النكران الإسرائيلي ـ العريقة فيهم ـ منذ نزلت عليهم التوراة فضلاً عما بعدها ، فقد حرّفوا عن التوراة آيات المعاد فجرّفوها بجرّافات التجديف والتحريف !.

فطالما المسافة بين الموت والحياة هائلة غائلة تدير الرؤس ، ولكنها في حساب الخالق سهل يسير ، ففي ضمن ما يجيب عن سؤالهم يعطفهم إلى واقع إحياء الموتى الذي هم فيه مترددون .

فقد كان بالإمكان الإجابة : أن فلاناً هو القاتل ، ولكنهم ـ حسب طبيعتهم ـ قد ينكرون تكذيباً لموسى ، فليكن القاتل هو نفس القتيل حتى يصدقوه شاءوا أم أبوا .

وكان بالإمكان إحياء القتيل ليشهد شهادته دون هذه الطائلات البليات في قصة البقرة ، ولكنهم قد يتشككون في كونها خارقة إلهية بيد موسى الرسول .

وكان بالإمكان إحياءه بأن يَضرب به موسى يده أو عصاه ، ولكنه ما كان

يفيد كامل الفائدة : أن يؤمروا بذبح ما كانوا يحترمونه لحد العبادة ، وأن يشتروها وهم الأنجاس ، وأن يضربوه ببعضها فيحيي تدليلاً على إمكانية بروز الحياة بضرب ميت بميت فضلاً عن رجوع الروح الحي إلى البدن الميت ! فـ « كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

أترى أي جزء من جسد البقرة كانت له هذه الفاعلية بإذن الله ؟ « ببعضها » يلغي كل الإختصاصات عن أي جزء منها ، فكما « بقرة » كانت طليقة لأوّل مرة ، كذلك « ببعضها » على طول الخط ، إذ لم يتزايدوا فيه كما تزايدوا فيها فلم يخرج عن اطلاقه !٠

فيا لقصة البقرة من آماد بعيدة وآيات غريبة قريبة ، لم تك تحصل إلاّ بما حصل ، ما يحق أن تتسمى بها السورة لهذه البقرة وهؤلاء الأباقرة .

وقيلة القائل ـ الغيلة على آيات الله البينات ـ أن « يحيي الله الموتى » هنا يعني حفظ الدماء التي كانت عُرضة للسفك بسبب الخلاف في : من هو القاتل ، إنها مردودة عليه بـ « كذلك » المشيرة إلى « إضربوه ببعضها » فـ « كذلك » الضرب « يحيي الله الموتى » ولو لم يكن في ذلك الضرب إحياء القتيل ، فكيف عرف القاتل بذلك الضرب ، وما هي الصلة بينه وبين معرفة القاتل لولا إحياء القتيل ! ثم ولا إشارة في القصة باحتمال سفك الدماء لو لم يُعرف القاتل !

صحيح أن إبقاء الحياة قد يسمى إحياء : « ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً » ولكن كيف تُبقى حياة بين المتدارئين في : من قتل القتيل ، إلا بمعرفة القاتل الحقيقي ، وكيف يُعرف بـ « إضربوه ببعضها » لولا إحياءه بذلك الضرب ، ثم « والله مخرج ما كنتم تكتمون » ليس إلا تعريفاً عملياً بالقاتل ، كما و« يريكم آياته » تلميحة بينة أن هناك آية خارقة إلهية بها عرف القاتل .

فإنما هي انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً شاهداً فيما ادّارؤا ، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة ، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة « كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

لا كما يقوله هذا الهارف الخارف ، المأول آيات الله المعجزات إلى دعايات متعودات .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤ .

« ثم » بعد هذه الآيات البينات « قست قلوبكم » أكثر مما كانت قاسية بدلاً عن أن تلين لذكر الله « قست من بعد ذلك » الإحياء إجابة عن سؤال وإيتاءً لسؤل ، كما « بعد ذلك » التنبيه بكل نُبهة في مختلف المجالات .

أترى الخطاب هنا يختص بالسابقين ؟ فما هو ذنب اللاّحقين ! « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ! أم يخص اللاّحقين « من بعد ذلك » الذي حصل للسابقين عبرة للاّحقين ، فـ « قست قلوبكم » إذ « انشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر » (٢٨ : ٤٥) : « ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أو توا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (٥٧ : ١٦) .

قد يشملهم الخطاب جميعاً ، فإنهم سلسلة موصولة على طول التأريخ الإسرائيلي ، أنهم تقسى قلوبهم أكثر وأقسى مما كانت من قبل ، وآيات الله تترى عليهم لِصق بعضٍ ليلَ نهار ، كما « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

« ثم قست . . فهي كالحجارة » في القسوة الصلبة الصلتة ، لا فحسب « أو أشد قسوة » .

وترى « أو » هنا تُضرب عن قسوة الحجارة إلى أشد قسوة ؟ وليست قلوبهم ـ ككل ـ إلّا كالحجارة أو اشد قسوة ، فلا مجال للإضراب إلّا ممن يجهل مدى القسوة فيها ! .

أم هي للإضراب بالنسبة لبعضهم ؟ و « كُم » لا تعني البعض ، فقلوب الكل إما هي كالحجارة أو اشد قسوة !.

قد تعني « أو » هنا التقسيم ، فقلوب البعض كالحجارة ، وقلوب الآخرين أشد قسوة .

أم وتعني مختلف الحالات في بعض القلوب ، فقد كانت قاسية ، ثم اشتدت قساوتها فهي كالحجارة ، ثم تشتد فهي أشد قسوة ، فكلا الإضراب والتقسيم ـ إذاً ـ معنيّان من « أو » أم وثالث هو الإبهام[1] ، وهو ـ فقط ـ بالنسبة لمن لا يعرف مدى قساوة القلوب ، التي هي كالحجارة أو اشد قسوة ، ويلحقه رابع هو التشكيك ، والأخيران هما في دور واحد !.

ودليلاً على « أو أشد قسوة » : تفجر الانهار من بعض الحجارة ، وتشقق البعض بخروج الماء منها ، وهبوط البعض من خشية الله !.

وهذه القلوب الخاوية المقلوبة لا تتفجر منها أنهار المعرفة ، ولا تتشقق

---

(١)
خيرٌ أبح قسم باو وابهم ... واشكك وإضراب بها إيضاً نمي

وفيما يروى عن الامام الحسين (عليه السلام) من تفسير الآية ﴿ او اشد قسوة ﴾ ابهم على السامعين ولم يبين لهم كما يقول القائل : اكلت خبزاً او لحماً ، وهو لا يريد به انه لا ادري . ان يبهم على السامع حتى لا يعلم ماذا أكل وان كان يعلم ان قد اكل ايهما . . .

بخروج مياهها منها ، ولا تهبط من خشية الله ، بل هي جافة صلدة صلتة لا تزداد في خِضَمِّ الآيات البينات إلّا تصلُّداً وجموداً وجفافاً وخموداً ! .

لقد رأوا الحجر انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بما ضرب موسى عصاه ، ولم تنفجر قلوبهم بعصا الرسالة الموسوية ! ورأوا الجبل اندك بما تجلى له ربه ، ولم تندك جبال قلوبهم بتجلي هذه الرسالة السامية ، وجلوات آيات الله البينات ، فهي لا تلين بها ولا تندى ، ولا تنبض بخشية ولا تقوىً ، بل وتزداد طغوى على طغوى ! قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة ليست لتلين بذكر الله أياً كان وأيان « وما الله بغافل عما تعملون » فـ « لاتحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وافئدتهم هواء » .

نرى أن « من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار » كما نرى « وإن منها لما يشقق فيخرج منها الماء » فما هي الحجارة التي تهبط من خشية الله وهي لا تعقل ولا تكلُّف بشيء ؟ .

أهي كما قال الله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٥٩ : ٢١) ؟ « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٢١) تحوّله إلى مَثَل لا واقع له ، و « لو » تحيل واقعه ، فلن ينزل الله على جبل ذكراً : قرآناً وغير قرآن ، وهناك الله في اقتسام الجبال يضرب مثل الواقع من الجبال لبيان مدى قساوة هذه القلوب ، فليكن هبوطها من خشية الله واقعاً كتفجر الأنهار من بعضها ، وخروج الماء من تشقق الأخرى ! .

ثم لو كان الهبوط من خشية الله على فرض نزول الوحي عليه لعم الجبال كلها كما « على جبل » تعممه لها كلّها ، دون « وان منها » !

أم « ان منها » هنا راجعة إلى القلوب لتَقدم ذكرها ، ومهما كانت الحجارة

اقرب مرجعاً ، فالقلوب أنسب وأليق معنى ؟ وهو بعيد أدبياً لبعد المرجع ، وبعيد معنوياً حيث القلوب تقلّب ولا تهبط ، اللهم إلا هبوطاً عن علوائها المقلوب ، فتنضبط ذاكرة لله ، متذكرة بآيات الله .

هذا ولكن الجبال كجبال هي مثال لقساوة القلوب ، وليست القلوب الخاشية الهابطة من خشية الله ـ وهي القلوب المؤمنة المطمئنة بالله ـ ليست هي بالتي تناسب ضربها مثلاً لإثبات أن قلوبهم أقسى من الحجارة !٠

قد يعني هبوط بعض الجبال من خشية الله ، هبوطها الهابط منها بأمر الله تكويناً وهي شاعرة له ومدركة ، فـ « إن من شيءٍ إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبحهم » (١٧ : ٤٤) تعمم الخشية الشعورية إلى كل شيءٍ ، فالهابط من الجبال تهبط بخشية الله ، كما الثابت منها تثبت بخشية الله ، ولاينافيها الأسباب الطبيعية لهبوطها، فانها كلها منتهية إلى الله ، ولا يعمل اي سبب عمله إلاّ بامر الله و « كل له قانتون » (٢ : ١١٦) فظاهر الخضوع فيها لتدبير الله بآثار الصنعة وإحكام الصنعة لحد الهبوط فيها تهبط ، تقريع على تلك القلوب المقلوبة غير الخاشية لله .

فحينما الحجر يهبط من خشية الله ، لا تهبط قلوب هؤلاء ـ الأشد قسوة من الحجارة ـ من خشية الله « وما الله بغافل عما تعملون » .

إنهم خَوَنة في أمانة الله لا يوجد لهم مثيل في الكائنات فـ « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » (٣٣ : ٧٢) وآية الأمانة هذه ـ كما فسرناها في سورتها ـ تحمل حملة عنيفة على الإنسان الظلوم الجهول في خيانته أمانة العقل والتكليف ، فحمل الأمانة يقابل أداءها ، فهو خيانتها .

وعلى حد المروي عن سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام في

تفسير الآية : «يبست قلوبكم معاشر اليهود كالحجارة اليابسة ، لا ترشح برطوبة ، اي : انكم لا حَقّ الله تؤدون ، ولا لأموالكم تتصدقون ، ولا بالمعروف تتكرمون ، ولا للضيف تقرون ، ولا مكروباً تغيثون ، ولا بشيءٍ من الإنسانية تعاشرون وتواصلون . .[١] .

فيا ويلاه من قسوة القلوب فـ « ما جفت الدموع إلّا لقسوة القلوب وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب »[٢] و « لاتطوّل في الدنيا أملك فيقسو قلبك والقاسي القلب مني بعيد »[٣] .

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ

---

(١) نور الثقلين ١ : ٩٠ في الخرايج والجرايح روى عن الحسين بن علي (عليهما السلام) في قوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم . . ﴾ . . . . . ـ نقلنا تفسير او اشد قسوة في العدد السابق ـ وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، اي قلوبكم في القساوة بحيث لا يجيء منها خير يا يهودي ، وفي الحجارة ، يتفجر منه الانهار فيجيء بالخير والنبات لبني آدم « وان منها » اي من الحجارة « لما يشقق فيخرج منه الماء » دون الانهار ، وقلوبكم لا يجيء منها الكثير من الخير ولا القليل « وأن منها لما يهبط » أي من الحجارة أن أقسم الله عليها باسم الله يهبط ، وليس في قلوبكم شيءٌ منه . . . » .

(٢) المصدر ٩٢ في كتاب العلل باسناده الى الاصبغ بن نباتة قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) .

(٣) المصدر في الكافي عن علي بن عيسى رفعة قال : فيما ناجى الله عز وجل به موسى (عليه السلام) يا موسى . .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ
أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ
ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ
ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ
قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ
بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

لقد كان المسلمون على علم ـ حسب القرآن ـ أن اليهود يعرفون القرآن ويعرفون رسول القرآن كما سطرت لهم في التوراة ، فكانوا ـ قبل الهجرة ـ يأملون أن يؤمنوا لهم ، حتى هاجروا وخاب أملهم ، وهنا يُطَمْئِنهم الله أنهم ليسوا ليؤمنوا لهم بسابق غيِّهم وقساوة قلوبهم ، وتحريفهم كلام الله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٧٥] .

« يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكّروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم . . » (٥ : ١٣) .

هنا « يؤمنوا لكم » كأضرابها ، تعني الإيمان لصالح المسلمين ، وليس الإيمان بالمسلمين ، كما « آمن له لوط » فإن في إنسلاك لوط في سلك إبراهيم ـ وقد كان مؤمناً بالله قبلُ ـ أزرٌ وشدٌّ ظهر للدعوة الإبراهيمية ، وكذلك اليهود ـ وهم أعظم أهل الكتاب ـ كان في إيمانهم برسالة الإسلام ، اطمئناناً لصالح المسلمين فإيماناً لهم أمام مشركي الجزيرة ، ولكنهم أصبحوا أنكر وأكفر منهم .

« أفتطمعون » بعد ما سمعتم من قساوة قلوبهم أمام شِرعتهم الإسرائيلية أنفسِهم « أن يؤمنوا لكم » وهم لم يؤمنوا لرسولهم « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله » التوراة « ثم يحرفونه » معنوياً ، أم وتعبيرياً « من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » الحقَّ الرسالي لمحمد (ص) فيما عقلوه ، كسائر الحق الذي كانوا يحرفونه من بعد مواضعها ! .

وذلك الفريق هم بطبيعة الحال مُدراء الشرعة التوراتية ، المسموع كلامهم عند أتباعها ، لحد لا يؤمنون لكم إتباعاً لهم ، وليس يختص هذا الفريق بالذين عاشروا موسى (ع) ولا الذين عاشروا محمداً (ص) بل هم كل من كان يسمع آيات التوراة ثم يحرفه من بعد عقْله لها وهو يعلم ماذا سمع وماذا ولماذا حرفَ ؟.

فحين يسمعون كلام الله من موسى « نابِء آقِيم لاهِمْ مِقِرِبْ إحِيحِمْ كِمُوشِهْ ونَاتَتِّي دِبَارِي بِفِيُو وِيِدِبِرْ إلُوهِيمْ إتْ كَالْ أشِرْ أصَّونُوا » (تث ١٨ : ١٩) :

« نبيٌ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به » .

هكـذا يسمعونـه ثم يحرفـونه من بعـد ما عقلوه وهم يعلمـون ، يحرفـونـه تحريفاً مشوَّهاً كما في الترجمة العربية عن اصل يوناني ١٦٨٧ :

« أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعـل كلامي في فمـه فيكلمهم بكـل ما أوصيـه به » (١٩) فقـد بـدلت « من أقـربـاء أخيهم » إلى « من وسط إخوتهم » حتى تنحرف هذه البشارة عن النبوة غير الإسرائيلية ، فأخيهم هنا هو عيص أخـو يعقوب وكـما في « تث ٢٨ : ٨ » ولأن عيص تـزوج بنت إسـماعيـل وأولد منها ولداً ومن غيرها آخرين ، لذلك أصبح بنوا إسماعيل من عيص أقرباء بني عيص ، إذاً فأقرباء إخوة بني إسرائيل هم بنوا إسماعيل من عيص وقـد بعث من بينهم محمد (ص)[1] !

وحين يسمعون كلام الله من موسى « وُليشْمعِيل شِمَعتيخَا هِينّهْ بَرخْتِي أتوا وَهِيفْرِتِي أُوتُوا وهِيرْبَتِي أُوتوا بِمُئدْ مِئُدْ شِنِيم غـاسارْ نسِيئيم يُـولِدْ وِنْتِيـوُ لِغُوى غادُلْ » (التكوين ١٧ : ٢٠)

« ولإسـماعيل سمعتـه (ابراهيمَ) هـا أنا أبـاركه كثيـراً وأنمّيه كثيـراً وأرفع مقامه بمحمد واثني عشر إماماً يلدهم اسماعيل واجعله امة كبيرة » .

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعـد ما عقلوه وهم يعلمـون ، كما في نفس الترجمة : « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها انا أباركه وأثمره وأكثره جـداً اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة » .

فقد ترجموا « بمئد مئد » وهو محمّد ـ وحتى بحساب الأعداد الذي يعتمدون عليه ، فانـه (٩٢) كما محمـد (٩٢) ـ ترجمـوه بـ « أكثره جـداً » رغم أن معناه كثير الحمد المعبر عنه بأحمد ومحمد ![2] .

---

(١) راجع كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) ٣٣ ـ ٣٩ .

(٢) راجع « رسول الاسلام » ٤٠ ـ ٤٣ .

وحين يسمعون كلام الله من هوشع : « كي هِنّيه هالْخُو مِيشوذْ مِيصْرَيِيم تِقَبْصِم مُوفْ تِقَبْرِمْ محمّد لِكسَفام قِيمُوشْ بِيراشِمْ حُوحَ بِاهآليهم » (هوشع ٩ : ٦) :

« ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب ، فمصر تجمعهم ، وموف تدفنهم ، ومحمّد لفضتهم والقرّاص يرثهم ، والعوسج يستولي على أخبيتهم » .

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون من هو محمّد ، وكما نرى في مختلف التراجم :

« والقراص يرث فضتهم الشهية ـ يرث القريص نفائس فضتهم ـ الأمكنة المرغوبة لفضتهم ـ بيت الأمل لفضتهم » محرفين محمداً بهذه الأربع مخافة عن أن تعني محمداً (ص)(١) !

وحين يسمعون كلام الله من سليمان (ع) في مواصفة عريضة لمحبوب وحيد له وفي النهاية :

« حِكُو مَمَتَقِّيمْ وِكُولُو محَمُديم زِهْ دُودِي وِزِهْ رِعي بِنُتْ يِرُشالام » (نشيد الأنشاد ٥ : ١٦) :

« فمه حلوٌ وكّله محمّد هذا محبوبي وهذا ناصري يا بنات اورشليم » .

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون انه محمد الرسول (ص) .

ففي الترجمة التقليدية للتورات نجدها هكذا : « حلقه حلاوة وكُله

---

(١) بخصوص لفظة محمد في بشارة هوشع بينا هناك ان تحريفهم يحمل اغلاطاً من الناحية الادبية كما المعنوية (٧٣ ـ ٧٩) .

مشتهيات هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات اورشليم !»[(١)] .

وهكذا نجد وفيراً من البشارات التوراتية بحق محمد (ص) أوردنا قسماً منها في كتابنا « رسول الإسلام في الكتب السماوية » بين محرفة لفظياً او معنوياً من هذا الفريق الغريق في أنانيات العنصريات .

﴿ وَإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإذا خَلا بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ أفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ٧٦ .

قد تلمح الآية أن هؤلاء هم فرقة غير متطرفة من هذه الفرقة العالمة المحرفة ، فهم يراعون الجانبين « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » بما سمعنا من خبر محمد والقرآن في التوراة « وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا » : البعضُ الثاني المحرِّف اللجوج ، للبعض الاوّل « أتحدثونهم » : المسلمين « بما فتح الله عليكم » : من هذه البشارات « ليحاجوكم به عند ربهم » لماذا لم تؤمنوا « أفلا تعقلون » أن تحديثكم هذا خلاف المصلحة الطائفية ، وقد يبوء بالخسار يوم الأخرة !.

وترى إذا كانت هذه البشارات فتحاً لأهل التوراة ، فلماذا ـ إذاً ـ إخفاءها ؟ .

إنها كانت لهم فتحاً على الذين كفروا قبل مبعث الرسول محمد (ص) ، فتحاً جانبياً وقتياً ، ثم بعدما جاء دور الرسول المبشر به كفروا به : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٢ : ٨٩) .

هؤلاء الحماقى يعتبرون التحديث بهذا الفتح للذين آمنوا خلاف العقل

---

(١) رسول الاسلام في الكتب السماوية ٨٠ ـ ٨٣ .

« افلا تعقلون » تنديداً بفريق منهم غير متطرف يحدث به لهم إذ ليسوا من المعاندين المتواطئين (١) .

وقد يلمح « وإذالقوا » رجوعاً لضمير الجمع الى الفريق السابق ذكرهم ، السامعين كلام الله المحرفين له ، أنهم كانوا ينافقون الفريقين : المسلمين واليهود ، مهما كانوا أقل تطرفاً منْ أقطاب التحريف والتجديف ، إذ هم يُجهِّلونهم بما يحدثون للمسلمين .

﴿ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ ﴾٧٧ .

أفلا يعقلون هم أولاء الأنكاد المجاهيل «أو لا يعلمون » متجاهلين عن علم كتابي وعلم عقلاني « ان الله يعلم ما يسرون » من بشارة وسواها « وما يعلنون » إذا لقوا الذين آمنوا ؟ فسواء عليه في حجاجه عليهم أسرُّوا ما فتح عليهم أم أعلنوا ، فحين لا يؤمنون بما فتح لهم فانه يحتج عليهم يوم القيامة مَن فتح عليهم ، سواء أحاجَّهم المؤمنون به عند ربهم أم لم يحاجوا ، فلا صلة بأصل هذه المحاجة الربانية لهذا الإعلان ، ولا لمحاجة المؤمنين إن علموا .

وَيكأن الله لا يعلم إلا بما علم المؤمنون ، ولا يحاجهم إلاّ إذا حاجوهم به عند ربهم ، فالله ـ إذاً ـ هو الفرع وهؤلاء وأولاءهم الأصلاء ! .

فالله هو الذي فتح عليهم هذه البشارة ، وهو الذي فرض عليهم إتّباع هذا النبي ، فهل ينسى او يتناسى يوم القيامة ما فتح عليهم ؟ فهو يحتج إذا حدثوه به المسلمين ! ولا يحتج إذا لم يحدثوا ! .

---

(١) نور الثقلين ١ : ٩٢ ـ في مجمع البيان حول الآية روي عن ابي جعفر الباقر (عليهما السلام) « انه كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين اذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فيحاجوكم به عند بكم » فنزلت هذه الآية .

فيا لحمقهم من عمق ، ولعمقهم من حق ، كيف يُجهِّلون الله مصلحيةَ الحفاظ على الرسالة الإسرائيلية في زعمهم .

ومن أعجب العجاب أنهم يجهِّلون غير المعاندين منهم ، المجاهرين بذلك الفتح للذين آمنوا : « أفلا تعقلون » وهم أنفسهم يحملون من اللاّ عقل ما ينفر منه الحمر المستنفرة ، حاسبين ألاّ حجة لله عليهم إلاّ أن يصارحوا المسلمين بذلك الفتح ! فحقاً إنهم أباقرة عباقرة !٠

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾٧٨ .

هذه فرقة ثالثة إسرائيلية ، جاهلة قاحلة مستضعفة ، بعد الأولى العالمة المعاندة المستبكرة المحرفة ، والثانية المتعلمة المنافقة غير المتطرفة ، والويل كل الويل على الأوّلين ، ثم الآخرين حسب دركات في تقصيراتهم ، ثم المستضعفون القُحّ غير المعاندين قد تدركهم رحمة من الله .

فـ « أميون » هنا يعني عن معرفة الكتاب ، سواء هؤلاء الذين لم يدرسوا قط اي كتاب ، ولم يسمعوا سمع المعرفة لعلم الكتاب[1] ، أم الذين هم دارسون علوماً غير علم الكتاب ، أو الذين درسوا ألفاظه وهم عن معانيه غافلون ، وعن مغازيه جاهلون ، ومهما اختلفت دركات ثالوث الأمية ، ولكنهم كلهم قد يُعتبرون هنا من الأميين ، وكما اعتبر غير أهل الكتاب ـ ككل ـ من

---

(١) نور الثقلين ١ : ٩٢ عن الاحتجاج للطبرسي باسناده الى ابي محمد العسكري (عليه السلام) في الآية : إنّ الأمي منسوب الى الأم ، اي هو كما خرج من بطن امه لا يقرء ولا يكتب ، لا يعلمون الكتاب المنزل من السماء ولا المتكلم به ولا يميزون بينهما إلا أماني ، اي إلاّ ان يقرء عليهم ويقال لهم ان هذا كتاب الله وكلامه ، لا يعرفون إن قرىء من الكتاب خلاف ما هم فيه ﴿ وان هم الا يظنون ﴾ اي ما يقرأ عليهم رؤساءهم من تكذيب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في نبوته . . .

الأميين ، إذ لم تسبق لهم معرفة كتابية : « وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين ءأسلمتم » (٣ : ٢٠) .

فالأمية قد تكون مطلقة وأخرى نسبية ، نسبةً إلى علم الكتاب الرسالي بدرجاته ، و « لا يعلمون الكتاب إلّا اماني » هنا ، تعني هذه النسبية ، فقد يكون بارعاً في العلوم التجريبية ، ولكنه فارغ من العلوم الكتابية ، فهو ـ إذاً ـ من الأميين ، كما الأمي الطليق منهم ، مهما اختلفت مسؤلياتهم حسب مختلف أمياتهم .

« لا يعلمون الكتاب إلّا أماني » هي جمع أمنية ، وهي البغية الخيالية المتهوسة التي لا واقع لها حقاً ، فقد يقرءون الكتاب وهم عن معانيه غافلون ، وهنا مسرح الأمنيات الفارغة من عند أنفسهم أو المستكبرين المحرفين الكَلِمَ عن مواضعه ، فهم حضور عند الألفاظ والقراآت ، غُيَّبٌ عن المعاني والمرادات « وإن هم إلّا يظنون » فيما يتمنون من معانٍ ، لا يسندون إلى علم او أثارة من علم إلّا « أماني » لأنفسهم ، أم تقاليد جاهلة عمياء .

إذاً فـ « إلّا أماني » استثناء منقطع ، حيث الأماني أمام الكتاب ليس علماً بالكتاب في وجه من الوجوه ، فإن الأماني هي من الشيطان : « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً » فهي ـ ككل ـ تخيلات بعيدة عن الواقع الحق وعن حق الواقع ، بعيدة عن كتاب الله وعن كل شرعة الله !-

فالعلم الحجة من شرعة الله ، هو بين علم عن اجتهاد سليم ، ام علم عن تقليد سليم ، ثم لا ثالث « إلّا أماني وإن هم الا يظنون » .

ولا يعني التقليد في شرعة الحق التنازل عن كل عقل وعلم ، إنما هو تفتيش عاقل عالم عمن يعقل تماماً ويعلم شرعة الحق ، عالماً عيلماً أميناً على دينه ، صادراً عن شرعة الوحي الحق ، وواردأ مورد الحق .

فالأمي الطليق الذي يجهل ، ويجهل أنه يجهل دونما تقصير ، هو من « المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولٰئك عسى الله أن يعفو عنهم » .

والأمي العارف بأميته وجهله ، عليه ان يتعلم ، او يتبع خُطى من يعلم ، دون ترسُّل في تقاليد جاهلة عمياء ، فهو مستضعف مقصر في تقليده ، مسؤول عند ربه .

والأمي الذي هو على درب التعلّم ، ولا يقلّد إلا فيما ليس ليعلم ، وانما يقلّد من يعلم وهو أمين ، انه على سبيل نجاة[1] .

---

(١) في تفسير بيان السعادة ١ : ١٠٦ نقل انه قال رجل للصادق (عليه السلام) : فإذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب الا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم الى غيره فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم ؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلدون علماءهم فان لم يجز لاولئك القبول من علمائهم لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم ؟

فقال : بين عوامنا وعلمائنا وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة ، اما من حيث استووا فان الله قد ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذم عوامهم ، واما من حيث افترقوا فلا ، قال : بيّن لي ذلك يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (عليه السلام) : ان عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وبأكل الحرام والرشا وبتغيير الاحكام عن وجهها بالشفاعات والعنايات والمصانعات ، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به أديانهم ، وانهم اذا تعصبوا ازالوا حقوق من تعصبوا عليه وأعطوا ما لا يستحق من تعصبوا له من اموال غيرهم وظلموهم من اجلهم وعرفوهم يقارفون المحرمات واضطروا بمعارف قلوبهم الى أنّ من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز ان يصدَّق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله فلذلك ذمهم لما قلّدوا من قد عرفوا ومن قد علموا انه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه في حكايته ولا العمل بما يؤديه اليهم عمن لم يشاهدوه ، ووجب عليهم النظر بانفسهم في امر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اذ كانت دلائله أوضح من ان تخفى واشهر من ان لا تظهر لهم وكذلك عوام امتنا اذا عرفوا من فقهاءهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة والتكالب على حطام الدنيا وحرامها =

ثم الويل كل الويل هو للذين يستجهلون الأميين استحماراً واستثماراً استكباراً في الارض .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ٧٩ .

لقد جلسوا مجلس التشريع بإنزال الكتاب ، وتبديل بعضه ببعض « ليشتروا به ثمناً قليلاً » وكل ثمن الدنيا في ذلك الإشتراء قليل ، فهم يكتبون الكتاب بايديهم كما يهوون ثم يقولون للبسطاء الأميين هذا من عند الله ، بغية مكاسب دنيوية مالاً ومنالاً فوبالاً على أية حال .

إن ذلك هو أنحس دركات التحريف ، حيث التحريفات المعنوية والألفاظ باقية كماهيه ، ليست إلا تحريفات للأميين الجامدين ، فأما الذين يتحرون عن حق الوحي والوحي الحق ، فهم ـ بفضل الله ورحمته ـ سوف يهتدون الى الحق ، متحللين عن تلكم التحريفات المعنوية ، بترك هذه التقاليد العمياء .

« فويل لهم » أولئك الكاتبين الكتابَ بايديهم « مما كتبت ايديهم » و« ويل لهم » أولاء أصلاء ، وللمنافقين التابعين لهم وسطاء ، وللأميين أتباعاً « مما يكسبون » من هذه المختلَقات الزور ! .

ـ وإهلاك من يتعصبون عليه وان كان لإصلاح امره مستحقاً ، والرفق والبر والإحسان على من تعصبوا له وان كان للإذلال والإهانة مستحقاً ، فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمهم الله بالتقليد لفسقة فقهائهم .

فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه وذلك لا يكون إلا في بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم ، فإن من يركب من القبائح والفواحش مراكب فسقة فقهاء العامة فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً ولا كرامة لهم .

فقد « عمدوا إلى التوراة فحرفوا صفة النبي (ص) ـ فيما حرّفوا ـ ليرفعوا الشك بذلك للمستضعفين من اليهود »[١] .

وترى ما هو موقف « بأيديهم » ولم يك يُكتَب الكتاب إلّا بايديهم ، ثم إذا كُتب بإملاء أم آلات كاتبة أخرى ، فهلّا يندد به إن كان تحريفاً وتجديفاً .

قد تعني « بأيديهم » كافة القوات والآلات الكاتبة ، لا ـ فقط ـ الأيدي الجارحة ، فلكي يحلّق النهي على كافة المحاولات في تحريف الكتاب ، فالأصلح الأصرح الأكفى هو « يكتبون الكتاب بأيديهم » حتى تجتث كافة المحاولات بأية قدرة من القدرات لتحريف الكتاب ، تلزيقاً له بوحي الكتاب ، وتعليقاً على كتاب الوحي كانه هو من الوحي .

ثم لمحة أخرى في « بأيديهم » أنْ كَتْب الكتاب لم يكن بأيدٍ ربانية ككتاب الوحي ، أم نقلاً واستنساخاً لكتاب الوحي ، بل بأيدي أنفسهم، بنفسياتهم وهوساتهم ، أياً كانت تلك الأيدي بقواتها ، سواء في ذلك الكتابات الخطية إملائية وسواها ، أم الكتابات الصوتية أو الصورية ، أم كتابات عملية أنهم يعملون أعمالهم الشهوانية ، متظاهرين أنها ربانية ، فـ « الكتاب » قد يشمل كتب التقرير والعمل والبيان أياً كان ، كما الأيدي تشمل كافة القوات الكاتبة بآلاتها متصلة ومنفصلة .

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾٨٠ .

أمنية فارغة خارقة لا تستقيم مع عدل الله ، ولا مع ايٍّ من الأعراف

---

(١) نور الثقلين ١ : ٩٣ في المجمع وقيل كتابتهم بايديهم انهم عمدوا . . . وهو المروي عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) .

المستقيمة ، ولا تتمشى مع التصور الصحيح في حقلي العمل والجزاء ، ان يحسبوا انفسهم ناجين من العذاب العدل والجزاء الوفاق مهما فعلوا وافتعلوا ، لا لشيء إلّا أنهم من بني اسرائيل !.

كما وإخوانهم المسيحيون قد يحسبون أنفسهم ناجين عن العذاب لا لشيء إلّا أنهم يعتقدون في ثالوث الالوهية ، وأن ربهم المسيح إفتداهم ـ بصلبه ودخوله الجحيم ـ عن لعنة الناموس !.

أمنيات جاهلة متجاهلة ميزانَ العدل الرباني في عباده ، يتمسك بها الذين يهوون الحرية الكاملة في الشهوات والحَيْوَنات في كل النزوات الطائشة ، وهم رغم كل هذه لا تمسهم النار إلّا أياماً معدودة أم ولا تمسهم أصلاً ، ولن . . .

فـ « لن » تُحيل ـ في حسبانهم ـ أن تمسهم النار ـ وهم يستحقونها خالدين بما كتبوا وكسبوا ـ « إلّا اياماً معدودة » في اي عَدَد وعُدَد ، عدد الأيام التي عبدوا العجل ، أم عدد الأيام التي اجترموا ما اجترموه ، أم أي عدد في حسبانهم(١) .

« قل أتخذتم عند الله عهداً » في هذه الأمنية الفارغة البعيدة ؟ وطبعاً كلّا ! فان إتخذتم عند الله عهداً « فلن يخلف الله وعده » فلن تمسكم النار إلّا

---

(١) الدر المنثور ١ : ٨٤ ـ اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن عكرمة قال : اجتمعت يهود يوماً فخاصموا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا : لن تمسنا النار الا اياماً معدودات وسموا اربعين يوماً ، ثم يخلفنا فيها ناس وأشاروا إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واصحابه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ورديده على رؤوسهم : كذبتم بل انتم خالدون مخلدون فيها لا نخلفكم فيها ان شاء الله تعالى أبداً ، ففيهم انزلت هذه الآية ، واخرج مثله في العدد ابن جرير عن زيد بن اسلم عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وعن تفسير القمي في الآية قال قال بنو اسرائيل : لن تمسنا النار ولن نعذب إلا الايام المعدودات التي عبدنا فيها العجل فرد الله عليهم قل يا محمد لهم : ﴿ أتخذتم عند الله عهداً . . . ﴾ .

أياماً معدودة « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » وإنما تتهوسون وتأملون دون أي سناد إلّا اماني وإن أنتم إلّا تظنون .

هؤلاء الأنكاد الأغباش الأبقار اتخذوا عنصريتهم جِذراً عن خلود النار ، فهم ـ إذاً ـ أحرار فيها يعملون بما يأملون : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون. ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلّا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون » (٣ : ٢٤) .

وفي « لن تمسنا النار إلّا . . » تلميحة أن النار لا تحرقهم وهم داخلوها أياماً معدودة ، وإنما تمسهم مساً دون دخول فيها ولا إحراق ، وكأن ذلك تنازل منهم في استحقاق العذاب ، وإلا فهم شعب الله المختار فلا يعذبهم الله مهما كفروا وعصوا وكذبوا بآيات الله ! والجواب كلمة واحدة :

﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٨١] .

« من كسب » أياً كانوا من الأمم ، ملحدة أم مشركة أم كتابية ، هوداً أو نصارى أم مسلمين ، فـ « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يُجزَ به ولا يجدْ له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً » (٤ : ١٢٤) :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٨٢] .

فالخالدون هنا في طاعة الله ، هم الخالدون هناك في رحمة الله ، والخالدون هنا في معصية الله ، هم الخالدون هناك في نقمة الله « ولا يظلمون نقيراً » .

ولا يعني الخلود في النار ـ رغم ما يُزعم ـ لانهائية المقام في النار ، مهما عناها الخلود في الجنة لأنها حسب القرآن « عطاء غير مجذوذ » ولكن النار هي جزاء وفاق ، فعلى قدر الكفر والعصيان يكون الخلود في النار ، وحتى الأبدين في النار يفنون يوماً مّا بفناء النار بعدما ذاقوا وبال أمرهم قدَرَه ، وقد فصلنا البحث حول مدى الخلود في النار كراراً وتكراراً .

« كسب سيئة » هو الكسب القاصد العامد المعاند ، دون الجاهل القاصر ، أو المضطر غير العامد ، ثم « وأحاطت به خطيئة » شرطٌ ثان يكمِّل أهلية الخلود في النار ، وإحاطة الخطيئة التي هي من خلفيات السيئَة التي استمرت ولم يتب عنها ـ حيث الخطيئَة هي الحالة الرديئة المخلَّفة عن السيئة البائتة ـ إنها تعم الخطايا العقائدية والعملية حيث يصبح المسيء خطيئَةً كله ، فلا منفذ ـ إذاً ـ إلى قلبه أو قالبه من نور ، بل أصبح كله ناراً ، والشيء لايحيط بالشيء من جميع جهاته إلّا بعد أن يكون سابغاً غير قالص ، وزائداً غير ناقص ! « فأولٓئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم يقابلهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولٓئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » فلا يرون ناراً ولا تمسهم النار .

ومن ثم بينهما عوان ، لا أنه أحاطت به خطيئَة ، ولا أحاطت به طاعته، فهم ـ إذاً ـ عوان بين الجنة والنار ، وحين يبقى لهم ـ عند موتهم ـ إيمان وعمل الإيمان ، فآخر مصيرهم الجنة .

أترى « سيئة » هنا تعني أية سيئة وإن كانت صغيرة ؟ والصغيرة تُكَفَّر بترك الكبيرة : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلاً

كريماً » (٤ : ٣١) ثم والكبيرة يعفى عنها بالتوبة ، أم وأخيراً بالشفاعة ، فاين ـ إذاً ـ أحاطت به خطيئته ، واين خلود النار ؟.

الشوط القريب في هذه السفرة النكدة يعني من السيئة أمثال الشرك بالله والتكذيب بآيات الله ، وتحريف كتاب الله (1) ، فمن ثمّ « أحاطت به خطيئته » التي هي من خلفيات تلك السيآت العظيمة !.

وقد يعبر عن هذه الحيطة الخلفية بـ « السيآت » : « والذين كسبوا السيآت جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (١٠ : ٢٧) خلوداً بخلود وعلى قدَرَه وأثره ، حيث أغشيت كل وجوههم الظاهرة والباطنة بظلمات السيآت : « فلا يُجزى الذين عملوا السيآت إلاّ ما كانوا يعملون » (٢٨ : ٨٤) .

ثم أشواطٌ أخرى في سيآت أخرى مهما كانت صغيرة ، حيث الإصرار فيها دون توبة يجر أصحابها إلى سيآت كبرى حتى ينتهي المسيءُ إلى تلكم السيآت الكبيرة التي تخلّف إحاطة الخطيئة ، سداً لمنافذ النور والتوبة.

فعلى أية حال ليست كل سيئة بالتي تخلّد في النار ، إنما هي التي تخلّف إحاطة الخطيئة ، فيموت صاحبها محاطاً بالخطيئة عقائدياً وعملياً ، فطبعاً « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم وفي « كسب سيئة » دون « عمل ـ أو ـ اقترف » أمّا شابه ، تلميحة إلى حالة إقترافها ، أنها إجتراح لها بالتذاذ وإستساغة كأنها من مكاسب الحياة ، فلو كانت كريهة في قياسه لما اجترحها متحمساً حريصاً ، ثم وما تركها تحيط به

---

(1) نور الثقلين ١ : ٩٣ في التوحيد بسند متصل عن ابن ابي عمير قال سمعت موسى بن جعفر (عليهما السلام) يقول : لا يخلد الله في النار الا اهل الكفر والجحود واهل الضلال والشرك .

خطيئته ، فكان يأتيها كارهاً أو مكرهاً أم غافلاً ثم يتوب عنها ، ويلوذ إلى كنف غيرها ، فهو - إذاً - يتخلص عن تبعتها ، وهي إحاطة الخطيئة به ، حيث لم تُغلق عليه منافذ التوبة .

فذلك هو التعبير الصحيح الفصيح عن حالة المسيء في هذه السيئة ، كما « وأحاطت به خطيئته» تفسرها ، لمحتان اثنتان تخرجان سائر السيآت - صغيرة وكبيرة - عن هذه السيئة ، التي تخلف إحاطة الخطيئة « ولا ينبئك مثل خبير » !

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ
تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ
تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ

إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ
الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوُا۟ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا
مِن بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا
غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا اشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا
أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو
بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾
وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ
ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ
إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

هنا عرض لعشرة كاملة من المواثيق أمراً ونهياً ، التي نقضوها كلها وهم يعتبرونها من النواميس الأحكامية الأصيلة في الشرعة التوراتية ، ثم عرض آخر لإرسال الرسل اليهم تترى ، استكباراً أمام من لا تهواه أنفسهم تكذيباً لهم وقتلاً ، وتكذيباً ـ في النهاية ـ بالقرآن وهم عرفوه من قبل استفتاحاً ـ بمستقبل نزوله ـ على المشركين ، بحجة اختصاص إيمانهم بما نزل عليهم فقط وقد كفروا به وقتلوا أنبياءهم من قبل ، كما اتخذوا العجل أمام موسى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[٨٣] .

ميثاق في شرعة التوراة عليهم ، مذكور فيها بصيغة « الناموس » وتذكر هنا بنود الميثاق تقديماً للأهم فالأهم :

١ « لا تعبدون إلّا الله » أمرٌ بصيغة الإخبار ، تأكيداً أكيداً على تطبيقه وكأنه واقع قبله ، مما يوحي ألّا بديل عنه ولا عذر في تركه ، فكما الله واقع لا مرد له ، كذلك عبادة الله واقعة لا مرد لها ، مزوَّدة بحكم الفطرة والعقل وكلّ الأعراف المصدِّقة بوجود الله .

٢ « وبالوالدين إحساناً » دون « تحسنون بالوالدين » تنازلاً عن أكيد الأمر الى مرحلة ثانية ، كما والإحسان بالوالدين ليس فرضه إلّا بعد فرض عبادة الله ، وليس ـ فقط ـ أن تحرم الإساءة اليهما ، بل الفرض هنا واجب الإحسان بهما في كافة الإتصالات والإنفصالات الحيوية ، روحية ومادية .

٣ ـ ٥ « وذي القربى واليتامى والمساكين » مرحلة ثالثة من الفرض على اختلاف مراتب هذه الثلاث ، فالإحسان بهؤلاء يأتي في ظل الإحسان بالوالدين ، لتأخره عنه ، ودمجهم في « إحساناً » في الوالدين ، وكما الإحسان بالوالدين كان مُدمَجاً في ظل عبادة الله ، وكل هذه من فروع عبادة الله .

ثم و « ذي القربى » في نفسها درجات « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وكذلك اليتامى والمساكين ، الأيتم منهم والأسوء حالاً ومسكنة .

فالأقرب الأيتم الأسكن ، هو أوجب ممن سواه ، وعلى هذا القياس دونما فوضى جزاف .

٦ « وقولوا للناس حسناً » مرحلة سادسة من واجب الحسن والإحسان تجاه

الخالق والخلق ، فانه « يعني الناس كلهم »[١].

فـ « قـولوا » تفـرض حسن العشرة العملية بـالأولـويـة الـقـطعيـة ، وليس « قـولوا » هنـا إلّا بيانـاً لأقل الـواجب تجاه النـاس ، و« حُسنا » دون « حَسَنـا » تفرض خالص الإحسان وكأنه تجسُّدٌ للحُسن ، مبـالغة بليغـة في الحد المفـروض من حسن العشرة قـولية وعمليـة مع النـاس ، كضابـطة ضابـطة كلَّ التخلفـات الخُلقيـة في عشرة الناس كـل الناس « إلّا الـذين ظلموا منهم » فـ « جـزاء سيئـة سيئة مثلها » : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربـك هـو أعلم بمن ضـل عن سبيله وهـو أعلم بـالمهتـدين » ـ « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن إلّا الذين ظلموا منهم » .

فالضابطة السارية الجارية كأصـل أوّلي في عشرة الناس هي الحُسن ، بـل ومعاقبة الظالمين أيضاً حسن بالناس ، بل وحسن بالظالمين أيضاً لكي يرتدعـوا ، أم ينتهوا شاءوا أم أبوا ، ولكي يخفف عنهم يوم الحساب ! .

فـ « قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال فيكم »[٢] « ولا تقولوا إلّاخيراً حتى تـعـلمـوا مـا هـو »[٣] فـ « اتقـوا الله ولا تحـمـلوا الـنـاس عـلى أكتافكم . . »[٤] .

---

(١) الدر المنثور ١ : ٨٥ ـ اخرج البيهقي في شعب الايمان عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) في الآية : . . .

(٢) نور الثقلين ١ : ٩٤ في اصول الكافي باسناده الى جابر بن زيد عن ابي جعفر (عليهما السلام) في الآية . .

(٣) فيه باسناده الى معاوية بن عمار عن ابي عبدالله (عليه السلام) في الآية . .

(٤) في تفسير العياشي عن عبدالله بن سنان عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال سمعته يقول : . . ان الله يقول في كتابه : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ .

أجل « للناس كلهم مؤمنهم ومخالفهم ، أما المؤمنـون فيبسط لهم وجهه ، وأما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لإجتذابهم إلى الإيمان فان ييأس من ذلك يكف شرورهم عن نفسه وعن إخوانهم . . » [١] فـ « لا تـدع النصيحـة في كـل حال » [٢] .

فـالمؤمن حَسَن ومحسن أياً كـان وأيان ، يصلح ولا يفسـد في كل مجالات العشرة الحَيَوية ، فكـل قولـه « حُسن » وكل فعله « حُسن » وكـل نيته وعقيـدته حسنة ، فهو في نفسه جَنةٌ لا تبوء إلى نار حتى يلاقي ربه في دار القرار .

ثم حُسن القـول يعم الدعـوة الحسنى ، والأمر والنهي بـالحسنى ، وسـائـر العشرة القـولية بـالحسنى ، ولكي يخلق المؤمن حسن الحب بحسن القول للنـاس وحسن المعاملة والعشرة معهم .

٧ و ٨ « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكوٰة . . » هنا إقـام الصلاة عبـارة أخرى عن « لاتعبدون إلاّ الله » بأفضل مصاديقها وقد تعني إقامُ الصلاة فيـها عنت إقام الصلوٰة على محمد وآله ، وهي من إتمام الصلاة [٣] .

---

(١) تفسير البرهان ١ : ١٢٢ عن الامام العسكري (عليه السلام) قال قال الصادق (عليه السلام) وقولوا للناس حسناً ، قال : . . . ثم قال : ان مداراة اعداء الله من افضل صدقة المرء على نفسه واخوانه ، كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في منزله ، إذن استأذن عليه عبدالله بن ابي سلول فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : بئس أخو العشيرة ائذنـوا له ، فلما دخل أجلسه وبشر في وجهه فلما خرج قالت عائشة يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : قلت فيه ما قلت وفعلت فيه من البشر ما فعلت ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا عويش يا حميراء ان شر الناس عند الله يوم القيامة من يكرم اتقاء شره .

(٢) نور الثقلين عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) : . . قال الله : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ .

(٣) تفسير بيان السعادة ١ : ١١١ قد فسر في الخبر اقامة الصلاة باتمام ركوعها وسجودها وحفظ مواقيتها ـ

كما وإيتاء الزكوٰة عبارة أخرى عن كل مراحل الإحسان روحياً ومادياً ، حيث الزكوٰة تعم زكوٰة الأرواح الأحوال إلى زكوٰة الأبدان والأموال « وهي زكوٰة المال والجاه وقوة البدن »[(١)] .

﴿ ثم توليتم إلاّ قليلاً منكم وانتم معرضون ﴾٨٣ .

« توليتم » عن كل هذه الثمان أم بعضها « إلاّ قليلاً منكم » إذ أقبلوا إليها « وأنتم » المتولون « معرضون » .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾٨٤ .

٩ - ١٠ هنا تكملة للعشرة ناموساً أحكامياً للشريعة ، حرمة الدماء والأموال : « لا تسفكون دماءكم » لأن سفك دم أخيك هو سفك لدمك نفسك ، فإن نفسه نفسك ونفسك نفسه ، فكما يحرم عليك سفك دمك ،

ـ وأداء حقوقها التي اذا لم تؤدّ لم يتقبلها رب الخلائق ، وقال (عليه السلام) اتدرون ما تلك الحقوق ؟ هو اتباعها بالصلاة على محمد وعلي وآلهما صلوات الله عليهم منطوياً على الاعتقاد بانهم افضل خيرة الله والقوّام بحقوق الله والنُصّار لدين الله تعالى . قال (عليه السلام) : واقيموا الصلاة على محمد وآله عند احوال غضبكم ورضاكم وشدتكم ورخاكم وهمومكم المعلقة بقلوبكم .

(١) تفسير البرهان ١ : ١٢٢ عن تفسير الامام العسكري (عليه السلام) قال : وآتوا الزكاة من المال والجاه وقوة البدن ، فمن المال مواساات اخوانك المؤمنين ، ومن الجاه ايصالهم الى ما يتقاعسون عنه لضعفهم عن حوائجهم المترددة في صدورهم ، وبالقوة معونة اخ لك قد سقط حماره او حمله في صحراء او طريق وهو يستغيث ولا يُغاث من يعينه حتى يحمل عليه متاعه وتركبه وتنهضه حتى يلحق القافلة وانت في ذلك كله معتقد لموالات محمد وآله الطيبين وان الله يزكي اعمالك ويضاعفها بموالاتك لهم وبراءتك من اعدائهم .

كذلك نفس مُحرمة أخرى غير مهدورة الدم ، لا يحل سفكه ، وكـذلك إخـراج أنفسكم من دياركم بنفس النمط ، فان حرمة مال المسلم كحرمة دمه .

ثم في واجهة أخرى إن قتل نفس الغير وإخـراجها من ديـارها يخلف نفس القتـل والإخراج لأنفسكم قصـاصاً وجـزاءً ، فـ « لا تقتلون ولا تخـرجـون » لها أبعاد ثلاثة كلها منهية مهما اختلفت .

تلك عشرة كاملة تولوا عنها وهم معرضون :

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هـؤلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْـرِجُـونَ فَـرِيقـاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَـارِهِمْ تَـظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِـالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَـأْتُوكُمْ أُسَـارَىٰ تُفَـادُوهُمْ وَهُـوَ مُحَـرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَـامَةِ يُـرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَـذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٨٥ .

« أنتم » لحاضر الخطاب و « هؤلاء » لغائبه ، فكيف يجتمعان والحضور في الخطاب هنا هم الغُيَّب ؟ .

قـد يعني « أنتم » شعب إسرائيـل المتمثـل في الحـاضرين زمن الخـطاب ، وهؤلاء هم السـابقون منهم القـاتلون أنفسهم والمخـرجـون ، دمجاً للحضـور في الغيَّب لأنهم نفس النمط ، ولهم نفس الخُلُق مـأخـوذين بنفس المـأخـذ ، لأنهم سلسلة مـوصولـة فيا كـانوا يفتعلون ، ولا أقل أنهم كانـوا بما فعلوا راضين، والراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم .

أم إن « هؤلاء » هنا كمنادى تكرار منبِّهاً لهؤلاء الحمقاى أم كإشارة إليهم تأكيداً لصدور الجريمة منهم .

والآيـة تتحدث عن واقـع قريب العهـد ، قبيل غلبـة الإسلام عـلى قبيـلي

الأوس والخزرج ، فقد كانوا كلهم مشركين ، ويهود المدينة هم ـ وقتئذٍ ـ أحياء ثلاثة ، مرتبطة بعهود ، كلٌ مع كلٍ من حيي الشرك ، فبنواقينقاع وبنو النضير هما حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة هم حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كلُ فريق من اليهود مع حلفاءه المشركين ضد آخرين ومعهم يهود آخرون ، فيقتل اليهودي مثله كما يقتل المشرك دونما تمييز تمسكاً بالأحلاف ، وتناسياً لحلف الله وميثاقه الذي واثقهم به .

كما وكانوا يخرجون فريقاً منهم من ديارهم إذا غلب فريقهم ، نهباً لأموالهم وسبياً لفريق منهم حلفاءَ مع عدوهم « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » كما تتظاهرون على خلطاءهم المشركين ، وهذا خلاف نص الميثاق في ناموس التوراة .

ومن ثم « وإن يأتوكم أسارى تفادوهم » دافعين الفدية عنهم حتى تستلموهم وتحرروهم ، وفقاً لنص آخر من التوراة « وهو محرم عليكم إخراجهم » فكيف الجمع بين قتالهم وقتلهم وإخراجهم وأسرهم ، وبين مفاداتهم « أفتؤمنون ببعض الكتاب » فتفادونهم « وتكفرون ببعض » فتقاتلونهم وتخرجونهم من ديارهم وتأسرونهم ؟ .

و« هو » هنا إمَّا ضمير شأن ، أو مبتدءٌ مبهم مفسَّر بـ « محرمٌ » والجملة الخبرية خبرها .

« فما جزاء من يفعل ذلك » النقض لشرعة الميثاق التوراتي « منكم إلاّ خزيٌ في الحياة الدنيا » أن تقاتلوهم إخوانكم لصالح أعداءكم المشركين « ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » لأنَ ذلك من أشد العصيان لشرعة الله « وما الله بغافل عما تعملون » خلاف ما أنتم تزعمون .

ولكي يُلفت أنظار المسلمين إلى أهمية ذلك المحظور ، دون إختصاص باليهود، يخاطبهم :

﴿ أولَئكَ الَّذِينَ إشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[٨٦] .

إعلان صارخ في هذه الإذاعة القرآنية يحذر المسلمين عن مثل ما افتعله اليهود ، كيلا يحارب بعضهم بعضاً لصالح الكافرين .

خُطة تقليدية لعينة إسرائيلية في إمساك عصيِّهم من أوساطها ، إنضماماً إلى المعسكرات المتطاحنة كلها حيطةً على مصالحهم المادية ومغانمهم على أية حال ، نقضاً لميثاق الله الذي واثقهم به ، وتحكيماً لميثاقهم مع أعداء الله ، مصلحة وقائية وقتية ، تجعل شرعتهم على هامشها ، أم رفضاً لها عُجالة حتى يربحوا المسرح ، إشتراءً للحياة الدنيا بالآخرة !.

وترى الأخرة كانت مملوكة لهم حتى يشتروا بها الدنيا فهم مالكوها ؟ وذلك بيع ما لا يُملك !.

لكلٍّ من المكلفين نصيب مقدَّر من نعيم الأخرة إن عمل لها ، فالذي لا يعمل لها كأنه باعها حيث بطَّل على نفسه إستبدالاً بها نعيم الدنيا ، و « الذين إشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » .

« فلا يخفف عنهم العذاب » في تجارتهم الخاسرة من خسارهم « ولا هم ينصرون » إذ لا ناصر يومئذ إلّا الله وليس بمخفف العذاب .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾[٨٧] .

آية التقفية هذه نراها يُستدل بها عند المبشرين المسيحين على أن المسيح خاتم النبيين ، يقول قائل منهم : « في القرآن كله ، في النصوص كلها التي يرد فيها ذكر المسيح ، ظاهرتان : الأولى : يقفِّي القرآن على كل الرسل بالمسيح ، ولا يقفي على المسيح بأحدٍ (٢ : ٨٧) يعني هذه ، و (٥ : ٤٦) (٥٧ : ٢٧) .

الثانية : المسيح نفسه في ما ذكر القرآن عنه لا يبشر بأحد من بعده على الإطلاق إلاّ في بعض تلك الآية اليتيمة : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد » وهذا يجعل تعارضاً ما بين الموقف المتواتر والموقف الشاذ اليتيم فيه ، والعقيدة في كتاب منزل تُؤخذ من المحكم فيه لا من المتشابه »[١] .

يستدل بآيات التقفية ـ الثلاث ـ على أن المسيح هو خاتم النبيين ، فالثانية « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظة للمتقين » (٤٦) .

والثالثة : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل . . »[٢٧] .

ولكن آية البقرة تؤتي موسى الكتاب ثم تقفِّي من بعده بالرسل ، فلو كان المعني منهم كل الرسل لخرج المسيح (ع)ايضاً عن جماعة الرسل ، فهم ـ إذاً ـ معظم الرسل الإسرائيليين ، وقد قفى من بعدهم بالمسيح وهو خاتم الرسل الإسرائيليين ، وليست هذه التقفية الإسرائيلية إلاّ توطئة لبيان إنتقال الرسالة إلى رسول غير إسرائيلي « . . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدِّق لما معهم وكانوا

(١) ذكره الحداد البيروتي في كتابه مدخل الى الحوار الاسلامي المسيحي ص ٣٦٤ . . .

من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٩٠) ! فقد تلعن - بين الملعونين - القائلين أن المسيح هو خاتم المرسلين على الاطلاق ، ناكرين رسالة القرآن العظيم ! .

كما وأن آية المائدة أيضاً لا تقفّي بالمسيح إلاّ على الرسل الإسرائيليين : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا .. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم .. » مما يبرهن ان المسيح (ع) هو آخر الرسل الإسرائيليين التابعين لشرعة التوراة ، ثم « ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه .. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٤٨) !

وكذلك آية الحديد ، فإنها لا تقفي بالمسيح إلاّ الرسل الذين ذكروا قبله ، لا كل الرسل ، « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب .. ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم ... » ثم يقفي بهذا الرسول خاتماً لكل الرسالات : « يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وآمنوا برسوله .. »[1] .

فتراهم - هؤلاء البعيدين عن علم الكتاب - كيف يستندون بآيات الرسالة الختمية المحمدية على نكران رسالته عن بكرتها ، ولا يفضحون إلاّ أنفسهم لو كانوا يشعرون ! (٣٨) .

ثم التقفية بالرسل أم برسول تعني تأييد كل لاحق من الرسل سابقه ،

---

(١) راجع رسول الاسلام في الكتب السماوية ١٦٢ - ١٧٧ .

وبيان ما حرِّف بأيدي الدس والتحريف ، فليست لتعني الختم في الرسالة على أية حال ، فالرسالات الإلّهية هي سلسلة موصولة طول التاريخ الرسالي ، فـ « لا نفرق بين أحد من رسله » !

لقد أتاهم رسلهم تترى تلوَ بعضٍ ولصقَ بعضٍ ، كلُّهم رسل التوراة ، داعين إليه،وآخرهم عيسى بن مريم المزوَّد بالبينات ، المؤيد بروح القدس ، ولكنهم كفروا وكذبوا : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم » على هؤلاء الرسل « ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » .

هذه صنيعتهم برسلهم في ماضيهم النَّجس النَّجِس ، فماذا يرجى من حاضر هم أمام نبيٍّ إسماعيلي ؟ ! .

وإذا كانت رسالات إسرائيلية لا تمشي على أهواءهم فهم بها يكفرون رغم توافق العنصرية ، فماذا يرجى منهم أمام رسالة غير إسرائيلية لا توافق هذه العنصرية .

« وأيدناه بروح القدس » علّه روح القدس الرسالي ككل وهو مثلث الوحي والعصمة الرسالية وملك الوحي ، وهذه الثلاث لا يصيبها ما يصيب سائر الأرواح الإنسانية [1] .

---

(٢٩) نور الثقلين ١ : ٩٨ في أصول الكافي باسناده الى المنخل عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام قال : سألته عن علم العالم ؟ فقال لي : يا جابر إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح : روح القدس وروح الايمان وروح الحياة وروح القوة وروح الشهوة ، فبروح القدس يا جابر عرفوا ، تحت العرش الى ما تحت الثرى ، ثم قال يا جابر ! إن هذه الأربعة الأرواح يصيبها الحدثان الا روح القدس فإنها لا تلهو ولا تلعب .

وبإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل بن عمر عن أبي عبدالله (ع) قال : سألته عن عم الامام بما في أقطار الأرض ، وهو في بيته مرخى عليه ستره ؟ فقال : يا مفضل إن الله تبارك وتعالى جعل في =

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾٨٨ .

« غُلف » هي جميع أغلف أو غلاف،وهو الذي في غلاف مبالغة،أو كالمتعود من غلاف السيف ، فهل يعنون بغلف قلوبهم أنها « في أكِنّة مما يدعونهم إليه » لا تنفذ إليها دعوة جديدة غير إسرائيلية : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر وبيننا وبينك حجاب » (٤١ : ٥) .

فهي ـ إذاً ـ غلفٌ بطبيعة الحال عما تدعونا إليه ، فما هو ذنبنا وقد خُلقنا غُلفَ القلوب ، والجواب كلمة واحدة : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون » ـ « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » ـ « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » (٦ : ٢٥) .

فليست هي غلفاً بما خلق الله ، بل « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية » (٥ : ١٣) .

أم يعنون أنها غنية عن أية شرعة غير إسرائيلية ، فهي مغلفة عن غيرها ، غنية بها ، مليئة منها ، ومن ثم « أنها أوعية للخير والعلوم قد أحاطت بها واشتملت عليها ، ثم هي معذلك لا تعرف لك يا محمد فضلاً مذكوراً في شيء من كتب الله ولا على لسان أحد من أنبياء الله »(١) .

قد يعنون ذلك الثالوث من غُلف القلوب ، ورداً عليهم فيها كلمة

ـ النبي خمسة أرواح روح الحيوة فبه رب ودرج ، وروح القوة في نهض وجاهد ، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال ، وروح الايمان فبه آمن وعدل ، وروح القدس فبه حمل النبوة ، فإذا قبض النبي انتقل روح القدس فصار إلى الامام ، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو ولا يلعب ، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتلهو وتزهو ورح القدس كان يرى به .

(١) تفسير الامام الحسن العسكري قال (عليه السلام) في تفسير الآية .. ومثله في الدر المنثور عن ابن عباس .

واحـدة : « بل لعنهم الله بكفـرهم » قلوب لعينـة مقلوبـة عن الخـير بكفـرهم ، إمتناعاً لقبول الحق بالإختيار !.

و لأن الله لعنهم بكفـرهم « فقليلاً مـا يؤمنـون » قليـلاً منهم ، وقليـلاً من الإيمـان ، والقلتان معنيتـان ، فإنها من خلفيـات لعنهم بكفرهم ، فقليـلاً منهم يتخلصون عن كفرهم ، وقليلاً يؤمنون حين يتخلصون .

ويـروى عن النبي (ص) « القلوب أربعـة قلب أجـرد فيـه مثـل السراج يـزهر ، وقلب أغلف مـربوط عـلى غلافـه،وقلب منكوس،وقلب مفصـح ، فأمـا القلب الأجـرد فقلب المؤمن سراجه فيـه وأما القلب الأغلف فقلب الكـافر وأمـا القلب المنكـوس فقلب المنافق عـرف ثم أنكر ، وأمـا القلب المفصـح فقلب فيـه ايمان ونفاق ، ومَثَل الايمان فيه كَمَثَل البقلة يمدّها المـاءُ الطيب ومثـل النفاق فيـه كمثـل القرحـة يمـدهـا القيـح والـدم فـاي المـدتـين غلبت عـلى الأخـرى غلبت عليه [1] .

لقد قالوا قولتهم المـارقة الخـارقة هـذه تنيساً لمحمـد (ص) وتعليلاً لعـدم إجابتهم له :

﴿ وَلَمَّا جـاءَهُمْ كِتَـابٌ مِنْ عِنْـدِ اللهِ مُصَـدِّقٌ لِمـا مَعَهُمْ وَ كـانُـوا مِنْ قَبْـلُ

(١) الدر المنثور ١ : ٨٧ ـ اخرج احمد بسند جيد عن ابي سعيد قال قال رسول الله (صـلى الله عليه وآله وسلم) : . . وفيه ـ اخرج ابن ابي شيبة في كتاب الايمان والبيهقي في شعب الايمان عن علي رضي الله عنه قال : ان الايمان يبدو لمظة بيضاء في القلب فكلما ازداد الايمـان عظماً ازداد ذلـك البياض فإذا استكمل الايمان ابيض القلب كله ، وان النفـاق لمظة سـوداء في القلب فكلما ازداد النفاق عظماً ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله وايم الله لو شققتم على قلب مؤمن لوجدتموه ابيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه اسود » .

اقول : يعني منه قلب الروح و « لو » المحيلة لذلك الشق يؤيده ولا استحالة في شق قلب الجسم .

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ ﴾٨٩ .

هنا « مصدق لما معهم » لا تصدق كلَّ ما معهم ، فإنه دخيل من كل تحريف وتجديف ، إذاً فهو الذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا من بشارات هذه الرسالة السامية القرآنية(١) .

ثم وفي وجه آخر لما معهم ، هو وحي التوراة خالصاً عما يشوبه ، حيث القرآن يصدق كل كتابات الوحي ، ويزيف كل دخيل فيها لانه مهيمن عليها : « وليحكم أهل الأنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .. » (٥ : ٤٨) .

والإستفتاح هنا هو طلب الفتح على المشركين ، كقولهم فيما يروى « اللّهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم»(٢) أو وطلب الفتح منهم أن

(١) تفسير البرهان ١ : ١٢٦ قال الامام العسكري (عليه السلام) ذم الله اليهود فقال : « ولما جائهم » يعني هؤلاء اليهود الذين تقدم ذكرهم واخوانهم من اليهود جائهم « كتاب من عند الله » القرآن « مصدق » ذلك الكتاب « لما معهم » من التوراة التي يبين فيها ان محمداً الامي من ولد اسماعيل . . .

(٢) الدر المنثور ١ : ٨٨ ـ اخرج ابو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل ان يبعث محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا ويقولون : اللهم . . . فلما جاءهم ما عرفوا ـ يريد محمداً ولم يشكوا فيه ـ كفروا به . ومن طريق اصحابنا في نور الثقلين اخرجه باسانيد واخصرها متناً ما رواه القمي عن اسحاق بن عمار قال سألت ابا عبدالله (عليه السلام) في الآية قال : كان قوم فيما بين محمد وعيسى صلوات الله عليهما ، وكانوا يتوعدون اهل الاصنام بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقولون ليخرجن نبي فليكسرنّ اصنامكم وليفعلن بكم وليفعلن ، فلما خرج رسول الله (صلى الله =

يخبروهم هل ولد مَن وصفته التوراة ؟ ولكنه لا يصلح إلاّ ضمن المعني من الإستفتاح عليهم لأنه طلب الفتح منهم لا عليهم ! .

لقد كانوا يستفتحون ببشارة القرآن في توراتهم ، على المشركين ، كمصلحة وقتية « فلما جاءهم ما عرفوا » من ذلك الفتح الرسالي « كفروا به » مصلحيَة الحفاظ على الشرعة العنصرية « فلعنة الله على الكافرين » .

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[٩٠] .

فالإنسان ـ أيا كان ـ يعادل نفسه بثمنٍ مّا قليلاً أو كثيراً ، وأما أن يعادلها بالكفر بآيات الله ، فتلك هي أبخس الصفقات وأنحسها ، وذلك واقع اسرائيلي أن اشتروا أنفسهم بالكفر ، بغياً وحسداً من عند أنفسهم أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، كفراً بما عرفوه في استفتاحهم ، وبما حسدوا صاحب هذه الرسالة الأخيرة « فباءوا » رجوعاً عن ذلك المتجر الخاسر الحاسر « بغضب على غضب » لبعدي الكفر بالتوراة وبالقرآن « وللكافرين » المغضوب عليهم « عذاب مهين » كما أهانوا رسالة الله .

= عليه واله وسلم) كفروا به . وفيه عن روضة الكافي عنه (عليه السلام) يقول فيه بعد تفصيل للقصة « وكانت اليهود تقول لهم ـ المشركين القاطنين بالمدينة ـ اما لو قد بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا واموالنا ، فلما بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) آمنت به الانصار ـ وهم وقتئذٍ من المشركين ـ وكفرت به اليهود وهو قول الله عز وجل ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . . . ﴾ وفي تفسير الامام العسكري (عليه السلام) . . . وكان الله عز وجل امر اليهود في ايام موسى وبعده اذا دهمهم أمر اودهتهم داهية ان يدعو الله عز وجل بمحمد وآله الطيبين وان يستنصروا بهم وكانوا يفعلون ذلك ، حتى كانت اليهود من اهل المدينة قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بسنين كثيرة يفعلون ذلك فيكفون البلاء والدهماء والداهية . . .

واليكم إشارات من بشارات الفتح التي كانوا بها يستفتحـون ، ففي كتاب حبقوق النبي (٣ : ٣ ـ ٦) في الاصل العبراني :

« إلوهَ مِتيماه يا بُوءْ وقادُوشْ مِهَرْپارانْ سِلَاهْ كِيئَّاه شَامَيِم هـودُو ويتهِلاتُـو ماليِّاه هاآرِصْ ٣ وِنُغَهْ كاأور تِهِيهْ قَرْنَيِمْ مِيَّادُو لُوشامْ حِبْيُونْ عُوزُهْ ٤ لِفانايْ يِلِخْ دابِرْ وَيِسِيءْ رِشِفْ لِرَجْلايو ٥ عامِدْ وِيمُـودِدْ أرِصْ رآهْ وَيِتِّرْ غُـويِمْ وَيِتْ تِصِصُو هَرْ رِي عَدْ شَحُو جِبعُوتْ عُولامْ هَلِيخوتْ عولامْ لُو ٦ » .

« الله من تيهان يأتي والقدوس من جبل پاران :حرى ـ فاران « (يأتي) مع الأبد. غطّى جلاله السماوات وامتلأت الأرض من تسبيحه ٣ شعاعه كالشمس وشعٌ من يمينه النور وهناك استتار قوته ٤ قدّام وجهه يسير الوباء ، وأمام قدميه تبرز حمّى مُلهبة ٥ وقف ومسح الأرض ، نظر وأذاب الامم ، وتبددت الجبال القديمة وخسفت وانحنت إكام وأتلال القدم ، مسالك الأزل له ٦ » .

وفي الاصل العبراني (تث ٣٣ : ١ ـ ٢) من التوراة :

« وِزُئْت هَبْراخاهْ أشِرْ بِرَخْ مُوشِـهْ إيش ها إلُـوهِيمْ اِتْ بِني يِسرائيل لِفِنِي مُوتوا ١ وِيُومِرْ يِهواهْ مِسِّيني بَاو زارَخْ مِسِّعِيرْ لامُو هُـو فِيعَ مِهَـرْ فاران وِآتَـاه مِرْ بِبُتْ قُدِشْ مِي مِينُو اِشْ داتْ لامو ٢ » .

« وهـذه بركـة باركهـا موسى رجـل الله بني اسرائيل عنـد موتـه ١ وقال : الله من سينـاء جـاء ، تجـلّى من سـاعـير ، تلعلع من فـاران ، وورد مـع آلاف المقدسين ، من يمينه ظهرت الشريعة النارية٢ » .

هنـا يبشر الله بلسان مـوسى (ع) بتجليات ربـانيـة ثـلاث، فمـوسى «من سيناء » والمسيح « من ساعير » ومحمد(ص)« من فاران » تعبيراً عن الكل بالماضي تثبيتاً لتحقق وقوعها ، تزويداً لمحمد المتجلي من فاران أنه ورد مـع الآف المقدسـين ،

من يمينه ظهرت الشريعة النار وهي شريعة الجهاد .

وفي سالفة لها تختصر البشارة بآيتين « من تيهان » وهو مبعث المسيح فانه ساعير جنوبي القدس ، ومن فاران وهو مبعث محمد (ص) ثم تصفه بشرعته ما تصف ، بهيمنة وشوكة وأبدية . . . [١] .

هكذا كانوا يستفتحون به على الذين كفروا وهم يعرفونه « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءُو بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » .

﴿ وإذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ الله قالُوا نُؤمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا ويَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ الله مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ ﴾٩١ .

« نؤمن بما أنزل علينا » جواباً عن « آمنوا بما أنزل الله » قسمة ضيزى في الإيمان بماأنزل الله ، قضيةَ العنصرية الحمقاء فيهم ، فـ « يكفرون بما وراءه » أياً كان النازل وعلى أيٍّ كان ، ما لم يكن نازلاً على إسرائيل ! « وهو » « ما أنزل الله » الخالص الناصع دون خليط ولا تبدُّل حتى آخر زمن التكليف ، فمهما كان النازل عليهم حقاً في أصله فهو حقٌ وليس « هو الحق » كلّه ، وهذا « هو الحق » كلّه هنا لكونه « مصدقاً لما معهم » فيما كانوا به يستفتحون .

وحتى لو أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » وهم منكم « ان كنتم مؤمنين » بخصوص الوحي النازل على الرسل الإسرائيليين ؟ !

---

(١) راجع رسول الاسلام في الكتب السماوية ٤٤ ـ ٥٣ .

وهنا « لم تقتلون » خطاب الحال للحضور في تلك الحال بصيغة الحال والإستقبال ، مما يحمل عليهم قتل الأنبياء حالاً واستقبالاً ، و « من قبل » توجهاً الى الماضي ، هما مما يؤكدان طبيعة القتل فيهم حاضرهم وغابرهم ، سلسلة موصولة طول التاريخ الإسرائيلي ، فلو كان زمن خطابهم نبيٌّ أو أنبياء لقتلوهم ، كما قُتِل أسلافُهم ، ولقد قتلوا ـ في حسبانهم ـ الرسالة المحمدية بنكران بشاراته وتكذيبه ! .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾٩٢ .

وهل إن اتخاذكم العجل من بعده : بعد أن جاءكم بالبينات ، وبعد ما غاب عنكم فترة قصيرة إلى الطور[1] ، هل إن ذلك ايضاً مما أنزل إليكم فهو من وحي الايمان والايمان بالوحي ! .

لقد كفرتم بما أنزل إليكم في وحي التوراة ، ثم ما أنزل في وحي الإنجيل وهما الركنان الركينان من الوحي الإسرائيلي ، ثم أنتم تكفرون بوحي القرآن وقد كنتم تستفتحون به على المشركين ، فما دائُكم وما دوائُكم ! « وأنتم ظالمون » موسى وشرعَته ، فظالمون الحقَّ النازل من عند الله ، وظالمون أنفسكم ! .

ذلك وإلى مرات ومرات من التمردات والتنمردات عن شرعة الحق النازلة عليكم :

---

(١) تفسير البرهان ١ : ١٣٠ قال الامام العسكري (عليه السلام) قال الله عز وجل لليهود الذين تقدم ذكرهم ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ الدالات على نبوته وعلى ما وصف من فضل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وشرفه على الخلائق .. ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ إلهاً ﴿ من بعده ﴾ بعد انطلاقه الى الجبل وخالفتم خليفته الذي نص عليه وتركه عليكم وهو هارون ﴿ وانتم ظالمون ﴾ كافرون بما فعلتم من ذلك .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾٩٣ .

« . . . بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٦٣) ثم توليتم من بعد ذلك . . (٦٤) « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم إدخلوا الباب سجداً . . » (٤ : ١٥٤) .

قصة واحدة تأتي في مجالات عدة بمختلف الألفاظ الجانبية والأصل واحد ، وهنا الجواب الفصل عن « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ـ واسمعوا : « قالوا سمعنا وعصينا » والعصيان بعد حجة السمع هو أجرءُ عصيان .

ثم « وأشربوا في قلوبهم العجل » وكيف يُشرب العجل في القلوب ؟ ولا يشرب العجل بل يُوكل ! وليس الشارب هو القلوب !.

إنها مبالغة بليغة في حب العجل ، فكأنها تشربت حُبَّه فمازجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشيءِ الملذوذ ، ولأن القلوب هي أعماق الكيان الإنساني ، فإشرابهم حب العجل في قلوبهم كناية عن أن حبه تعرق وتعمق في كل كيانهم .

وما ألطفها رواية ـ إن صحت ـ أنْ « عمد موسى فَبَرَدَ العجل ـ قطعاً بالمبرد ـ من أنفه إلى طرف ذنبه ثم أحرقه بالنار فزرَّه في اليمِّ ، وكان أحدهم يقع في الماء وما به إليه من حاجة ، فيتعرض لذلك الرماد فيشربه . . »(١) .

(١) نور الثقلين ١ : ١٠٢ عن تفسير العياشي عن ابي بصير عن ابي جعفر (عليهما السلام) في الآية : . . . وهو قول الله : ﴿ واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ .

فقد أشربوا العجل في قلوب ارواحهم وقلوب اجسادهم لكثرة حبهم له ، فكما أن شرب الماء كسب لاستمرارية الحياة ، كذلك هؤلاء الأباقرة ركزوا حياتهم على حب المادة وعبادتها ، المتمثلة في حب العجل وعبادته ، وما أمْرُهم أن يذبحوا بقرة - ولا سيما تلك الثمينة الغالية - إلّا أمراً بذبح ما كانوا يحبون ويعبدون ، وكما أمروا بقتل أنفسهم بعد هذه العبادة القاحلة .

وتراهم من أشربهم في قلوبهم العجل ؟ إنه طبيعتهم المنجذبة الى المحسوسات ، ثم هو السامري الذي استغل فيهم هذه الجاذبية ، ثم الله لم يردعهم تكويناً وتسييراً حيث الدار دار الإختيار .

وقد يعني « وأشربوا . . » فيما تعني - أنهم أمروا أن يشربوا من ماءه ليتبين العابد له عن سواه[1] ولكنه لا يصلح إلّا ضمن المعني مما تعني ، وقد تعني ثالوث الشرب ، في قلوب أرواحهم ، ثم الأجساد ، من عند انفسهم أم بما أمروا ، والنص يصلح لها كلها بكفرهم .

« قل بئسما يأمركم به إيمانكم » أن تكفروا بما أنزل الله ، وبهذه الرسالة الاخيرة « إن كنتم مؤمنين » فهو ايمان بئيس نحيس وليس ايماناً بالله ! وترى الايمان يأمر أو ينهى حتى يصح هنا « بئسما » ؟ الأمر هو الدافع كما النهي هو

---

(١) تفسير البرهان ١ : ١٣٠ قال الامام العسكري (عليه السلام) . . . . في الآية : عرضوا بشرب العجل الذي عبدوه حتى وصل ، ما شربوه ذلك الى قلوبهم ، وقال : ان بني اسرائيل لما رجع اليهم موسى وقد عبدوا العجل تلقوه بالرجوع عن ذلك فقال لهم موسى من الذي عبده منكم حتى انفذ فيه حكم الله خافوا من حكم الله الذي ينفذه فيهم فجحدوا ان يكونوا عبدوه وجعل كل واحد منهم يقول : انا لم اعبده وانما عبده غيري ووشى بعضهم ببعض فذلك ما حكى الله عن موسى من قوله للسامري ﴿ وانظر الى إلٰهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقن ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ فامره الله فبرده بالمبارد واخذ سجالته فذرها في البحر العذب ثم قال لهم : « اشربوا منه فشربوا فكل من كان عبده اسود شفتاه وانفه فمن كان لم يعبده أبيض شفتاه وانفه فعند ذلك انفذ فيه حكم الله » .

المانع ، وهما أصل الأمر والنهي قولياً أم واقعياً ، فلا امرَ ولا نهي تكوينياً او تشريعياً إلّا بدافع أو مانع ، أم هما بدافع كتعبير أصح وأعمق .

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ
الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ
عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ
سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ
عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ
وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا
إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا
الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ
الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى
الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ
حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا
مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ
مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ
وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ
مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا
وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿ قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ الله خالِصَةً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾٩٤ .

فلأن اليهود زعموا أنفسهم شعب الله المختار وابناءه: «وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى» (٢ : ١١١) دعوى خاوية خالية عن أي برهان، لذلك يختصون بأنفسهم الدار الآخرة، ولكن البراهين تترى على بطلانها ومنها «فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» في دعواكم، نقلة من هذه الحياة الظالمة المظلمة، الضيقة الكدرة، إلى دار لقاء الله: «قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» (٦٢ : ٦).

أترى أن تمني الموت هو من قضايا الايمان الخالص والدار الخالصة للموت من عند الله؟ والحياة الدنيا هي حياة الإستعداد للأخرى، وهي مزرعة الآخرة! والتعرض للموت محرّم في شرعة الله! والفرار من بواعث الموت واجب في شرعة الله، فكيف يصبح ـ إذاً ـ تمني الموت من قضايا صدق القول إن لنا الدار الآخرة خالصة عند الله.

تمني الموت ليس هو ولا منه التعرض للموت، فلا يُتمنى ما بالإمكان تحصيله او التعرض له، وإنما هو الترجي الصالح لأصلح الصالحين الذين هم من خلصاء الله والسابقين الى رضوانه، وكما يروى عن علي (ع) «والله لابن ابي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي امه» وعن الصديقة الطاهرة عليها السلام: «اللّهم عجل وفاتي سريعاً»[1] ولأنهم موقنون بالسعادة الآتية، راغبون في لقاء الله!.

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٠٢ في الخصال عن ابي عبدالله (عليه السلام) سمعت ابي يحدث عن ابيه (عليهما السلام) ان رجلاً قام الى امير المؤمنين (عليه السلام) فقال يا امير المؤمنين بما عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ـ الى ان قال ـ: فبماذا أحببت لقاءه؟ قال: لما رأيته قد اختار لي دين ملائكته ورسله وانبيائه علمت بان الذي اكرمني بهذا ليس ينساني فاحببت لقاءه.

ام وللذين يوقنون بتلك السعادة العظمى أطاعوا الله ام عصوْا ، فماذا تفيدهم ـ إذاً ـ بقية الحياة الدنيا إلّا بعداً عنها وعن لقاء الله « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » !

ثم مَن سواهم لا يجوز لهم تمني الموت كما لا يجوز لهم التعرض للموت ، فان الموت لهم انقطاع عن حياة التحصيل ورجاء التلافي لِما قصّروا ، او المزيد فيما قصروا عنه « ولأنا لا نأمن من وقوع التقصير فيما أُمرنا به ونرجو في البقاء التلافي »[1] .

وقد يجوز تمني الموت لمن لا يرجو في البقاء التلافي ، بل ومزيد العصيان ، أم هو موقن بذلك ، واليهود ـ فيما يدعون ـ هم القسم الثاني من الأربعة فليتمنوا الموت إن كانوا صادقين ، فإن النقلة من ضيق الحياة وضنك المعيشة الى سعتها الخاصة الخالصة دون اي شرط إلّا أنك اسرائيلي ، إن تمني تلك النقلة هي طبيعة الحال لأصحابها ، بل وذلك أدناها ، حيث الطمأنة المطلقة تقتضي التعرض للموت ، بل والإنتحار .

إنهم يعبرون عن انفسهم بما عبروا ، وعن المؤمنين بالناس ، تعبيراً ساقطاً

= وفيه عن جعفر بن محمد عن ابيه (عليهما السلام) قال اتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجل فقال له : ما لي لا احب الموت ؟ فقال له : الك مال ؟ قال : نعم ، قال : فقدمته ؟ قال : لا ، قال : فمن ثم لا تحب الموت .

(١) في مجمع البيان قال امير المؤمنين (عليه السلام) ـ وهو يطوف بين الصَفَّين بصفّين في غلالة ـ شعار يلبس تحت الثوب الدرع ـ لما قال له الحسن ابنه (عليه السلام) ما هذا زيُّ الحرب ؟ فقال : يا بني إن أباك لا يبالي وقعَ على الموت ام وقع الموت عليه ، واما ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : لا يتمنين احدكم الموت لضر نزل به ، ولكن ليقل : اللهم احيني ما دامت الحياة خيراً لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي ، فانما نهي تمني الموت لانه يدل على الجزع ، والمأمور به الصبر وتفويض الأمور اليه ، ولان لا نأمن . . .

مسقطاً لهم عن أية رحمة ربانية تشملهم ، والدار الآخرة خالصة لهم أنفسهم لا يشاركهم فيها هؤلاء الناس !.

فهنالك دُعوا إلى تلك المباهلة ، كبرهان واقع على كذبهم بعد كل البراهين التي رفضوها :

ولقد أمر الرسول أن يقولها لهم فقال « إن كنتم في مقالتكم صادقين قولوا : اللهم أمِتنا ، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلاّ غص بريقه فمات مكانه فأبوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم فنزل [1] :

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾٩٥ .

وكيف يتمنونه وهم يخشون أن يستجيب الله لهم فيأخذهم من فورهم ، فهم قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه انقطاعاً عن شهواتهم ، وخسروا الآخرة بالعمل السيء الذي قدموه !.

قد يتمنى المشرك او الملحد الموتَ لأسباب طارئة ، ولأنه لا يخاف بعد الموت ، ولكنهم « لن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » لأنه نهاية شهواتهم وبداية بلياتهم بما قدموا « والله عليم بالظالمين » أنهم لن يتمنوه ، بل هم أحرص الناس على حياة :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾٩٦ .

---

(١) الدر المنثور ١ : ٨٩ ـ اخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في هذه الآية : ﴿ قل لهم يا محمد ان كانت لكم الدار الآخرة ﴾ يعني الجنة كما زعمتم ﴿ خالصة من دون الناس ﴾ يعني المؤمنين ﴿ فتمنوا الموت ان كنتم صادقين انها لكم خالصة من دون المؤمنين ﴾ فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

هنا « حياةٍ » منكَّرة دون «الحياة» المعرَّفة، لمحةٌ إلى أن حرصهم لا يخص الحياة الراقية المريحة المربحة ، بل هي مطلق الحياة ، ما تتسمى حياةً،مهما كانت أرذلها ، لأنها على أية حال أفضل من الحياة الأخرى بما قدمت لهم أنفسهم .

فـ « الناس » في « أحرص النـاس » هم كل النـاس دونما استثنـاء ، وحتى الـذين أشركوا ، وكما يبيِّنه : « ومن الـذين أشركوا » أي : وأحـرص من الذين اشركوا ، لأنهم يخافون عما بعد الموت ما لا يخافه المشركون .

إجل إنها « حياة » أيَّة حياة ، ملمِّحاً لها بذلك التنكير النكير الحقير ، حياة ديدان او حشرات ، وإنما « حياة » ثم لا شيء آخر ، الحياة الرزيلة التي لا يقبلها اي ذي حياة ، لا وحتى الذين أشركوا !·

فهم - رغم أنهم عارفون القَدَر المتعوَّد من الحياة - يجتازونها إلى أعلى ما بالإمكان في تقديرهم : « يودُّ أحدهم لو يعمر ألف سنة » كسباً أكثر وأوسع من ملذات الحياة الدنيا ، ابتعاداً أوفر عن عذاب الأخرى ، ولكنه « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر » وكل آت قريب ، فحتى لو عمِّر أحدهم الدنيا فليعذب اكثر واكثر مما لو انه لم يعمَّر ، لأنه يزيد في تعميره الأكثر استحقاقاً للعذاب أكثر ، فتعميره الكثير - اذاً - يبوء الى العذاب الكثير ! « والله بصير بما يعملون » .

واختصاص المشركين هنا من بين الناس لأنهم أحرصهم على حياة ، ولكن اليهود هم أحرص مِن أحرص الناس على حياة .

« ويود أحدهم . . » كما يرجع إلى اليهود ، كذلك إلى الذين أشركوا ، ام هو راجع إليهم ، ثم اليهود يود أحدهم لو يعمر اكثر من ألف لأنهم أحرص منهم على حياة[1] .

---

(١) الدر المنثور ١ :.٨٩ عن ابن عباس في الآية قال هو قول الاعاجم اذا عطس احدهم : زه هزار سال - يعني الف سنة .

و« لو » هنا للتمني لا الإستحالة ، حيث سمعوا او رأوا من عُمِّر الف سنة او يزيد ، فلانه شاذ بعيد يتمنونه مزيداً في الشهوات .

اتراهم بعدُ ليس لهم تقليب الإقتراح في هذه المباهلة : إن كانت لكم المسلمين الدار الآخرة خالصة عند الله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ام ولترضوا ان نقتلكم عن بكرتكم تخلصاً الى نعيم الجنة الخالصة عن هذه الدار المحفوفة بالبلاء ؟ .

كلّا ! حيث الرسول والمسلمون معه لم يدَّعوا لأنفسهم خالص الدار الآخرة دون شرط ، فـ « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاؤلئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » (٤ : ١٢٤) .

فلم يدَّعوا لأنفسهم خالص الدار الآخرة ، ولا دون شرط ولا دون الناس ، بل « وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى » ثم منهم من يتمنّى الموت دون مقت للحياة ، بل هياناً للقاء الله دون تعرض للقتل او الموت فانه محرم في شرعة الله ، بل تجب عليهم مقاتلة الكفار المضللين .

ومنهم من لا يتمناه بغية الحصول على استعداد أكثر للموت ، تحصيلاً لمزيد الثواب ، وقضاءً على مزيد العقاب ، فكيف ـ إذاً ـ يقلِّب عليهم السؤال وهم ليسوا بمدعين دعواهم الخاوية الفوضى الجزاف ؟ .

ثم « عند الله ـ خالصة ـ من دون الناس » هي ثالوث منحوس في دعواهم ، فـ « عند الله » هي منزلة خاصة منقطعة النظير ، و « خالصة » هي الخلاص عن شريطة العمل الصالح ، والخلاص عن أي شوب من العقاب والخلاص عن شركاء ، و « من دون الناس » إختصاص لهؤلاء الناس دون سائر

الناس ، والقرآن طارد هذه الدعاوي الخاوية ، فكيف يقلّب السؤال على أهله ؟ .

ثم في « لن يتمنوه ابداً » تحدٍ سافر على هؤلاء المدعين ، وملحمة غيبية أن « لن يتمنوه » وقد كان لهم أم لأحدهم أن يتمنوه تغلُّباً في هذه المباهلة على الرسول ، ولكنهم لم يتمنوه ولن ! تخوفاً من وقوع الواقعة ، وذلك من قضايا المباهلة حين لا تنفع أية حجة ، وكما حصلت مراراً وتكراراً ومنها مباهلته (ص) مع نصارى نجران .

﴿ قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾٩٧ .

لقد عاد هؤلاء الحماقى الأنكاد ـ فيمن عادوا ـ جبريلَ ، لما نزّل القرآن على نبي غير اسرائيلي ؟ ثم لماذا نزل عليه نكايات على أهل الكتاب ؟ ولماذا نزل عليه بشارات التوراة وكتب الأنبياء بحقه ؟ ولماذا يُطلع محمداً على أسرارنا ؟ وذلك ـ في الحق ـ كفرٌ بالله الذي أرسله لما أرسل بما أرسل .

لقد قالوا للرسول (ص) في حوار دار بينهم « أنت الآن فحدثنا مَن وليك من الملائكة فعندها نتابعك ، او نفارقك ، قال (ص) : وليِّ جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلاّ هو وليه ، قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : هو عدونا ، فانزل الله تعالى : « من كان عدواً لجبريل » ـ إلى قوله ـ « كأنهم لا يعلمون » « فعند ذلك باءوا بغضب على غضب » [(١)] .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٠٦ في العلل باسناده الى انس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل قال فيه لعبدالله بن سلام وقد سأله عن مسائل أخبرني بهن جبرئيل (عليه السلام) ـ

ومن عداءِهم لجبريل أنهم ما أبقوا له ذكراً في كتابات الوحي إلّا اربعاً تفلتت عنهم ، في « دانيال ٨ : ١٦ و ٩ : ٢١ » من العهد العتيق ، ثم في « لوقا ١ : ١٩ و٢٦ » من العهد الجديد ، ثم لا نراه يذكر في الأسفار الخمسة التوراتية ولا في سائر كتابات العهدين ولا مرة واحدة ، وهو الملك العظيم ، حامل الوحي الى رسل الله ، لا يمكن ان يترك اسمه في هذه الكتب المذكورة فيها اسماء الكثير ممّن هم دونه ام لا يحسبون بشيء !..

ثم المذكور فيما ذكر يعبر عنه بـ « الرجل جبرائيل » (٩ : ٢١) مهما جاء في

= آنفاً ، قال : هل أخبرك جبرئيل ؟ قال : نعم قال : ذلك عدو اليهود من الملائكة ، قال : ثم قرأ هذه الآية . . .

وفي الدر المنثور ١ : ٨٩ ـ أخرج الطيالسي والفريابي واحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن ابي حاتم والطبراني وابو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عباس قال : حضرت عصابة اليهود نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا يا ابا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلّا نبي ، قال : سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا الى ذمة الله وما اخذ يعقوب على نبيه لئن انا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعُنّي ، قالوا : فذلك لك ، قالوا اربع خلال نسألك عنها ، اخبرنا اي طعام حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة ، واخبرنا كيف ماء الرجل من ماء المرأة وكيف الأنثى منه والذكر ، واخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ومَن وليه من الملائكة ، فاخذ عليهم عهد الله لئن أخبرتكم لتتابعني فاعطوه ما شاء من عهد وميثاق ، قال : فانشدكم بالذي انزل التوراة هل تعلمون ان اسرائيل مرض مرضاً طال سقمه فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب اليه واحب الطعام اليه كان احب الطعام اليه لحمان الابل واحب الشراب اليه ألبانها ؟ فقالوا اللّهم نعم ، فقال : اشهدوا ، قال : انشدكم بالذي لا إلّه الّا هو هل تعلمون ان ماء الرجل ابيض غليظ وان ماء المرأة اصفر رقيق فايهما علا كان له الولد والشبه باذن الله ، ان علا ماء الرجل كان ذكراً باذن الله وان علا ماء المرأة كان انثى باذن الله ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد قال فانشدكم بالذي انزل التوراة على موسى هل تعلمون ان النبي الأمي هذا تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا نعم ، قال : اللهم اشهد عليهم ، قالوا انت الآن فحدثنا من وليك . . .

في « لوقا » : وقال إن جبرائيل الواقف قدام الله (١٩) و « ارسل جبرائيل الملاك من الله . . » (٢٦) .

ولقد ذكر في القرآن بهذا الإسم مرات ثلاث ، هنا وفي الآية التالية لها وفي التحريم (٤) : « وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » .

وهو مذكور مرات عدة في الذكر الحكيم باسم « الروح القدس - الروح الامين - الروح من أمره » ولإسمه عليه السلام صيغ سبع : جِبْريل - جَبْريل - جبرئيل - جبرائل - جبرائيل - جَبرايل - جِبرين [1] ، والأصح هو صيغة القرآن المتواترة « جِبريْل » المعربة عن الاصل العبراني « جِبرائيل » وكأنها مركبة من « جابر - ايل » .

وجابر : العبرانية : גָּבַר - بمعنى : « قَدَر - اقتدر - اشتد - تجبر - زاد - ساد - تقوّى - تغلّبَ - تفوق - أخضع » كما و « ايل » هو الله ، إذاً فـ « جبريل » هو قدرة الله وقَدَرُهُ واشتداده وتجبره وزيادته وسيادته وتغلبه وتفوقه وإخضاعه ، وكل هذه المعاني تناسب ساحة جِبريل فانه مظهرٌ لهذه الأسماء الحسنى الربانية تكويناً وتشريعاً ، فإنه وسيط الوحي إلى رجالات الوحي ، ومن وسطاء التكوين ، وقد يصح تفسيره بـ « عبد الله » [2] ولأن العبودية الخاصة الخالصة لله تجعل العبد وسيطاً بين الله وخلقه .

---

(١) الاولى هي القراءة المتواترة في كتب القرآن وهي قراءة سائر القراء والثانية : ابن كثير والثالثة : حمزة والكسائي وابو بكر عن عاصم ، ثم الصيغ الاربع الأخرى هي لغات فيها .

(٢) الدر المنثور ١ : ٩١ - اخرج الديلمي عن ابي أمامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اسم جبريل عبدالله واسم ميكائيل عُبيدالله واسم اسرافيل عبدالرحمن ، وكل شيء راجع الى « إيل » فهو معبد لله .

« قل من كان عدواً لجبريل » لأنه نزل على قلبك ما نـزّل « فإنـه نزلـه على قلبك باذن الله » دون هواه ام هوى سواه « مصدقاً لما بين يديه » في أصل الوحي كسلسلة موصولة بين رسل الله ، وفي البشارات المحمدية ، ثم « وهدىً وبشرى للمؤمنين » بهذه الرسالة السامية ، إذاً فلماذا يعادىٰ ؟ لكنّه اسرائيل !.

« ويحك أجهلت أمر الله ، وما ذنب جبريل أن اطاع الله فيما يريده منكم ، أرأيتم ملك الموت أهو عدوكم وقد وكله بقبض أرواح الخلق . . . »[1] .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٠٣ في الاحتجاج قال ابو محمد الحسن العسكري (عليهما السلام) : قال جابر بن عبدالله سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عبدُالله بن صوريا غلام أعور يهودي ، تزعم اليهود انه أعلم بكتاب الله وعلوم انبيائه ، عن مسائل كثيرة تعنّته فيها فاجابه عنها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بما لم يجد الى إنكار شيء منه سبيلاً فقال له يا محمد ! من يأتيك بهذه الأخبار عن الله تعالى ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : جبريلُ ، فقال : لو كان غيره يأتيك بها لآمنت بك ، ولكن جبرئيل عدونا من بين الملائكة ، فلو كان ميكائيل او غيره سوى جبرئيل يأتيك بها لآمنت بك ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ولِمَ اتخذتم جبرئيل عدواً ؟ قال : لانه ينزل بالبلاء او الشدة على بني اسرائيل ، ودفع دانيال عن قتل بخت نصر حتى قوي أمره واهلك بني اسرائيل ، وكذلك كل بأس وشدة لا ينزلها إلا جبرئيل ، وميكائيل يأتينا بالرحمة ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ويحك اجهلت امر الله . . . أرأيتم الآباء والأمهات إذا وجروا الاولاد الكريه لمصالحهم يجب ان يتخذهم اولادهم اعداءً من اجل ذلك ؟ لا ! ولكنكم بالله جاهلون ، وعن حكمته غافلون ، أشهد ان جبرئيل وميكائيل بأمر الله عاملان ، وله مطيعان ، وانه لا يعادي أحدهما إلاّ من عادى الآخر ، وانه من زعم انه يحب احدهما ويبغض الآخر فقد كذب ، وكذلك محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام) أخوان كما ان جبرئيل وميكائيل اخوان ، فمن احبهما فهو من اولياء الله ، ومن ابغضهما فهو من اعداء الله ، ومن أبغض احدهما وزعم انه يحب الآخر فقد كذب وهما منه بريئان والله تعالى وملائكته وخيار خلقه منه برآء .

﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ ﴾٩٨ .

فان عداء ملائكة الله ورسله وجبريل وميكال وأضرابهم عِداءُ لله وذلك كفر بالله « فان الله عدوٌّ للكافرين » .

إن الرسالة الملائكية والبشرية هي سلسلة موصولة بين الله وخلقه تكويناً وتشريعاً ، فالكافر بعقد واحد من هذه السلسلة كافر بها كلِّها ، والكافر بها كافر بالله ، وإذا كان كفرَ العداء لله « فان الله عدو للكافرين » .

و « ميكال » معرب « ميكائيل » : مَن هو كمثل الله ؟ استفهام إنكار على من يشبِّه بالله ، وما أحلاه إسماً لملكٍ من ملائكة الله يحمل جانباً عظيماً من توحيد الله ! .

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ ﴾٩٩ .

آيات بينات الدلالة على أنها ربانية ، وبينات المدلول كما يناسب الفطرة والعقل والحاجية السلمية الإنسانية « وما يكفر بها » كفراً وكفراناً[1] في أي حقل من بيّناتها « إلاّ الفاسقون » الخارجون عن قشر الإنسانية ولُبِّها ، المتخلفون عن عقليتها وفطرتها ومصلحياتها .

و « الفاسقون » بتعريفها كأنها تعني المعروفين بالفسق بين الأمم الكتابية وسواها ، المتعرق فيهم الفسوق فإنهم «إسرائيل » !.

﴿ أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايُؤْمِنُونَ ﴾١٠٠ .

---

(١) طالما الباء في الكفر تعدية وفي الكفران سببية او مصاحبة ، ان يكفر كفران بسبب الأيات او مصاحبتها .

« عهداً » مع الله كما عاهد عليهم الله ام عاهدوه ، ام « عهداً » مع عباد الله « نبذه فريق منهم » من قلة او ثُلة « بل أكثرهم لا يؤمنون » بالعهد والمعهود له ، ومن العهد الرباني الايمان بالرسول الأمي :

﴿ وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾١٠١ .

هنا « كتاب الله » المنبوذ ليس هو القرآن فحسب ، بل والتوراة وسائر كتابات الوحي ايضاً ، حيث البشارات المحمدية فيها تترى بشأن القرآن ورسوله ، فَنَبْذُ القرآن نَبْذٌ لما بين يديه من كتاب ، « نبذ فريق » وهم الفرقة المتعصبة المحرِّفة « كأنهم لايعلمون » أنه رسول من عند الله وكتابه كتاب الله ، وهما معروفان لديهم وضْحَ النهار في جل كتابات الرسالات أم كلِّها .

ثم فريق ثان هم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني « نبذه » وهم لا يعلمون جهل التقليد المقصر ، ثم فريق ثالث هم القلة القليلة منهم صدقوه وآمنوا به وهم يعلمون فيعملون .

و « فريقٌ من الذين اتوا الكتاب » هنا تعريض عليهم ، أنهم على معرفتهم بوحي الكتاب وبشاراته بهذه الرسالة الأخيرة « نبذ فريق منهم » ـ « والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » !

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينَ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ بِهِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾١٠٢

إنها من أطول الآيات البينات بعد آية التداين ، يتيمة في مضمونها ككلٍّ ، لا نظيرة لها في القرآن كله ، حاملة حملة عنيفة على إتّباعهم ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من الكفر وتعليم السحر وما انزل على الملكين ، فما هي مادة هذه التلاوة الكافرة الساحرة ؟ وكيف أنزل السحر على الملكين ؟ وكيف يُفرق به بين المرء وزوجه بإذن الله ؟ ! وهل السحر هو فسق عملي،اوانه كفرٌ بالله ؟ فالساحر ـ أيّا كان ـ كافر ؟ !.

هؤلاء الحماقى الأنكاد ، النابذون كتاب الله وراء ظهورهم وهم يعلمون ، هم أولاء اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وقد تلت على ملكه كفراً وسحراً ، فما هي هنا « تتلوا على » ؟ أهي القراءة ؟ وصيغتها الصريحة « تقرء » ! ام هي الإتّباع ؟ وصيغتها الصالحة : « تتلو مُلك سليمان » كما « والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها » ! ام هي الكذب على ؟ ولفظها الصحيح : « تكذب على » ! قد تعني « تتلوا على » مثلث التلاوة ، قراءة على ملكه من شيطنات، تجعل ملكه أمام السامعين مُلك الشياطين ، وإتباعاً على « ملك سليمان » بعضهم البعض ضد ملكه ، وكذباً على ملك سليمان [1] .

وقد تلوا على ملك سليمان ذلك الثالوث المنحوس ، نسبةٌ له الى الكفر السلطوي الشركي كما نجده حرفاً بحرف في العهد العتيق ، كما تلوا على ملكه السحر لعله ينقضه ، وكأن ملكه كان بسحر ، وكذبوا على ملكه أكاذيب يتبرء عنها شلائطة الناس فضلاً عن نبي كسليمان عليه السلام .

واليكم طرفاً مما تلوه على ملكه ودُسَّ في كتابات منسوبة الى انبياء بني اسرائيل ، فشيطنةُ الوحي هذه خليطة بربانية الوحي التوراتية :

---

(١) فان « تلى على » تعني قرء ، ام كذب اعتباراً ان « على » للضرر ، وكذلك اتبع على ، حين تعني « على » الضرر لا التعدية حتى تختص بالقراءة .

نموذج عارم عن الدس والتجديف في التوراة ضد سليمان :

« . . اصبح سليمان في سلطانه مثرياً للغاية فاخذ في السّرف والتّرف والتعيُّش الممنوع أكيداً في (تث ١٧ : ١٦ ـ ١٧) ولقد هدده الله ووبّخه في رؤياه الثانية ، فرغم أن يتعظ إستكبر وتساهل في أمر ربه ونسي ربه (١ ملوك ١ ـ ٩و٢ ـ أيام ٧ : ١١ ـ ٢٢) « أخذ يعاشر ويعاشق النساء الغريبات اللآتي منع الله من عشرتهن فنكح منهن سبعمائة بالعقد الدائم وثلاثمائة منقطعاً ، فاجتذبن وأمَلْنَ قلبه عن ربه إلى انفسهن وهو على كهولته وشيخوخته نحى نحوهن وحذى حذوهن لحدٍّ بنى لكل واحدة منهن مذبحاً للأوثان على الأتلال » (١ ملوك ١١ : ٨ وسخميا : ١٣ : ٢٦) « ولذلك غضب الله عليه وفرق ملكه من بعدُ جزاء كفره وفسوقه ! » .

و« كثرة النساء محرمة على الملوك كما في التوراة (تث ١٧ : ١٧) وكذلك نكاح الوثنيات (خروج ٣٤ : ١٦ وتث ٧ : ٣و٤) فضلاً عن الإنجراف في ميولهن الشركية أن يبني على الأتلال معابد الأوثان ! » .

« وهكذا انحرف في سلطانه وقدرته عن العدل وبالنسبة لرعيته حيث أجبرهم على خدمته وظلمهم في الخراجات الثقيلة المحرجة ، لحدٍّ اضطر المظلومون المحطَّمون أن يتظلموا إليه جهاراً في جلوس يربعام » (١ ملوك ١٢ : ٣ ـ ٢٠) مقابل مع (اصموئيل ٨ : ١٠ ـ ١٨) هذه ولها نظائر يستحي القلم عن سطرها كـ « إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريّاه » (متى ١ : ٦) وهي إمرأة ذات بعل ، فقد جمع سليمانُ العهدين بين كل كفر عقائدي وعملي ، وهو معذلك نبي ملك ! و« هو الذي بنى البيت المقدس فاتخذه الله إبناً له » (أيام ٢٨ : ٦ ـ ٧) وأمر ناثان النبي أن يدعوه : يَديديا ـ اي : محبوب الرب (صموئيل ١٢ : ٢٥) وانتصبه الله خليفة ابيه داود قبل ولادته (١ ـ أيام

٢٢ : ٩ ـ ١٠) فـاصبـح ملكـاً نبيـاً في العشرين مـن عمـره (١ مـلوك ٢ : ١٢و٣ : ٧و٢ ـ أيام : ١) ـ و « تجلى له ربُّه في رؤياه قائلاً : سل ما شئت فسأله الحكمة فوهبها وزيادة هي المُلك والسلطان (١ ملوك ٣ : ٤ ـ ٥و٢ ـ أيـام ١ : ١٣ ـ مقابل مع : أمثال . : ١١ ـ ١٦ ومتى ٦ : ٣٣) !! . . .

هذه الشطحات الزور والشيطنات الغُرور هي مما « تتلوا الشياطين عـلى ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا . . . » .

ثم القرآن يصفه بأجمل الأوصاف في سلطته الزمنية ، والـروحية الـرساليـة كما في الأنعام والأنبيـاء والنمل وص وسـواها ، ممـا يقل مثيله في المـرسلين الملوك والملوك من المرسلين ! [1] .

وهنـا « يعلمون النـاس السحـر » حـالاً من الشيـاطـين ، تعني أنهم حـال كفـرهم ـ بما تلوا عـلى ملك سليمان ـ يعلمـون النـاس السحـر ، فهو من قضـايـا الكفر ، ولقد كان مما تلوه عـلى ملكه أنـه إنما ملك مـا ملك بالسحـر ، فلنملك نحن او نُملّك بـالسحر ، نكـراناً لاصطفاء الله لـه في هـذه السلطة الـزمنيـة الى الروحية الرسالية ! إذاً فتعليم السحر وتعلمه كفرٌ او على هامشه ، وأما « ما أنزل على الملكين . . » ؟ .

لاشك أنهُ أنزل على هذين الملكين السحـر ، ولكنه أنـزل عليهما مـا أنزل إبطالاً لسحر الشياطين وليس تعليماً للإفساد ، فكما أن تعليم الآية المعجزة لموسى إبـطالاً لسحر السحـرة واجب رسالي ، فلتكن معـرفة المعجـزة واستعمالهـا إبطالاً للسحر واجباً أم راجحاً ايمانياً ، وكما القرآن ـ بأحرى ـ يبطل اي سحر ! .

فـ « ما » في « ما أنـزل » و « ما يعلمان » قـد تكون نـافية تعني : مـا انزل

---

(١) راجع كتابنا « عقائدنا » في مقارنة سليمان القرآن والعهدين ٤٢٧ ـ ٤٤١ .

سحر الشياطين على الملكين وانما انزل عليهما مبطل السحر مهما كان سحراً ولكنه من نوع آخر يبطل الاوّل ، فهو - إذاً - أقوى من الاوّل ، ثم و « وما يعلمان » إبطاله « من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة » إمتحاناً لكم وإبتلاءً « فلا تكفر » باستعماله في الباطل ، وانما في حق الإبطال لباطل سحر الشياطين « فيتعلمون . . . » .

وكون « ما » الأولى موصولة لا يرجع إلى معنى صالح ، اللّهم إلاّ بحذف الواو عن « وما يعلمان » فالمعنى : والسحر الذي انزل على الملكين « ما يعلمان به من أحد . . . » فإنه ليس إلاّ إبطالاً للسحر .

ذلك ، وأبعد منه عن المسرح كون « ما » فيهما موصولة ، أو الاولى نافية والثانية موصولة ، مهما دخلت هذه الثلاث في حساب المليون ومأتين وستين ألف احتمالاً بضرب كل المحتملات في كلٍّ من مقاطع الآية بعضها في البعض ، حيث الاكثرية الساحقة لا تناسب أدب اللفظ أم المعنى أم كليهما .

ثم هاروت وماروت وهما ملكان ، كانا يظهران - بأمر الله - بهيئة الإنسان ببابل فيعلّمون الناس المبتلين بسحر الشياطين سحراً أقوى منه يبطله « وما يعلمان بهمن أحد » سحرهما النازل عليهما إلا بحجة رادعة قارعة : « إنما نحن فتنة فلا تكفر » ولكنهم كانوا يبدّلون الحسن سوءً والخير شراً ككل من يستعملون نعمة الله في نقمة حيث يبدلونها نقمة « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » فـ « يفرّقون به - دون - يفرّق به » تلمح أن ذلك السحر كان لإبطال التفرق ، وكما يأتي منه التفريق ايضاً حسب مختلف استعمالاته ، كما اللسان القادر على الإفصاح قد يوفق بين المتخاصمين وأخرى يفرق بين المتحابين [1] .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١١٤ في الاحتجاج للطبرسي عن ابي عبدالله (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال السائل له : فمن أين علم الشياطين السحر؟ قال : من حيث عرف الاطباء الطب ، بعضه =

هؤلاء الأنكاد كانوا يستعملون آلة الخير في الضر بالناس ، ويخيّل اليهم أنهم هم الضارون به بعيداً عن إذن الله ، حال أنهم ـ كضابطة عامة في كل ضر وشر أم خير ـ « وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله » .

أترى الله يأذن بتاثير الضر تكويناً ما لم يسمح به تشريعاً وهو تناقض ؟ هنا الضر بإذن الله ليس إلا بعد تكملة الإختيار من اصحاب الضر والشر ، فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين امرين ، وكما لا جبر في فعل الخير او تركه ، كذلك لا جبر في فعل الشر او تركه ، وهكذا التفويض ، فأمر بين أمرين في هذين الأمرين ، أن المقدمات لكل فعل اختياريٍّ ، منها اختيارية يختارها الفاعل ، ثم الإذن التكويني الخاص بالله ـ قضيةَ توحيد الأفعال ـ هو الذي يُبرز عملية الإختيار إلى الوجود ، فقد يأذن الله تحقق محاولات الشر ، إذ لولاه لكان الشرير مسيَّراً في ترك الشر ، كما في كل شرير واصلٍ إلى شره ، وهذه ضابطة عامة تحلّق على الخيرات والشرور .

وقد لا يأذن ـ لامور طارئة ، حكمةً من الله ، أم لصالحٍ فيمَن يؤمَن عن الشر ، أم هما كما لم يأذن الله للنار أن تحرق ابراهيم ، وهو يأذن لها ان تحرق كضابطةً عامة سارية المفعول عند الشرائط الخِلقية .

إذاً فـ « لا مؤثر في الوجود إلاّ الله » ولكن دون جبر أو تفويض في الأمور

= تجربة وبعضه علاج ، قال : فما تقول في الملكين هاروت وماروت ، وما يقول الناس بانهما يعلمان السحر ؟ قال : انهما موضع ابتلاء وموقف فتنة بتشبيحهما اليوم لو كان فعل الإنسان كذا وكذا لكان كذا وكذا ، ولو يعالج بكذا وكذا لصار كذا اصناف السحر ، فيعلمون منهما ما يخرج عنهما فيقولان لهم : انما نحن فتنة فلا تأخذوا عنا ما يضركم ولا ينفعكم ، قال : افيقدر الساحران يجعل الإنسان بسحره في صورة الكلب او الحمار او غير ذلك ؟ قال : هو أعجز من ذلك وأضعف من ان يغير خلق الله ، ان من أبطل ما ركبه الله وصوره فهو شريك الله في خلقه تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

الإختيارية ، فانما الفعل يصبح اختيارياً للفاعل ، او الترك للتارك ، إذا كانت بعض مقدماته إختيارية ، مهما كان الإختيار درجات او دركات في الخيرات والشرور ، حسب عديد المقدمات كثرة وقلة ، « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى » .

« ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » من الشياطين ، فإنهم يعلّمون الناس السحر ضَرّاً ، أم من الملكين ، مهما علّموهم ما ينفعهم إبطالاً لضر السحر وشره ، ولكنهم بسوء اختيارهم يستعملونه في الشر بدلاً عن إبطاله .

والسحر هو كسائر العوامل الخفية ـ الطبيعية ـ عن جلّ الناس ، يؤثر أثره حين يأذن به الله ، والعلوم الباحثة عن خفيات التأثيرات الغريبة متشجرة ـ وهي في نفس الوقت متشاجرة ـ واعرف ما تداول منها : السيمياء ـ الليمياء ـ الهيمياء ـ الريمياء ـ والكيمياء[1] ، وهي مشتركة في كونها من السحر ، مختلفة في

---

(١) فالسيمياء هو العلم الباحث عن تمزيج القوى الارادية بقوى مادية خاصة للحصول على غرائب التصرفات في الأمور الطبيعية ، كالتصرف في الخيال المسمى بسحر العيون وهو من ابرز مصاديق السحر ، والليمياء هو الباحث عن كيفية التأثيرات الإرادية باتصالها بالارواح القوية العالية كالارواح الموكلة بالكواكب والحوادث وغيرها بتسخيرها او باتصالها واستمدادها من الجن بتسخيرهم ويسمى بفن التسخيرات .

والهيمياء هو الباحث عن تركيب قوى العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثير وهو الطلسمات ، فان للكواكب العلوية والاوضاع السماوية ارتباطات مع الحوادث المادية كما ان العناصر والمركبات وكيفياتها الطبيعية كذلك ، فلو ركبت الأشكال السماوية المناسبة لحادثة من الحوادث كموت فلان وحياة فلان وبقاء فلان مثلاً مع الصور المادية المناسبة انتج ذلك الحصول على المراد وهذا معنى الطلسم .

والريمياء هو الباحث عن استخدام القوى المادية للحصول على آثارها بحيث يظهر للحس أنها آثار خارقة بنحو من الانحاء وهو الشعبذة ، وهذه الاربعة مع الكيمياء ـ الباحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها الى بعض كانت تسمّى عندهم بالعلوم الخمسة الخفية . . .

أسبابها وتأثيراتها وأبعادها في النفوس وواقع الحياة .

« ولقد علموا لمن اشتراه » السحَر من الشياطين الضارِّين به ، أو الناس المشترين إياه منهم، أم هما معاً « ما له في الآخرة من خلاق » ونصيب « ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » إذ شروها بيعاً بثمن السحر الضار ، فأبقوا نفوسهم بتعلم السحر والإضرار به ، واستحقوا العقاب ، ويْكأنهم رضوا بالسحر ثمناً لنفوسهم ، إذ عرّضوها بعمله للهلاك ، وأبقوها لدائم العقاب ، وكانت كالأعلاق الخارجة عن أبدانهم بأنقص الأثمان وأدون الأعواض .

اولئك الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلوها وبئس القرار !

هذا ما يتسابق الى الفهم من مغزى الآية بصورة تجريدية صالحة لفظية ومعنوية ، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه .

فـ « الشيطان » هنا تعم شياطين الجن والإنس ، ومن الآخرين هؤلاء العلماء السوء الذين دسّوا في كتابات الوحي ما يمس من كرامة الساحة الرسالية لسليمان وأضرابه من المرسلين .

فقد كفر شياطينُ الجن إذ ألقوا اليهم ما ألقوا ، وكفر هؤلاء التلاميذ إذ دسوا في كتب الوحي ما دسوا .

= (تفسير الميزان نقلاً عن الشيخ بهاء الدين العاملي) ثم يستمر قائلاً : ومن العلوم الملحقة بما مر علم الاعداد والأوفاق وهو الباحث عن ارتباطات الأعداد والحروف للمطالب ووضع العدد او الحروف المناسبة للمطلوب في جداول مثلثة او مربعة او غير ذلك على ترتيب مخصوص ، ومنها الخافية وهو تكسير حروف المطلوب او ما يناسب المطلوب من الاسماء واستخراج أسماء الملائكة او الشياطين الموكلة بالمطلوب والدعوة بالعزائم المؤلفة منها للنيل على المطلوب ، ومنها التنويم المغناطيسي واحضار الأرواح وهما كما مر من تأثير الارادة والتصرف في الخيال واشتهار امرها يغني عن الإشارة اليها ههنا والغرض مما ذكرنا على طوله إيضاح انطباق ما ينطبق منها على السحر او الكهانة .

وما قصة نازل السحر على الملكين إلّا بلية صالحة لغربلة الناس ، ليظهر ناسهم عن نسناسهم ، فيعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس ، كيف هم يبدلون نِعمةَ الله كفراً ، ويستغلونها في الضر والشر ؟ . كما و « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلّا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلّا قليلاً منهم . . » (٢ : ٢٤٩) وإلى سائر الإبتلاآت والفتن الربانية .

ولقد كثرت رواة هذه القصة وقلت رعاتها ، اهتماماً بأيّة رواية ، وتغافلاً عن أيّة رعاية ، ولا يصدَّق منها إلّا ما صدقه كتاب الله ، ام - ولاقل تقدير - لم يكذبه ولم يات برهانٌ لتكذيبه ، فقد يحتمل إذاً صدقه .

هذه القصة وأضرابها مما تمتُّ بصلة إلى إسرائيل هي مسرح الأكاذيب والمختلقات الزور الغُرور ، التي يدسها بين أحاديثنا الغَرورُ ، ولا أصل لنا أصيلاً نصدر منه ونرجع إليه إلّا القرآن العظيم .

وكثير من هذه الأحاديث - كغيرها - الواردة في مطاعن الأنبياء وعثراتهم ، هي مما دسته اليهود في أحاديثنا ، كما وأعانهم عليها قوم آخرون من المسيحيين ومنافقي المسلمين ، وجهالهم البسطاء !.

والقرآن يُفصح عما دسوا وأخفوا ، ويفضح ما صفوا فيه ودفوا ، فانه مهيمن على ما بين يديه .

إنهم كفروا بذريعة الايمان والأمان ، وطغوا فيها بديلاً عن التُقى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾١٠٣ .

« لو » الأولى تحيل إيمانهم وتقواهم ، كما الثانية تحيل علمهم بمثوبة الله ، وهما استحالتان بالإختيار : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ
وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن
رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ
أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ
لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ
بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ
ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ
قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ
يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ
فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ
فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ
لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾
وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾١٠٤ .

« من الذين هادوا يحرفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسمَع وراعِنا ليًّا بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً » (٤ : ٤٦) .

« يا ايها الذين آمنوا » صيغة سائغة في القرآن لقبيل الايمان ، يختص بها المؤمنون بهذه الرسالة الأخيرة ، وهذه هي المرة الاولى في القرآن حسب التأليف ـ دون التنزيل ـ ونجدها في القرآن زهاء خمسة وثمانين مرة .

ثم الأمم الأخرى حسب التعبير القرآني هم بين : قوم ـ اصحاب ـ بني . . ناس ـ وأضرابها ، مما يبرز شرف هذه الأمة الأخيرة على ما قبلها ، ولأن ايمانها أشرف ايمان بين مؤمني الأمم بأسرها .

« راعنا » في لغة المسلمين لا تعني إلاّ : أنظرنا رعاية لحالنا ، وهي ـ ليّاً باللسان ـ في لغة اسرائيل : سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع أمّا شابه نقيضاً لإسلاميتها ، واليهود المتعودون على تحريف الكلم من بعد مواضعه كانوا يستعملون هذه الصيغة السائغة لقبيل الايمان ، كصيغة لقبيل الكفر ، متظاهرين أنها كالاول ، مستهزئين بالرسول (ص) والمؤمنين ، فنهى الله المسلمين أن يقولوها ابتعاداً عن ذريعة اسرائيلية الى بغية لئيمة ، وكذلك عما تعطيه « راعنا » من هينِّ المعنى وهو إدارته الحفظ مع تولي الأمر ، وليس هي على الرسول (ص) وإنما عليه البلاغ ثم النظر الى المبلَّغ إليهم كيف يعملون ؟ .

إذاً ففي « راعنا » ذريعة اسرائيلية لعينة ، ومزرعة اسلامية مُهينة ، ولكن

«انظرنا» نظراً رسالياً كشهيد على المرسل إليهم، ذلك تعبير نظيف حفيف.

«قولوا انظرنا واسمعوا» سمعاً لمقالات الرسالة، وتطلُّباً من الرسول أن ينظر إليهم نظر الرقابة هل عملوا بما سمعوا، ام هل وعوا ما سمعوا، ليطابق الوعيُ البلاغَ، ويوافق العملُ ما بلَّغ، تكميلاً لنقص الوعي، وتقويماً في التطبيق.

فهذا هو المطلوب من الرسول بعد البلاغ، دون الرعاية لأحوالهم وكأنه هو الشارع، فليخفف عنهم في شرعته، ففي تركهم قول «راعناً» سدٌّ على ثغرة إسرائيلية، وآخر على مجهلة إسلامية.

ثم «راعنا» عربياً مفاعله من الرعاية، طلباً لها، فقد يعني ليَّها بألسنتهم ليَّ التعبير كـ «راعِنا» يعنون بها أن الرسول ما هو إلّا راعي الإبل فينا دون رسالة او ميزة أخرى؟.

ام «راعناً» من الرعونة بحذف أداة النداء «يا راعناً» مدللاً فيما تدعيه من الرسالة؟.

ام ليّ المعنى إيهاماً بها للمساواة كـ: إرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا؟.

أم ليّاً فيهما، ففي التعبير ليٌّ يحرِّف «راعنا» عن عربيته مثل «رَعناً»: حمقاً، ثم المعنى كخليفة له: «سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع» كما في آيتها الأخرى تفسيراً لها؟ ولا نجده في ليّ عربي إذ لم يكن يعني إلّا الرعونة وراعي الإبل واين هما من مثلث المعنى هنا؟.

وعلّهم كانوا يجمعون بين الليَّين، جمعاً للمعنيين اللئيمين، والقرآن يكتفي في آيته الثانية بالثاني.

وقد بدل الله هنا «عصينا» بـ «أطعنا» ـ ثم «واسمع غير مسمع»

بـ « اسمع » و « راعِنا » بـ « انظرنا » إصلاحاً شاملاً كاملاً يسد الى ثغرة اسرائيلية : « طعناً في الدين » ثغرةً إسلامية : جهلاً في الدين ، وقد يناسب « طعناً في الدين » تفسيراً لـ « راعنا » في ليّها ، بانها من الرّعن ، وهي في العبرانية : الحمق ، أن كانوا يقولون « رَعناً » اي : حمقاً ، وحمق الرسول (ص) ـ وعوذاً بالله ـ طعن في الدين عن بكرته ، فان الشرط الاوّل للرسالة هي العقلية البارعة للرسول ، وقد يروى عن الامام الباقر (ع) « هذه الكلمة سبٌّ بالعبرانية إليه كانوا يذهبون »(١) « يقولون راعنا يريدون شتمه »(٢) .

والحق ان « رَعناً » هو الأنسب ليّاً خفياً فيه لفظياً ، ثم طعناً في الدين معنوياً ، مهما ليُّوا إلى جانبه سائر اللي .

﴿ ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ ذُوا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾١٠٥ .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١١٥ عن المجمع .

(٢) تفسير البرهان عن الامام العسكري (عليه السلام) قال موسى بن جعفر (عليه السلام) وكانت هذه اللفظة « راعنا » من الفاظ المسلمين الذين يخاطبون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقولون « راعنا » اي : ارع احوالنا واسمع منا كما نسمع منك ، وكان في لغة اليهود معناه : اسمع لا سمعت ـ فلما سمع اليهود المسلمين يخاطبون بها قالوا : كنا نشتم محمداً إلى الآن سراً فتعالوا الآن نشتمه جهراً فكانوا يخاطبون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقولون راعنا يريدون شتمه ففطن لهم سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا اعداء الله عليكم لعنه الله اراكم تريدون سب رسول الله توهمون انكم تجرون في مخاطبته مجرانا والله لا اسمعها من أحد منكم إلا ضربت عنقه ، ولولا اني اكره أن أقدم عليكم قبل التقدم والاستئذان له ... لضربت عنق من قد سمعته منكم ... فانزل الله يا محمد ﴿ من الذين هادوا ... ﴾ وانزل ﴿ لا تقولوا راعنا .. ﴾ فانها لفظة يتوصل بها اعدائكم من اليهود الى سب رسول الله وشتمكم ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ اي : قولوا بهذه اللفظة لا بلفظة « راعنا » .

التسوية بين قبيلي الكفر في « ما يودُّ » تنديدة شديدة بكفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بهذه الرسالة السامية ، فـ « ما يودُّ » فيهم ، لها صبغة عنصرية إسرائيلية و « ما يود » في المشركين ، لها صبغة الجهالة القاحلة ، المستبعدة في الأصل أن ينزل الوحي على بشر ، « والله يختص برحمته من يشاء » دون حبس لها وقصر على أهواء أولاء وهؤلاء ، « والله ذو الفضل العظيم » دون ما يزعمونه من فضل محدَّدٍ محدود ، أم فضل عميم لا يختص بأحد ، وجواباً عن نسخ آية رسالية أو إنساءِها :

﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِهَا ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾١٠٦ .

وهذه ـ في وجه ـ نظيرة آية النحل « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » (١٠١) .

وقد تعني آية البقرة من « آية » ما هي اعم من آية النحل ، من آية تحمل حكماً أو أحكاماً ، إلى آية الرسالة في أصلها ، وآية : الرسول ، فهي ـ إذاً ـ مثلث الآية دون اختصاص ببعضها ، والأنسب للمقام هما الأخيران ، إلّا أن يُعنى من آية الحكم كل كتاب الوحي : القرآن ، الناسخ لما بين يديه في أحكام .

وعلى أية حال فلا تعني « أو ننسها » ـ فيما تعني ـ إنساءة آية عن خاطر الرسول (ص) مهما كانت منسوخة الحكم[1] ، إذ سبقتها مكية كافلة لعدم

---

(١) . ومن الاسرائيليات المختلقة الزور هنا ما في الدر المنثور ١ : ١٠٤ ـ اخرج جماعة عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الوحي بالليل وينساه بالنهار فانزل الله : ﴿ ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها ﴾ وفيه عن قتادة قال : كانت الآية تنسخ الآية وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة ثم ترفع فينسها الله نبيه فقال الله يقص على نبيه : ما ننسخ . .

نسيانه أيّة آية : « سنقرئك فلا تنسى » إقراءٌ رباني يضمنُ ألّا ينسى ما أُقرِءَ ، و « إلّا ما شاء الله » راجع إلى « سنقرئك » دون « تنسى » ، كما فصلناه في محله .

هنا يخرّ سقف المختلقات الزور من آيات يدعى أنها كانت من القرآن ثم نسخت أو أُنسيت عنه وعن خاطر الرسول (ص) - يخر سقفهم من فوقهم وينهد صرحهم [1] .

« آية » هنا هي آية الرسالة والآية الرسول ، ام وآية تحمل حكماً ، ونسخ الآية الأولى وإنساءها هو نسخ الآيات المعجزات البصرية ، حيث نسخت بآية القرآن بصيرةً خالدة تمشي مع الزمن ، والقرآن الآية خير من كلّ آيات الرسالات صورة ومادةً ومدةً ، نسخت تلكم الآيات وأنْسَتْها ، وكما نجد القرآن في عشرات من آياته يتحدى الناكرين بنفسه ، ويجعله كافية عن سائر الآيات الرسالية : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم . . » !

---

(١) كما في الدر المنثور ١ : ١٠٥ - اخرج جماعة عن ابي موسى الاشعري قال : كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأُنسيتها غيراني حفظت منها و لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوفه الا التراب ، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات اولها : سبح لله ما في السماوات ، فأنسيناها غير اني حفظت منها : ﴿ يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة ﴾ وفي نقل آخر عن ابي موسى نفسه : قال : نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدة ثم رفعت وحفظت منها : ان الله سيؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم ، وفيه عن ابي واقد الليثي قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا اوحي اليه أتيناه فعلمنا ما اوحي اليه ، قال : فجئته ذات يوم فقال : ان الله يقول : انا انزلنا المال لإقام الصلاة و إيتاء الزكوة ولو ان لابن آدم وادياً لأحب أن يكون له الثاني ولو كان له الثاني لاحب ان يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب . ولقد نسب اليه فيما يروى عن بريدة انه قرء هذه الجملات في صلاته كأنها آيات ؟!

اقول : وحتى الطفولة في معرفة القرآن تضحك على هذه العبارات ، فاين هي في الفاظها ومعانيها من القرآن . ان هي الا اسرائيليات تعني للقرآن ما عُني لكتاباتهم المحرفة !

كما وأن الآية الرسولية محمد (ص) نسخت الرسل السابقين أو أنستهم، لأنه جمع كلَّ فضائل الرسل والرسالات وزيادات ، لحدٍّ هم يُعتبرون تقدمات لمجيء هذا الرسول (ص) ، كما يُعتبر وحيهم الرسالي بجنب وحيه وصيةً .

ثم الآيات الأحكامية الناسخة في القرآن ـ وهي قلة قليلة ـ قد اتى الله بها خيراً من المنسوخة او مثلها في الأثر الصالح للامة الأخيرة ، وقد يجري ذلك في آيات الإمامة إلاّ في الإنساء فانهم معروفون على مدار الزمن ، وقد يصدق « بخير منها » في صاحب الأمر ، كـ « مثلها » في سائر الائمة خلفاً لسلف[1] .

ثم الآيات الرسالية قبل القرآن ، هي كذلك ، لا تأتي آيةٌ لاحقة منها إلاّ ناسخةً للسابقة او مُنسِيَةً ، وهي خير منها او مثلها ، والقصد من الآية الرسالية تثبيت الرسالة ، كلٌّ حسب المقتضيات والمصالح التي قد لا يعلمها إلاّ الله ، فليست الآية الرسالية ـ وكما الرسولية ـ لتُحصرَ في واحدة ، وتُحسر عن سواها ، بل هي محلِّقة على كل ما هو الأصلح للرسل والمرسل إليهم ، دلالة قاطعة على رسالاتهم .

وهنا مقابلة « ننسخ » بـ « ننسها » تجعل النسخ إزالة الحكم مهما بقي في العلم ، وتجعل الإنساء إزالة عن العلم كما أزيل حكمه ، ومهما عمت « من آية » مثلث الآيات ، فلا تعمها « او نُنسها » فقد تُنسى آية رسالية أم رسولية بين أمة لاحقة ، ولكن لا تُنسى آية حكمية عن خاطر رسول ، حكماً له او لمن

---

(1) نور الثقلين ١ : ١١٥ عن اصول الكافي علي بن محمد عن اسحق بن محمد عن شاهديه بن عبدالله الجلاب قال : كتب إلي ابو الحسن (عليه السلام) في كتاب : اردت ان تسأل عن خلف بعد ابي جعفر وقلقت لذلك فلا تغتم فان الله عز وجل لا يضل قوماً بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ، ما يتقون ، وصاحبكم بعدي ابو محمد ابني وعنده ما تحتاجون اليه يقدم ما يشاء الله ويؤخر ما يشاء « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها » . قد كتبت بما فيه بيان وقناع لذي عقل يقظان .

قبله ، ولا سيما محمد (ص) حيث « سنقرئك فلا تنسى » .

إن مشكلة النسخ كانت مشكلة كتابية اسرائيلية ، إحالة له أحياناً ، ونكراناً له أخرى ، سواء أكان نسخاً لآية رسالية « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتىٰ مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته . . » (٦ : ١٢٤) .

ام آية رسولية كالرسالة الإسماعيلية الناسخة للرسالات الإسرائيلية ، فرغم البشارات المحمدية في كتبهم أنكروه لمّا جاءهم لانه ليس إسرائيلياً .

ام آية او آيات أحكاميه ، كما القرآن بالنسبة لما بين يديه ، والإنجيل بالنسبة للتوراة في أحكام ، و لا يعني النسخ الأحكامى ـ وكما النسخ الرسالي والرسولي ـ تجهيلاً لساحة الرب أنه عَلِم بعد جَهل ، إنما الناسخ بيان لأمد المنسوخ ، كما الآيات المنسوخة القرآنية تلمح بنفسها أنها لأمد سوف يبيَّن [1] فالحكم المنسوخ ان كان محدداً بحد معلوم أم غير معلوم ، كان الناسخ بياناً للمجهول في غير المعلوم حدّه ، وتوضيحاً للمعلوم والحكم الآتي بعده .

وإن لم يكن محدّداً بحدّ فهو مطلق فيه ، كان الناسخ كتقييد لإطلاقه وقتياً ، إذاً فلا نسخ في الشرعة ـ في نفسها او لشرعة اخرى ـ بمعنى التعارض ، بل هو ـ ككلٍّ ـ بيان لإنتهاء حكم سابق وابتداء حكم لاحق .

وفي « نأت بخير منها او مثلها » برهان قاطع لا مرد له أن الآية الثانية ـ أيّاً كانت ـ لا تقل عن الأولى ، بل وقد تزيد ، آية رسولية ام رسالية أم أحكامية ، فلا يصح القول بتقديم الأقدم من أولى العزم وتفضيله على لاحقة ، فإمّا هما

(١) فمثل قوله تعالى : ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلاً ﴾ والسبيل هنا هي التي تحملها آية النور : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ .

على سواء ، ام اللاحق خير من سابقه كما يصدق تماماً في خاتم النبيين (ص) .

و « الله اعلم حيث يجعل رسالته » تعم مثلث الرسالة وحيثها وحيثيتها مادة ومدة ، عِدَّة وعُدَّة .

« الم تعلم أن الله على كلِّ شيءٍ قدير » ومنه مثلث الآيات رسالية ورسولية وأحكامية :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلانَصِيرٌ ﴾[١٠٧] .

« الم تعلم » فيهما لا تخص بخطاب الرسول (ص) اللهم إلا من باب إياك أعني واسمعي يا جاره ، بل هو كلُّ من يأهل لذلك الخطاب العتاب ، المعترض على نسخ آية أو إنسائها ، او المتلبِّك فيه .

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرِ بِالإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ ﴾[١٠٨] .

هذه تؤيد أن « من آية » في آية النسخ تعني ـ كأصل ـ آيتي الرسالية والرسولية ، إذ كانوا يستبعدون نسخها إلى شاكلة أخرى غير السابقة المتعَوَّد عليها في الرسالات ، كما و « أم » اضراب عما سبق من تساءُلٍ جوابُه آية النسخ ، إذ تعنتوا متاقلين متسائلين في هذه الآية الرسالية والرسولية .

و « كما سئل موسى من قبل » هو مثل سؤال الرؤية : « يسئلك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة . . » (٤ : ١٥٣) : « وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . » وكما برزت هذه الإرادة السيئة في أسوِلة جاهلة قاحلة من المشركين :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً » (١٧ : ٩٢) [١] .

ولان « ام تريدون » تشمل أهل الكتاب والمشركين ، فالسؤال ـ إذاً ـ يعمهما كما الأول للأولين والآخر للآخرين [٢] .

ولقد آل أمر التسائل التجاهل لحد سألوا الرسول (ص) ان يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات انواط ، وهي شجرة كان المشركون يعبدونها ويعلقون عليها التمر ، وكما سأل بنو اسرائيل موسى : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » كما وتطلّبوا منه (ص) ألّا يكسر اللّات-مهما كسر سائر الاصنام ـ حتى يؤمنوا ! .

وترى الخطاب في «ام تريدون » تشمل ـ فيما شملت ـ المسلمين ؟ اللهم نعم ، قضيةَ الإطلاق،ولكنه ـ فقط ـ لحد إرادة السؤال دون واقعه ، ثم اللّهم لا ، في واقع السؤال ، حيث الايمان لا يلائم هكذا سؤال ، اللهم إلّا من المنافقين ، وكما في أضرابهم من الكتابيين .

« ومن يتبدَّل الكفر » يقبل الكفر بدلاً « بالايمان » في مسرح التبادل بين الكفر والايمان « فقد ضل سواء السبيل » تجارة خاسرة ، حاسرة عن أية عائدة .

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٠٧ عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرءُه او فجر لنا انهاراً نتبعك ونصدقك فأنزل الله في ذلك ﴿ ام تريدون . . ﴾ .

(٢) تفسير البرهان ١ : ١٤١ قال الامام العسكري (عليه السلام) قال علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) « ام تريدون » بل تريدون يا كفار قريش واليهود « ان تسألوا رسولكم » ما تقترحونه من الآيات التي لا تعلمون فيه صلاحكم او فسادكم « كما سئل موسى من قبل » واقترح عليه لما قيل له « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . . » .

هؤلاء يتبدلون الكفر بالايمان لأنفسهم ويودون آملين نفسَ القصة للمؤمنين :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ١٠٩ .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً » « ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » .

إعلان صارخ عن كيد لئيم يكيده كثيرٌ من اهل الكتاب جموعَ المؤمنين « لو يردونكم . . » تمنياً باطلاً قاحلاً في وُدّهم المضلِّل « يردونكم كفاراً » ولماذا ؟ « حسداً من عند انفسهم » لا جهلاً بحقكم ، فإنما مجال الحسد منقبة لا ينالها الحاسد ام لا يريد نيلها ولكنه يراها منقبة ، وذلك « من بعد ما تبين لهم الحق » و « هم » يعمهم وأهل الحق ، ويا للعجب أن هؤلاء الحماقى في الطغاة يودون لو يردونهم كفاراً ، والحق مبين لهم وللمؤمنين ، فقد « جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » ويودون أن يتحول المؤمنون أمثالَهم ، شيطنة مدروسة مدسوسة بين قبيل المُؤمنين من هؤلاء الشياطين ، فما دائُهم ـ إذاً ـ وما دوائُهم ؟ فهل يحاربهم قبيل الايمان ، ذوداً عن أنفس مؤمنة بسيطة سريعة التأثر بالدعايات المضادة ؟ ام عفواً وصفحاً في العجالة حتى يأتي الله بأمره ـ ؟ ! ـ :

« فاعفوا و اصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير » وكيف يعفى عن تلكم الدعاية المضللة الخطرة ، أم كيف يصفح عن الساعين في الأرض فساداً ؟ ونفس العفو والصفح دليل حاضر القوة الدافعة والمحاربة ! .

إنه ليس العفو عنهم والصفح إلاّ مصلحة وقتية « حتى يأتي الله بامره » فهو

مطلق العفو المحدَّد باتيان أمره وليس العفو المطلق مهما بلغ أمر الكيد والإفساد منهم .

ولقد دافع الله عنهم سوء هذه الدعاية اللئيمة والشكيمة - فيما دافع [1] - بما أخبر رسوله والمؤمنين بكيدهم هذا ، فلا تجب قتالهم كدفاع عن إفساد العقيدة ، فانما أمِر بالعفو والصفح لمصلحة ربانية ، علّ منها أن يعلم اهل الكتاب بفضحهم في كيدهم ، والمسلمون على قوتهم وعلمهم بذلك الكيد اللعين أمروا بالعفو والصفح ، علّهم يحيدون عما يكيدون آئبين الى ربهم ، ثم بعد ردح يومر بقتالهم حيث الإياس عن نُبهتهم : و« حتى يأتي الله بامره » منه امر السياسة الصالحة وجاههم حين لم يرتدعوا ولم يرعووا ، ومن أمره الآتي : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدنيون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٩ : ٢٩) .

وهنا الأمر بعد حدّه الزمني محدَّد بسلوب أربعة ، انتهاءً إلى استسلامهم « حتى يعطوا الجزية و هم صاغرون » دفعاً للجزية بعد انتهاء شرهم .

كما ومن أمره أمر هدايته لمن اهتدى بعد ضلال ، وارتدع بعد دلال ، فـ

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣ : ٢٣٦ روي ان فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا الحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : ألم تروا ما اصابكم ، ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وافضل ونحن أهدى منكم سبيلاً ، فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا : شديد ، قال : فإني عاهدت أني لا اكفر بمحمد ما عشت ، فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ ، وقال حذيفة : واما انا فقد رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين اخواناً ، ثم اتيا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واخبراه فقال أصبحتما خيراً وأفلحتما ، فنزلت هذه الآية .

« أمره » يعم التكوين والتشريع ، اللذين لم يكونا حاضرين حالاً فيحضران استقبالاً .

ويا لمقابلة أسوء السوء بالحسن لعلّهم يرتدعون ام يهتدون ، وليعلموا ان الله يردع المؤمنين عن قتالهم وهم أقوياء أمام هؤلاء الضعفاء الأغوياء ، الذين جمعوا كل شر وضرٍّ في ذوات أنفسهم :

« ودّ . . لو يردونكم . . حسداً . . من بعد ما تبين لهم الحق . . » ! والحسد هو ذلك الإنفعال الأسوء الأسود الرديء الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الأمة المسلمة وما زالت تفيض ، منبعثة منه كل دسائسهم وتدابيرهم اللئيمة في كل دوائر السوء ضد الأمة المرحومة ، وقد كشف القرآن لنا منها لنعرفه فنحذرهم ، وقد يروى عن النبي (ص) قوله : « إن لنعم الله أعداء ، قيل وما اولئك ؟ قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » [١] .

وهنا ـ في الوقت الذي تتجلى للمؤمنين هذه الشكيمة اليهودية ـ يدعو القرآن أتباعه إلى الإرتفاع عن المقابلة بالمثل ، توجهاً الى الصفح والعفو « حتى يأتي الله بأمره » آمراً لهم بالمضي في طريقتهم المختارة :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكٰوٰةَ وَما تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ١١٠ .

فلا يزعزعهم ذلك الخطر الحادق عن ركني الايمان عملياً : إقام الصلاة وايتاء الزكٰوة ، وبصورة عامة تقديم كل خير عقائدي وعملي لهذه الأنفس الطيبة المطمئنة بالله ، الناظرة لأمر الله : « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند

(١) تفسير الفخر الرازي ٣ : ٢٣٧ .

الله » إذ يبقى ولا يفنى ، لا أصوات الأقوال ولا صور الأعمال ولا سِيَر النيات والأحوال « ان الله بما تعملون بصير » لا يخفى عليه خافية .

فلا تعني « تجدوه » ـ فقط ـ وجدان الثواب ، بل وحضور نفس الأعمال الخيرة « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء . . » .

ثم إن في إقام اصلاة بشروطها صلة وثيقة بينهم وبين ربهم ، كما في ايتاء الزكوٰة مادياً وروحياً وثيق الصلة بينهم أنفسهم ، فلا يبقى فيهم مَنفَذ من تشكيكات العدو وعرقلاته كما ان « من خير » تحلّق على الصلتين في كافة الخيرات المأمور بها في شرعة الحق ، وفي تطبيقها ضمان اللاّنفوذية من الكتلة المضللة .

ومن قيلات اهل الكتابين ، الغيلات الويلات ، التي طمأنتهم كما يزعمون فلا يحيدون عن أية خاطئة :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١١١] .

وإذا انحصرت الجنة فيها ـ كما يدعيها كل لنفسه ـ فانحسرت عمن سواهم طول تاريخ الرسالات،فاين ـ إذاً ـ مؤمنوا الشرائع السابقة على شرعة التوراة والإنجيل ؟ أفهم في النار على إيمانهم ! أم لافي جنة ولا نار !.

فيا للمحقد من طيش قاحل وحكم جاهل أن « لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً » كما يدعيه اليهود و « لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصارى » كما تدعيه النصارى ، فلكي يطردوا المسلمين ـ ككل ـ عن الجنة لأنهم على شرعة جديدة يطردون معهم كافة المؤمنين في كل أدوار الرسالات قبل موسى والمسيح عليهما السلام .

« تلك أمانيهم » كلُّ امانيهم ، على ما هم عليه من تخلفات عقائدية وعملية ، فمجرد الجنسية اليهودية او النصرانية تكفي لدخول الجنة فوضى جزاف ! ولكن الإيمان والعمل الصالح في غيرهما لا يكفيان لدخولها ! « قل هاتوا برهانكم » فطرياً ام عقلياً ام كتابياً ، ام في ايٍّ من الأعراف البشرية السلمية « إن كنتم صادقين » في أمانيكم .

وترى كيف تكون « تلك أمانيهم » جمعاً فضلاً عن كل أمانيهم ؟ ولم تأت هنا إلاّ واحدة « لن يدخل الجنة » !

لقد ذُكرت هنا أماني عدة هذه أخيرتها ، ثم وهي تجمع كل أمانيهم الساقطة فانها كخلفيَّة شاملة لها كلها .

أترى القرآن هنا يعارض دعواهم بالمثل ، معاكساً تلك القولة الخاوية أن « لن يدخل الجنة إلاّ من كان مسلماً » كجنسية اسلامية تكفيها النسبة كيفما كانت ؟ كلاّ ! وإنما :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾١١٢ .

« بلى » هنا تزييف لـ « لن يدخل » - « بلى » يدخلها غير الهود والنصارى ، وكضابطة عامة رافضة لحواجز الجنسيات والطائفيات « بلى من اسلم . . » .

فانما هو إسلام الوجه لله بكل الوجوه ظاهرة وباطنة ، عقائدية وعملية ، فردية وجماعية ، « أسلم . . وهو محسن » إسلام الإحسان وإحسان الإسلام وهما الإسلام عقائدياً وعملياً ، « فله اجره عند ربه » على قدر اسلام وجهه واحسانه ما هو مسلم محسن « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فقد يسلم مسلم وجهه لله في وجهيه وهو غير محسن ، كالعقيدة غير

الصالحة والعمل غير الصالح ، ام يحسن في وجه واحد ، عقيدة او عملاً ولا يحسن في الآخر ، فهو ايضاً غير محسن ، إذاً « وهو محسن » يعم احسان وجهي الباطن والظاهر لله دون اختصاص بوجه ، ام ترك الاحسان في إسلام الوجه .

فلا بد ـ إذاً ـ من إحسان وجه العلم والعقيدة والنية وسائر الطوية ، إلى احسان وجه الأعمال ، المنبثقة من الوجه الأول .

« بلى » هذا هو كفيل الجنة ، دون أية جنسية او طائفية او عنصرية أو إقليمية في ذلك الإسلام ، فانما الإسلام المحسن لا سواه ، سواء أكان إسلاماً في شرعة نوح وإبراهيم ، أم موسى وعيسى ، ام محمد صلوات الله عليهم اجمعين ، بل وإسلام التوحيد المزيج ، أم وغير الكتابي ما دام صاحبه مسلماً وكما يقول الله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٦٢) وهم كلهم موحدون ، بين مسلم وهود ونصارى ـ وهم كتابيون ـ أم عوان وهم الصابئون ، ام وموحد غير كتابي كالمجوس : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . . » (٢٢ : ١٧) فيما لم يدخل فيهم « الذين اشركوا » كان « لهم اجرهم عند ربهم » ثم إذ دخلوا فيهم « إن الله يفصل بينهم » !.

اجل « ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين » (٣ : ١١٥) « بلى » انما هي حكمة واحدة ثم « لا وكلا » ! « بلى من أسلم وجهه لله » لا للأمنيات والهوسات الجهنمية ، إنما « لله » ، ثم « وهو محسن » في أسلام وجهه ، يسلمه لله كما أمر الله ، مهما كان

قاصراً دون تعمد ولا بطّال أو متبتل في شرعة الله « فله أجره عند ربه » حيث إن إسلام الوجه لله محسناً هـو العروة الـوثقى ، مصدراً لكـل خيرات الإيمـان مهما اختلفت مـراتبها بمـراتبه حسب مختلف الحـالات والإستعدادات : « ومَن احسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً . .» (٤ :١٢٥) .

فـالمسلم الذي يسلم وجهـه لله محسناً ، لـه اجره عنـد ربه ، والكتـابي الذي يسلم وجهه لله محسناً له أجره عند ربه ، فـ « ليس بأمانيكم ولا أماني اهل الكتـاب من يعمـل سـوءً يُجْزَبـه ولا يجد لـه من دون الله ولياً ولا نصيـراً » (٤ : ١٢٣) .

اجل وانها ضابطة ضابطة كلَّ التخلفات والطاعات دونما فـوضى جزاف ، ضابطة في طرفي السلب والايجاب : « بـلى من كسب سيئة و أحاطت بـه خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

هـذا الحبيس بخطيئته المحيطة بـه ، فهو أعـزل عن كـل وجهـة وواجهـة ربانية ، إلاّ وجهات الهوى الهـاوية ، ثم « بـلى من أسـلم وجهه لله وهـو محسن » فأخلص ذاته وكـل تعلقاتـه في وجهاتـه وواجهاتـه لله « وهو محسن » في إسـلامه « فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ثم بينهما عوان متـوسطات ولا يظلمون نقيراً .

هذا ـ ثم نرى بين اليهود والنصـارى أنفسهم تناحـراً في الكيان وتهـافتاً في سند الأمان :

﴿ وَقـالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَتِ النَّصـارى عَلَى شَيْءٍ وَقـالَتِ النَّصـارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتـابَ كَذلِـكَ قَالَ الَّـذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْـلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ١١٣ .

تلك هي قالة كلٌ من أهل الكتابين مناحراً لواقع الحق في البين «ليست اليهود على شيء» من الحق ولا حق من الجنة ، كما «ليست النصارى على شيء» من الحق ولا حق من الجنة [1] «وهم يتلون الكتاب» توراةً وانجيلاً ، القائلان قول الحق ، وأنه الايمان والعمل الصالح ، دون طائفية قاحلة وعنصرية جاهلة «كذلك» البعيد عن ميزان الحق «قال الذين لا يعلمون» وهم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني وإن هم إلّا يظنون ، والمشركون الناكرون لكتاب الوحي قالوا «مثل قولهم» رغم الفرق الفارق بين حكم الكتاب واللّاكتاب ، فهم نزّلوا أنفسهم منزلة الذين لا يعلمون ، تجاهلاً بحق الكتاب لأهل الكتاب ، أن ليسوا سواءً مع من لا يدين بكتاب «فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» أياً كان مما حكم به الكتاب وحياً أم حرفوه عن جهات أشراعه .

فحين يتقاذف اهل الكتاب فيما بينهم ـ وهم يتلون الكتاب ـ كيف يرجى من الذين لا يعلمون ألّا يقذفوهم أنهم ـ ككل ـ ليسوا على شيء ؟ وقد قذفوا كل أهل الكتاب ـ بمن فيهم المسلمون ـ انهم ليسوا على شيء !.

فليوحد اهل الكتاب كلمتهم على حق لهم أم حقايق ، كيلا يرفضهم المشركون بما يتقاذفون فهم سواءً : «قل يا اهل اكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (٣ : ٦٤) ـ «يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٤ : ٧ روي ان وفد نجران لما قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت اصواتهم فقالت اليهود : ما انتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى (عليه السلام) والإنجيل ، وقالت النصارى لهم نحوه وكفروا بموسى والتوراة .

كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين . ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥ : ٦٩) .

ولندرس هنا نحن المسلمين ـ وبأحرى من غيرنا ـ ألاّ ننجرف في منجرفات الخلافات العارمة بين الفرق الإسلامية ، فكلٌ يرمي أصحابه في الشرعة الواحدة أنهم ليسوا على شيء ، ولقد سمعت مغفلاً من اخواننا في المدينة المنورة ، يُسمى عميد الجامعة الإسلامية فيها يقول : ان الشيعة الرفضة شر من اليهود ، كما سمعت مغفلاً آخر منّا في مكان آخر يقول : إن الفلسطينيين شرٌ من اليهود ! « وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » ؟ !

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١١٤ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نرى « من أظلم » ـ الدالة على قمة الظلم ـ هنا وفي ثلاث صيغ اخرى : « ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » (٢ : ١٤٠) ـ « . . ممن افترى على الله كذباً » (٦ : ٢١) ـ « . . ممن كذب بآيات الله وصدف عنها » (٦ : ١٥٧) مما يدل على أن هذه الأربع أظلم الظلم على النفس والحق وعلى الآخرين ، وعلّها خاصة بالمظالم العملية لا والعقائدية .

وليس يختص بالذين منعوا الرسول (ص) عن المسجد الحرام ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ـ لمكان الجمع ـ مهما كان أصدق مصاديقه ممنوعاً وهو الرسول وممنوعاً عنه وهو المسجد الحرام ، وممنوعاً منه وهو ذكر الله فيه [1] .

---

(١) وبمناسبة الآيات السابقة المندّدة باليهود قد تعم اليهود ، فقد كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة الى =

« ان يذكر فيها اسمه ـ وسعى في خرابها » هما يحدّدان أظلم المنع ، الناحيان منحى الصد عن سبيل الله ، وأن يُترك ذكر اسم الله ، وهم ـ بطبيعة الحال ـ المشركون والملحدون امّن نحى منحاهم في منعهم وسعيهم .

مساجد الله هي المختصة بذكر اسم الله فكيف يمنع ان يذكر فيها اسم الله ؟ وانما تعمر بذكر اسم الله والدعوة فيها الى الله فكيف يُسعى في خرابها في حقل الذكر ؟ ولا يسعى في خرابها إلّا المكذبون بالله وآياته .

فكم من ساع لعمران مساجد الله في بنيانها وهو ساع في خرابها من حيث أنها مساجد الله ، ويمنع ان يذكر فيها اسم الله ، ولا فارق بينه وبين من يهدم بنيانها ، حيث المعني من خرابها تهديمها من حيث انها مساجد الله ومحال ذكر اسم الله .

« اولئك » البعيدون عن الله « ما كان لهم أن يدخلوها إلّا خائفين » حين كانوا أذلّاء صِغاراً ، كما « ما كان لهم ان يدخلوها إلّا خائفين » حين كانوا أعزة وكباراً ، فان شرعة الحق لا تسمح لهم أن يدخلوها ، وعلى اهل الحق ألّا يسمحوا لهم أن يدخلوها ، إذاً فـ « ما كان » نهي عن ان يدخلوها على أية حال ، وقد صرح المنع بالنسبة للمشركين: « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . . » .

« لهم في الدنيا خزي » في شرعة الحق وميزانه ، ومنه عدم السماح لدخولهم فيها « ولهم في الآخرة عذاب عظيم » لا أعظم منه إذ لا أظلم منهم ، وانما يقدر العذاب بقدر الظلم .

= المسجد الحرام بعد تحويل القبلة ، ام وسعوا في تهديم الكعبة وما استطاعوا .
كما وتعم هدم البيت المقدس بواسطة بخت النصر وسواه من الطغاة ، ام اي منع من اي مسجد او مسجَد او سجدة وتهديم اي منها طول زمن التكليف على مدار الرسالات الإلٰهية .

وتعني « مساجد الله » اضافة الى محال السجدة : المساجد ـ نفسَ السجدة وأزمنتها ، اعتباراً ان « مساجد » جمع لمثلث المسجَد والمسجِد ، اسم مكان وزمان ومصدراًميميًا ، إذاً فهو المنع عن عبادة الله في أصلها وفي ازمنتها وأمكنتها ، مهما اختصت « ان يدخلوها » بأمكنتها .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾١١٥ .

لقد تُطَمئِن هذه الآية المؤمنين أنهم إن مُنعوا عن مساجد الله ، فكل الأرض مساجد لله ، و « المشرق والمغرب » بما هما الجهتان الأصيلتان تشملان كل الجهات « فاينما تولوا » وجوهكم الى الله في مساجد وسواها « فثم وجه الله » إذ لا يختص وجهه بالمساجد مهما كانت أفضل من سائر بقاع الأرض ، ولا يعني وجه الله هنا إلا المتوجَّه اليه في العبادة والدعاء ، والوجه ـ ككل ـ هو ما يواجِه الشيءَ او يواجَه به ، وكل الكائنات مواجهةٌ ربَّهم بكلِّ الوجهات والوجوه التكوينية ، وهو مواجَه لهم فيها ، وكذلك التشريعية لمن هو متشرع بشرعة من الله .

فليست الآية لتعني ان القبلة الخاصة ساقطة عن وجوب الإستقبال اليها في الصلوات ، بل هي ـ بمناسبة آية المنع عن المساجد ـ توسعةٌ في أمكنة السجدة لله وقد يشهد له « أينما » دون « إلى اين » وليس فرض القبلة تضييقاً لدائرة وجه الله ، إنما هو مصلحة جماعية وَحْدويَّة للجماعة المسلمة ان يوجهوا وجوههم إليها لوجه الله الذي ليس له زمان ولا مكان ، فكما أن الوجهة المعرفية والعقائدية ثم العملية للمسلمين واحدة ، فلتكن قبلتهم في صلاتهم ـ كذلك ـ واحدة ، كشعيرة ظاهرة من مشاعر الوحدة ، أم إن تولي الوجه إلى الله يعم الصلاة وسواها من وجوه الإتجاه الى الله ، وشرط القبلة خاص بالصلوات بدليل

خاص ، وهنا ايضاً يسقط شرطها عند الضرورة ، فهي ـ إذاً ـ ضابطة عامة لكل الإتجاهات الى الله صلاةً واحدة وصِلات واحدة فـ « اينما تولـوا فثم وجه الله » في مساجد الله وسواها ، الى القبلة وسواها ، مهما كانت القبلة شرطاً مصلحياً في قسم من الاتجـاهات الى الله « ان الله واسـع » الاتجاهـات « عليم » بالمضـايقات والضرورات التي تمنعكم عن مساجده ، ام عن القبلة .

فاذا صلى لغير القبلة اذ لا يعرفها ولا يسطع ، ثم تبين له أنـه صلاهـا الى غير القبلة أعادهـا ما لم يفت الـوقت وكانت القبلة خلفـه ولا يعيدهـا إذا فات او كانت بين المشرق والمغرب [1] .

(١) تدل عليه صحيحة عبدالرحمن بن ابي عبدالله عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : اذا صليت وانت على غير القبلة واستبان لك انك صليت وانت على غير القبلة وانت في وقت فاعد وان فاتك الوقت فلا تعـد ، اقول : وقـد خصص ذلك بمـا كانت القبلة عـلى ظهره في صحـاح عدة . وفي التهذيب عن محمد بن الحصين قال كتبت الى عبد صالح : الرجـل يصلي في غيم في فلات من الارض ولا يعرف القبلة فيصلي حتى فرغ من صلاته بدت له الشمس فإذا هو صلى لغير القبلة يعتد بصلاته ام يعيدها ؟ فكتب يعيد ما لم يفت الوقت او لم يعلم ان الله يقول ـ وقوله الحق ـ فاينما تولوا انتم وجه الله ، وفي تفسير العياشي عن الباقر (عليه السلام) في الآية قال (عليه السلام) انزل الله هذه الآية في التطوع خاصة فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم، وصلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ايماناً على راحلته اينما توجهت به حين خرج الى الخيبر وحين رجع من مكة وجعل الكعبة خلف ظهره .

اقول : هذا الاطلاق يناسب التطوع كاصل كسائر الاتجاهات غير الواجب فيها الاستقبال الى القبلة وكما يناسب الفرض عند الضرورات ، وهو على آية خاص مخصوص بغير فرض الصلاة ، ام مطلق على الوجة الاول في « اينما تولوا . . . » .

وفي الدر المنثور ١ : ١٠٩ ـ اخرج البخاري والبيهقي عن جابر بن عبـدالله قال رأيت رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنمار يصلي على راحلته متوجهاً قبل المشرق تطوعـاً ، وعنه ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يصلي على راحلته قبل المشرق فإذا اراد ان يصـلي المكتوبـة نزل واستقبل القبلة وصلى .

وعلى أية حال فالآية ضابطة تعم الكون كله لأمكنة الصلاة ، واتجاه المصلي فيها ، مهما خصت في خاصة الموارد بنص الكتاب او السنة ، وهي ما امكن الإتجاه فيه الى القبلة حيث الأمر بتولي الوجوه شطر المسجد الحرام في آيته يخص المتمكن ، ثم تعم غيره « اينما تولوا . . » .

وقد تكون صلتها بالآية السابقة ان اليهود كانوا يعترضون على الرسول (ص) والمسلمين هامَّةَ تحويل القبلة من القدس الى المسجد الحرام ، وان صلاتهم ـ إذاً ـ باطلة إذ لا يتجه إليهم ربهم إلاّ الى القبلة التي كانوا عليها ، فرد الله عليهم بما رد ، ان له تحويل القبلة « فاينما تولوا فثم وجه الله »[1] وطبعاً كما يأمر الله .

ـ وفيه عن عامر بن ربيعة قال كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الاحجار فيعمل مسجداً فيصلي فيه فلما اصبحنا اذا نحن قد صلينا على غير القبلة فقلنا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله ﴿ ولله المشرق والمغرب . . ﴾ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) مضت صلاتكم ، وفيه اخرج الدارقطني وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبدالله قال بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سرية كنت فيها فاصابتنا ظلمة لم نعرف القبلة فقالت طائفة منا القبلة هٰهنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطاً وقال بعضنا القبلة هٰهنا قبل الجنوب فصلوا وخطوا خطاً فلما اصبحوا وطلعت الشمس اصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسكت فأنزل الله : ولله المشرق والمغرب .

اقول : وقد استفاض الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وائمة اهل بيته (عليهم السلام) ان « بين المشرق والمغرب قبلة » وطبعاً هذه التوسعة لمن لا يعرف القبلة ولا يستطيع ان يصلي مرات الى جهات ، او تأكد من القبلة وهو خاطىء وقد خرج الوقت .

(١) نور الثقلين ١ : ١١٨ في الاحتجاج للطبرسي قال ابو محمد (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقوم من اليهود : او ليس قد ألزمكم في الشتاء ان تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة والزمكم به في الصيف ان تحترزوا من الحر فبدا له في الصيف حين امركم بخلاف ما امركم ـ

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ
أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ
تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ
تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ
تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ ﴾١١٦ .

« وقالوا » كل مَن قالوا من مختلف صنوف المشركين واليهود والنصارى « اتخذ الله ولداً » وظاهر الإتخاذ هنا هو التبنّي و « سبحانه » أن يتبنّى ولماذا ؟ ألكي يكون أزراً له ومعيناً ؟ ولا يحتاج الى أزر ولا معين ! « بل له ما في السماوات والأرض » مِلكية حقيقية ، فماذا يفيده إتخاذ ولد ؟ ثم و « كلّ له قانتون » : مطيعون لسلطته التكوينية وخاضعون ، فما هو دور اتخاذ الولد-لو أمكن-لربنا ؟ وهو مستحيل في نفس الذات !.

﴿ بَدِيعُ السَّماواتِ والأَرْضِ وَإذا قَضى أَمْراً فَإنَّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾١١٧ .

الخلق البديع هو ما ليس له مثال يُحتذى ، فكما المادة الأولية لا مثال لها قبلها ، كذلك ولائدها المتطورة من سموات وأرض ، فإنها خلقت من غير مثال ، والولد - متّخذاً او حقيقياً - له مثال على أية حال ، فالوالد بأجزاءه الروحية والبدنية مثال للولد المنفصل عنه،فليس بديعاً منه و « ان الله عز وجل إبتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله فابتدع السموات والأرض ولم يكن قبلهن سماوات ولا ارضون .. »[1] .

= به في الشتاء ؟ فقالوا : لا فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فكذالكم الله تعبدكم في وقت بصلاح يعلمه بشيء ثم تعبدكم في وقت آخر لصلاح آخر يعلمه في شيء آخر فاذا اطعتم الله في الحالتين استحققتم ثوابه فانزل الله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب .. ﴾ يعني : اذا توجهتم بامره فثم الوجه الذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه .

(١) نور الثقلين ١ : ١١٩ في اصول الكافي بسند عن سدير الصيرفي قال : سمعت حمران بن اعين =

والمتبنيّ غير ولده يتبنّاه بمثال له من أولاد آخرين ، وهو في الحالتين بحاجة اليه فـ « له ما في السموات وما في الأرض » برهان اوّل على أنه تعالى « سبحانه » من اتخاذ الولد فضلاً عن أن يلد ، ثم « بديع السماوات والأرض » برهان ثان على أنه لم يلد ولن يلد ، وعلى هامشه استحالة اتخاذه ولداً .

« وإذا قضى امراً » فليس ليلده او يتخذه « فانما يقول له كن فيكون » وقوله فعله ! .

والقضاء هنا يعني ارادة التكوين « فإرادته للفعل إحداثه لا غير ذلك لانه لا يروّي ولا يهُم ولا يفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق ، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك ، يقول له كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيفٍ لذلك كما أنه لا كيف له »(١) .

فقضاء أمره في الخلق الاوّل خلقه لا من شيء ، ثم في سائر الخلق خلقه مما خلقه ، وفي كلا الخلقين ليس منه إلاّ الإرادة ، دون حاجة الى ما يحتاجه خلقه من محاولات ومساعدات .

ومن شؤون اتخاذ الولد لله سبحانه خرافة وحدة حقيقة الوجود ـ الإغريقية، التي نشبت في الفلسفة الإسلامية وترسبت فيها ، فإن الفلسفة الإسلامية ـ ومع الأسى ـ تأثرت بأصداء الفلسفة الإغريقية في أصول لها وهذه منها ، والبراهين العقلية ونصوص الكتاب والسنة معسكرة على أن الخلق غير الخالق فبانه ليس

= يسأل ابا جعفر (عليه السلام) عن قول الله : ﴿ بديع السماوات والارض .. ﴾ أما تسمع لقوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ .

(١) تفسير البرهان ١ : ١٤٦ عن الكافي عن صفوان بن يحيى قال قلت لابي عبدالله (عليه السلام) أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق ، فقال : الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو بعد ذلك من الفعل ، وأما من الله فإرادته .

كمثله شيءٌ ، باين عن خلقه وخلقه باين منه ، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه ، فليس الكون إشعاعاً ذاتياً من خالق الكون فانه ولادة وليس خلقاً بديعاً ، ولا هو صورة مرئية لكونه او تجلٍ منه ، فان هذه ولادة مهما اختلفت صورها ، تبدلاً للخالق ـ بكله او جزء منه او مرتبة من كيانه ـ الى المخلوق ، حيث الولادة ـ ككل ـ هي التبدل ـ ككل ـ سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[١١٨] .

فلقد كذب الله وشتمه من اتخذ له ولداً وكما يروي الرسول (ص) عن الله : « كذبني ابن آدم ولم ينبغِ له أن يكذبني وشتمني ولم ينبغِ له أن يشتمني ، أما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس اوّل الخلق بأهون علي من إعادته ، واما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »(١) .

« الذين لا يعلمون » علّهم هنا هم المشركون المنقطعون عن وحي السماء ، أم وكل المجاهيل في معرفة الله ووحيه ، فقالَتهم الأولى : « لولا يكلمنا الله » لو أنه يكلم بشراً كما يدعيه محمد والمرسلون قبله ، فلماذا هذه

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٠٩ ـ اخرج البخاري وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول الله : . . . وفيه عن ابي موسى الأشعري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً يشرك به وهو يرزقهم ويعافيهم .

وفي نور الثقلين ١ : ١١٩ في العلل باسناده الى سفيان بن عيينة عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : لم يخلق الله شجرة إلّا ولها ثمر تؤكل فلما قال الناس : اتخذ الله ولداً ـ ذهب نصف ثمرها ، فلما اتخذوا مع الله ولداً شاك الشجر .

التكلّفات بوساطات الوحي ، المعرقلة مسير الكثير ومصيرهم ، فلو أنه كلمنا دون وسيط لكنا مؤمنين[1] ، والثانية كتنزل التنازل عن الأولى : « او تأتينا آية » كما أرسل الأولون ، وما نقترحه عليه من آية ؟ .

« كذلك » البعيد البعيد « قال الذين من قبلهم » هؤلاء « الذين لا يعلمون » على مدار الزمن الرسالي « تشابهت قلوبهم » المقلوبة كلمة واحدة في القالة الأولى ، وطلباً لما يشتهون من آيات الرسالة في الثانية ، والجواب كلمة واحدة « قد بينا الآيات » الرسالية في كل أدوارها « لقوم يوقنون » بها فمن لا يوقن بآيات الله إذاجاءت ، لا تتبين له آية ، وحتى لو كلمه الله ، وكما كلم الله قائدهم الشيطان الرجيم بما كلم ، فرد عليه وأبلس عن أمره إلى هواه ! ·

وتراهم كيف يصدقون كلام الله لو أنه كلمهم الله ، وليس ليريهم ذاته ، ثم لا يتم الإختيار لو أن الله أوحى الى كلٍّ ما يوحي ! : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » .

فالذي يجد رياحة اليقين وراحته في قلبه ، مفتوحاً الى آياته بمنافذه ، يجد في آيات الله مصداق إيقانه وإيمانه ، فليست الآيات لتنشيء اليقين بأنفسها ، وإنما ينشيءُ في قلوب صافية ضافية ، مهما كانت الآيات بعيدة الدلالة في مقياس الآخرين .

ولقد أصبحت كفار اليهود والنصارى ، الناكرون لهذه الرسالة السامية ،

---

(١) المصدر ١١٠ عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا محمد ! ان كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه فانزل الله في ذلك « وقال الذين لا يعلمون . . . » قال : هم كفار العرب « لولا يكلمنا الله » قال : هلا يكلمنا الله « كذلك قال الذين من قبلهم » يعني اليهود والنصارى وغيرهم « تشابهت قلوبهم » يعني العرب واليهود والنصارى وغيرهم .

متشابهي القلوب مع الذين لا يعلمون ، بل وأنكر وأنكى وهم يتلون الكتاب ، عارفين طبيعة الوحي وشاكلته ، فإذا جاءهم الوحي القمة أنكروه قضيةَ العصبية القومية والعنصرية .

لقد تشابهت قلوب المشركين الذين لا يعلمون ، وأهل الكتاب الذين يعلمون ، إذ أصبحت مقلوبة عن الهدى ، مليئة بالهوى ، فابتليت بأمثال هذه الأسئلة الجاهلة .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾١١٩ .

« إنّا » بجمعية الصفات الربانية « أرسلناك » بجمعية العطيات جمعية الميْزات الرسالية « بشيراً ونذيراً » مزوداً ببينات الآيات ، فاذا حققت البشارة والنذارة كما حقّت «لا تسأل عن أصحاب الجحيم » الرافضين لآياتك ودعواتك الرسالية ، فلا تحزن عليهم لو لا يؤمنون ، ولا على نفسك لأنهم لا يؤمنون ، فلست أنت - كرسول بشير نذير - مسؤولاً عن أصحاب الجحيم ، لماذا لم يؤمنوا ؟ وإنما تسأل لو كنت مقصراً في دعوتك ، على تقصيرهم في قبولها والإقبال إليها ، وقد بلغت القمة في دعوتك ، ثم لا عليك أن يصبحوا من أصحاب الجحيم .

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾١٢٠ .

قد تلمح « لن ترضى » أن الرسول (ص) كان يدأب محاولاً ترضية اليهود والنصارى حتى يؤمنوا ، فأيسه الله أولاً بإحالة رضاهم إلّا أن يتحول إلى

ملتهم ، وثـانياً « لئن اتبعت . . » بتهـديد شـديد ، فليس الحق ليَقبـل أنصاف حلول ولا جعـل البلد بلدين ، او الشطر شـطرين ، فـ « قـل » لهؤلاء الحـماقى الأنكاد ، المحاولين لتحويلك إلى ملتهم « إن هدى الله هو الهدى » وليست هي الهوى ، فامض في صراط الحق ، وامش في دعوتك صارحة نـاصحة نـاصعة ، ولا تتحول عن هدى الله قيد شعرة ، وان وعدوك ـ إذاً ـ إتباعـك في ملة الحق ، فليس الباطل ـ أيًا كان ـ ليُتذرَّع به إلى الحق ، فإما حقاً وإما باطلاً ولا عوان في ملة الحق ! .

وكيف تتبع أهواءهم ليتبعـوك وهم عـارفـوك بمـا عـرَّفهم إيـاك في كتب السماء :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾١٢١ .

هناك باطلُ تلاوة الكتاب ، كالتي للأميين الـذين لا يعلمون الكتـاب إلاّ أماني وإن هم إلاّ يظنون ، والتي للمحرفين الكلم عن مواضعـه ونسوا حـظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع عـلى خائنـة منهم ، فهم لا يؤمنون بـالقرآن ونبيـه وهم يعلمون .

ثم الذين « يتلونه حق تـلاوة » كما أنـزله الله وقصـده ، ايمانـاً به خـالصاً دونما شائبة « اولّئك يؤمنون به » لا سواهم منهم « ومن يكفر بـه من الأحزاب » شركية وكتابيـة،فإن تلاوة كتـاب الوحي تحمـل على الإيمـان بالقـرآن من زاويتين اثنتـين ، زاوية الأنس بـالوحي فـوحي القـرآن آنس ، وأخـرى هي البشـارات القرآنية المحمدية في كتابات الوحي ، وفي كلٍّ منها كفاية للإيمان بهذه الـرسالـة السامية .

ولأن التلاوة ـ لاسيما المجـردة عن حروف جـارّة كما هنـا ـ هي المتابعـة ،

فهي هنا « يتبعونه حق اتباعه »(١) وما حقُّ اتباعه إلاّ بعد حق معرفته وتدبره إيماناًبه فـ « إنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه »(٢) والقصر هنا في « اولئك يؤمنون به » نسبي في الحقل الكتابي ، إذ يؤمن به من غير اهل الكتاب مَن يتحرون عن الحق .

ثم « آتيناهم الكتاب » كما تعني أهل الكتابين حيث يؤمنون بالقرآن على ضوء تلاوة كتبهم حق التلاوة ، كذلك تعني أهل القرآن حيث يَزيدهم حقُّ تلاوته إيماناً به .

كما « ومن يكفر به » تعم كفار اهل الكتاب والمشركين ، وكذلك كفار المسلمين وهم الذين لا يتلونه حق تلاوته « فاولئك » ككل « هم الخاسرون » إذ خسروا الحق وهم على نبعته .

﴿ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ١٢٢ وَاتَّقُوا يَوْماً لاتَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا

(١) الدر المنثور ١ : ١١١ ـ اخرج الخطيب في كتاب الرواة عن مالك عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : يتبعونه حق اتباعه .

(٢) تفسير بيان السعادة ١ : ١٤١ نسب الى الباقر (عليه السلام) انه قال : يتلون آياته ويتفقهون فيه ويعملون بأحكامه ويرجون وعده ويخافون وعيده ويعتبرون بقصصه ويأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه ، ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره ، ودرس أعشاره وأخماسه ، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده ، انما هو . . قال الله تعالى : كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته ، فالذين آتاهم الكتاب وشرفهم بذلك يحزنهم ترك الرعاية ، والقصور والتقصير في مراعاته ، والذين آتاهم الشيطان الكتاب أو أخذوه من الآباء بحسب ما اعتادوه او تلقفوه من الرجال بحسب ما تدارسوه فانهم يعجبهم حفظ الرواية ولا يبالون بترك الرعاية .

وفي ارشاد الديلمي عن الصادق (عليه السلام) مثله باختلاف يسير ، مثل « يرتلون » بدلاً عن « يتلون » وليس فيه ذيله من قال الله . .

تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾١٢٣ .

ذلك هو الهتاف الأخير ببني إسرائيل بعد طويل المجابهة في الحجاج على طول اللجاج ، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتدجيل والإدغال ، متورطين في التجرد النهائي عن شرف الأمانة العظمى بالنسبة للرسالة الأخيرة الكبرى .

يذكّرهم هنا مرة أخرى بـ « نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين » بشرف الرسالات والكتابات الإسرائيلية .

ثم يحذّرهم « يوماً لا تجزي » وتكفي « نفس عن نفس شيئاً » على الإطلاق في نفس او شيء سواها .

« ولا يقبل منها عدل » بديل « ولا شفاعة » ككفيل « ولا هم ينصرون » بعد هذا المثلث السليب بأيٍّ من الأساليب ، فلا كافي ولا عدل ولا شفاعة ولا نصرة ، إلا كفاية الإيمان ، وعَدلُ عمل الإيمان ، وشفاعة الصالحات إيماناً وعملاً ، ونصرة الله ـ إذاً ـ فيما يتبقّى من لمم وعصيانات .

وَاتَّقُواْ
يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ
إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا
بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ
قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ
ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ
مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً
مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ
إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ

فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ
مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾
قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ

فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم
الله وهو السميع العليم ﴿١٣٧﴾ صبغة الله ومن أحسن
من الله صبغة ونحن له عابدون ﴿١٣٨﴾ قل أتحاجوننا في الله
وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له
مخلصون ﴿١٣٩﴾ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم
أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله
بغافل عما تعملون ﴿١٤٠﴾ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت
ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴿١٤١﴾

قطاعات من هذه السورة مضت بشأن الجدال مع أهل الكتاب ، أكثرها مع بني اسرائيل ، منذ موسى إلى محمد عليهما السلام ، بإشارات إلى المشركين بما يلتقون فيها مع أهل الكتابين .

وفي هذه الآيات رجعة الى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى (ع) إلى ابراهيم (ع) فإنه الأصل الذي يتبنّاه أهل الكتابين فيما يدعون ، كما وأن قريشاً كانوا إليه يرجعون ، فهو المحور المرجع لذلك المثلث الكتابي والشركي ،

فأحرى أن يرجع اليه إصلاحاً لما افسدوا زَعم الإنتساب اليه في شرعتهم وطقوسهم .

هنا يبدءُ بشريطة الإمامة الابراهيمية ، وهي الإبتلاء العظيم ، إمامة لها شروطها وظروفها الخاصة كنبراس شامل لإمامة الرسالة ورسالة الإمامة على طول الخط .

ذلك ـ وليعلم بنو اسرائيل ، ألّا يرثوا الإمامة من إبراهيم كسائر الميراث الذي لا شرط فيه إلا قرابة الدم واللحم على شروطها ، فانما هي على شرط التوفية الشاملة لكل الإبتلاآت الربانية وترك المظالم كلها مهما لم يكن من ذريته ، أم كان منهم من إسرائيل ، ام كان من بني اسماعيل حين تنقرض شروطات الإمامة في بني اسرائيل :

﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إبراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لايَنَالَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ١٢٤

« ابراهيم » مذكورة في سائر القرآن (٦٩) مرة في (٢٥) سورة وهي لغة سُريانية قد تعني أب الجماعة الكثيرة وقد قرأت بأشكال تسعة[1] أثبتها

(١) والثمانية الأخرى هي : « إبراهام ـ إبرَهِم ـ إبرَهَم ـ إبراهِم ـ إبراهَم ـ إبراهُم ـ أبْرَهوم » والظاهر ان هذه كلها الالفظ القرآن سريانية ام عبرانية ، والمعربة الصحيحة هي « إبراهيم » ، وقد فسرت بتفاسير عدة كـ « أبٌ رحيم » برىءٌ من الاصنام هام الى ربه ـ الشديد النظر ـ والاولان بعيدان لانها سريانية لا تفسَّر بتجزئات عربية ، رغم ان ذلك خلاف التجزءة ايضاً ، فاين إب من أب واين راهيم من رحيم ! مهما عنت الاب الرحيم من غير هذا التحليل ، وقد يعني الأب العالي كما في قاموس الكتاب المقدس للدكتو بُوست ، يعني اب الجماعة الكثيرة (التكوين ١٧ ـ ٤ و ٥) : « أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الامم[4] فلا يُدعى إسمك بعدُ ابرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني اجعلك أباً لجمهور من الأمم[5] واثمرك كثيراً جداً واجعلك أمماً » . =

وأضبطُها « إبراهيم » حسب متواتر القرآن .

ولماذا هنا « ابراهيمَ ربه » تقديماً للمفعول وهو مفضول ؟ علّه اختصاصاً له بذلك الإبتلاء ، ام ولان « ربه » لا مجال له ادبياً لو لا تأخيره إلّا تحريراً له كـ « ابتلى رب ابراهيم اياه » فنقصان في ادب اللفظ ، ام « ابتلى رب العالمين - او - الله - ابراهيم » فنقصان في حذب المعنى حيث القصد بيان ربوبية خاصة في ذلك الإبتلاء .

وهنا ابتلاء رباني خاص لابراهيم الخليل يبتليه به ربه في أُخريات حياته كما تلمح له « من ذريتي » فقد كانت له ذرية بعد الإياس : « قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون » (١٥ : ٥٥) فلما وهب له ذريته قال : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحٰق إن ربي لسميع الدعاء » (١٤ : ٤١) .

ثم ومن أهم الكلمات التي ابتلي بها فأتمها بعد نفس الإمامة هي قصة ذبح اسماعيل وهو بكر ذريته : « قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك .. إن هذا لهو البلاء المبين » (٣٧ : ١٠٦) [1] .

إذاً فقد كان ابتلاءه بكلمات فأتمهن،وكان ذلك في أُخريات حياته النيرة ، مهما شملت « كلمات » طول حياته النيرة التي كانت كلها ابتلاآت بكلمات مهما كانت درجات فـ « من ذريتي » تشمل ذريته من إسماعيل كما من إسحاق .

ـ وهنا نعرف ان « إب » في السريانية هو الأب و « راهِم » هو جمهور الأمم .

(١) ومن ذلك إبتلاءه بابيه آزر ونمرود وسائر المشركين ، ومن أبرز بلاءه هنا القاءه في النار وقول جبريل له : الك حاجة وجوابه : أما اليك فلا ، وعلّ فوقه بلاءً ابتلاءه بذبح اسماعيله (عليهما السلام) .

والإبتلاء الربـاني هو الإمتحـان الإختبار ليـظهر بـإتمامـه مكنون اللبـاقـة والياقة ، إما للمبتلي والمبتلىٰ أمامه كما في الخلق ، أم دون الاوّل كما للخالق فـانه يعلم السر وأخفى ، وقد يكون الإبتلاء من خلفيات اعتداء الناس قضية ايمانك او سواه ، او من نتائج تخلفك عن شرعة الله .

ثم وليس الإبتلاء الربـاني الايماني إلاّ في أمـور صعبة ملتـوية معقـدة ، لا يسطع لها إلاّ الأشداء الأقوياء ، ويسقط دونها الضعفاء .

وإذا كان المبتلي هو الرب فالبلية هي الأشـد حسب مختلف الأهداف منهـا بـدرجاتهـا ، ولأن الإمامـة الرسـالية هي القمـة المرمـوقة من درجـات الكمال ، فالإبتلاء الهادف اليها ، المحضرُ لها ، هي أصعب البليات وأنسبها لهذه الـدرجة العليا .

وهنا « ربه » دون « رب العالمين » أمّا شابه ، مما تلمـح صارحـة صارخـة أن هذه البلية بكلمات هي بلية ربانية كما تناسب الساحـة الإبراهيمية وسماحتها وكما يسطع له ويليق به دونما إطاقة تزيل الطاقة .

وهي مناسبة لتلك الإمامة الخـاصة التي هي فـوق الرسـالة والنبـوة حيث جُعلت له بعدهما .

أتـرى - إذاً - ما هي الكلمات ؟ أهي - فقط - كلمات لفـظيـة حمّلت عليه ليقولها ؟ وليست فيهـا تكلّفات وبليـات ! فكثير هؤلاءالـذين يُكثرون من كلمات طائلة - أية كلمات - وليس لهم فيها ابتلاء ، ولا هـم آهلون لمعانيها ومغازيها ، ولا أنهم مطبقوها ! ثم التلفظ بهذه الكلمات ليس اتماماً لهـا : « فاتمهن » بـل هو « قالهن » أمّا شابه .

أم هي - فقط - أعمال شاقـة لا يسطع لهـا إلاّ أقويـاء بالإيمـان ؟ وصحيح

التعبير عنها وفصيحه هو « الأعمال » أو « الصالحات » أما شابه دون « كلمات » ! .

علّها هي كلمات الله التشريعية : الآمرة والناهية ، الخاصة بموقف الإبتلاء الإبراهيمي ، التي يخلِّف إتمامها الإمامة بإذن الله ؟ ولكن « فأتمهن » بضمير جمع العاقل قد لا تناسبها !.

ام هي ـ فقط ـ تطبيق هذه الكلمات بما فيها تحمل الإمامة و ذبح إسماعيل فتحقق ضمير العاقل ؟ اضافة الى مواد عاقلة في سائر ابتلاءه فانها من منتوجات كمال العقل واللب .

قد تعني « كلمات » هنا كلا الأمرين الإمرين ، فإستماع تلك الكلمات التشريعية ولاسيما شرعة الإمامة ، الحصيلة عن سائر الكلمات ، إنه ابتلاء ، وتقبلُها دون تعنُّت وسؤال إبتلاء ، وتطبيقها ابتلاء ، كما وقصة أمره بذبح اسماعيل « إن هذا لهو البلاء المبين » تشمل مثلث الإبتلاء ، الذي لا يخلد بخلد اي مبتلىً .

فإبراهيم : كلمة الله ، توجهت إليه كلمة الله ـ وهي أمر الله ـ أن يذبح اسماعيل كلمَة الله ، وذبحه هو كلمة الله ، الدالة على قمة التسليم لله ، كما وتحمل الإمامة من عليا هذه الكلمات ، وهنا « فأتمهن » لائقة بهذه الكلمات ، فقد أتم إستماع الأمر ، والايمان به ، والتسليم له ، ثم وتطبيقه .

ذلك ! كما ومن الكلمات كلمات الله العليا الأربعة عشر المحمديون « أتمهن » إلى القائم اثنا عشر إماماً تسعة من ولد الحسين [1] .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٢٠ في الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : سألته عن الآية ما هذه الكلمات ؟ قال : التي تلقاها آدم من ربه فتاب =

والإتمام في ميزان الله ـ إن صح التعبير ـ هو آية الإتمام ، الذي ليس فوقه إتمام .

إذاً فكل الإبتلاآت الإبراهيمية طول حياته النيرة تشمله « كلمات » وهي الدالات على العناية القمة التربوية الربانية فيما أمره ربه ونهاه ، والدالات على قمة التسليم قلبياً إذ أسلم له ، والدالات على تمام التسليم وكما له إذ طبقها ، و « أتمهن » هنا كما تعني أن الله أتم هذه الكلمات في ابراهيم تأييداً وتسديداً ، كذلك تعني أن ابراهيم أتمهن حسب الطاقة البشرية مزودة بعصمة ربانية ، ويقابله تركهن ، أو انتقصهن ، لا ! بل « أتمهن » كما أراده الله منه ، وأتمهن الله تتميماً لناقص الإرادة البشرية بعصمة إلٓهية .

﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ .

هنا « قال » دون « فقال » : تفريعاً للإمامة على إتمام الكلمات ، لأن إتمامها ليس إلا ظرفاً صالحاً لجعل الإمامة ، لا نتيجة ضرورية مفرّعة عليه، أم ولأن من هذه الكلمات هي كلمات جعل الإمامة : « اني جاعلك للناس إماماً » ـ ومنها قوله : ومن ذريتي ، ثم جوابه : « قال لا ينال عهدي الظالمين » .

فإن الإمامة ولاسيما هذه الكبرى ابتلاءٌ عظيم بمسؤليتها الكبرى ، ثقيلة على من يُحَمَّلُها ، عظيم حِملها بحَملها ، ولكن ابراهيم (ع) أتمها وأتى بها كما أريد منه .

= عليه وهو انه قال : يا رب اسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين الا تبت علي فتاب الله عليه أنه هو التواب الرحيم ، فقلت له يابن رسول الله فما يعني عز وجل بقوله فاتمهن ؟ قال : اتمهن إلى القائم . . .

ثم « إني جاعلك . . » مما يدل على انحصار جعل الإمامة بالله ، وانحساره عمن سواه ، و « جاعلك . . إماماً » حيث اسم الفاعل عامل في مفعوليه هنا ، دليل انه جعل في الحال ، حيث الفاعل الماضي لا يعمل ، واما الإستقبال فهو مجاز يحتاج الى دليل ، وصدق المشتق بمادته ليس إلاّ بصادق واقعها في الحال .

والإمامة بإطلاقها هي القيادة الحقة كما هنا او الباطلة كما « جعلناهم أئمة يدعون الى النار » وليس المعني منها في ذلك الجعل ما دون العصمة من القيادة فان ابراهيم معصوم حينه بأعلى درجات النبوة ، وان الله لا يجعل قيادة روحية بانتصاب لمن هو دون العصمة ، فانه قد يخطأ او يقصرُ او يقْصرُ ، فكيف يأتمنه الله على قيادته للناس ؟ !.

بل وليست هذه الإمامة هنا هي الرسالة او النبوة ، فانهما مجعولتان له ماضيتان ، ونفس « اني جاعلك » وحياً دليل على حاضر الوحي رسالة ونبوةً ، فكيف يجعله صاحبَ وحي وهو رسول ، كما وهو الآن في مختتم عمره وقد آتاه الله الحكم والنبوة في شبابه : « رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين » (٢٦ : ٨٣) - « واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه . . » (١٩ : ٤١) وذلك حين كان فتىً وهو يحارب الآلهة المزيفة وعُبَّادها: « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحٰق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً » (٤٩) .

فلأن الإمامة هنا هي بعد كامل العبودية والنبوءة والرسالة والنبوّة والخلة [1] حيث تخطَّاها إلى القمة مرحلياً كلًّا تلو الأخرى ، إذاً فهي الإمامة بين

---

(١) تفسير البرهان ١ : ١٤٩ عن الكافي بسند متصل عن زيد الشحام قال سمعت ابا عبدالله (عليه السلام) يقول : ان الله تبارك وتعالى اتخذ ابراهيم عبداً قبل ان يتخذه نبياً وان الله اتخذه نبياً =

المرسلين دون سائر الناس فحسب ، حيث الإمامة الرسالية على الناس كانت له سابقة ، فلتكن الإمامة الحاصلة بعد إتمام كلماتها هي الإمامة على المرسلين كما هم على سائر الناس .

فكل رسول ـ غير اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى ـ هو إمام أمته ، وولي العزم فوقه هو إمامه ، مهما كان في زمنه أم يأتي بعده ، فقد جعل الله كلاًّ من اولي العزم إماماً لسائر الرسل والنبيين .

فموسى إمام وكتابه إمام ، وطبعاً لكافة الرسل الإسرائيليين إلّا المسيح (ع) : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة . . » (١١ : ١٧) .

ثم الرسل الإسرائيليون بين الإمامين : موسى والمسيح ، هم كذلك ائمة لمن دونها : « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وايتاء الزكوٰة وكانوا لنا عابدين » (٢١ : ٧٣) « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقاءه وجعلناه هدى لبني اسرائيل . وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (٣٢ : ٢٤) .

وهنا مرتبة ثالثة من الإمامة الرسالية تحلِّق على ولاية العزم وما دونها من رسالات هي الإمامة المحمدية السامية ، المنقطعة النظير بين ملاء العالمين ، من الملائكة والجنة والناس أجمعين ، كما يبيِّنها هكذا أمثال قوله تعالى : « وإذ أخذ

= قبل ان يتخذه رسولاً وان الله اتخذه رسولاً قبل ان يتخذه خليلاً وان الله اتخذه خليلاً قبل ان يتخذه إماماً ، فلما جمع له الأشياء قال : « اني جاعلك للناس إماماً » قال : فمن عظمها في عين إبراهيم « قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » قال : لا يكون السفيه إمام التقي .

اقول : « نبياً » هنا تؤول الى النبوءة فبعدها الرسالة ثم لم يذكر النبوة بعدها اكتفاءً بالخلة .

الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ».

محمد (ص) اضافة إلى أنه إمام سائر المكلفين ، كذلك هو إمام المرسلين والنبيين ، وإمام على اولي العزم من الرسل نوح وابراهيم وموسى وعيسى ، كما وهو امام على الأئمة الإثني عشر من عترته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين ، وامام على كافة الكروبيين .

فـ « اني جاعلك للناس إماماً » تعني الإمامة الوسطى ، دون العليا المحمدية ، ولا الدنيا الرسالية لغير من دارت عليه الرحى من الرسل .

اجل ! وإنها لا تعني أية إمامة رسالية بدرجاتها ، لكي تطرد رسالة آدم (ع) إذ ظلم بما أكل من الشجرة فغوى « ولا ينال عهدي الظالمين » يعني عهد الإمامة الوسطى كما لابراهيم ، وباحرى العليا كما لمحمد (ص) دون سائر الإمامات في سائر الرسالات وأدناها رسالة آدم وقد « عصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (٢٠ : ١٢١) .

فـ « عهدي » هنا هو ذلك العهد الخاص ، دون أي عهد كان ، فعهد الفطرة الإنسانية ـ المعبر عنها بفطرت الله ـ يناله كل إنسان ، وعهد العقلية الإنسانية يناله كل عاقل ، وعهد الشرعة الإلٓهية يناله كل مؤمن ، وعهد الرسالة الإلٓهية لا يناله إلّا المصطفون مهما سبق لهم ظلمٌ مّا كآدم ، ثم عهد الإمامة بين المرسلين لا ينال الظالمين ، مهما كان ظلماً سابقاً مغفوراً .

وحتى إذا عنت « عهدي » كل إمامة في مثلثها ـ شاملة لرسالة آدم ـ لم تكن « الظالمين » تعم ماضية الحال ، بل هي حسب الوضع والإستعمال تعني

الحال والاستقبال،فليكن من يُجعل إماماً غير ظالم حال جعله وحتى آخر عمره .

اترى آدم الذي ظلم بما عصى « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » هل هو طي هذه المراحل تشمله « الظالمين » وصفاً ماضياً بذُل إلى تمام العدل والإصطفاء ؟ !.

إذاً فلتشمل « المشركون » كل الموحدين الذين كانوا مشركين ، ثم آمنوا واصبحوا من المقربين كسلمان أمن شابهه من أفاضل المؤمنين .

وكما « الظالمين » حالاً عند جعل الإمامة خارج عن « عهدي » كذلك « الظالمين » استقبالاً ، بمناسبة العهد الخاص الرباني الواجب ذكره على اية حال .

بل وكذلك « الظالمين » ماضياًحين يكون فاحشاً كالشرك ، ام ايا كان حين تكون الإمامة المطلقة التي تقتضي الإصطفاء المطلق بين ملإ العالمين .

فكما لا ينال عهد الإمامة الوسطى مثل آدم عليه السلام على عصمته حين اصطفاءه بالرسالة ، فبأحرى ألا ينال أمثال الخلفاء الثلاث ، أن يحملوا الإمامة القمةَ عن الرسول (ص) .

فالإمامة التي هي عهد خاص رباني هي القيادة الروحية ، مهما حملت - واقعياً كما هو شرعياً - القيادة الزمنية .

فمهما عُنْوِن الخلفاء الثلاث ثم الائمة الاربع بعنوان الإمام ، فهم ليسوا ائمة يحملون شرعة الله بذلك الإنتصاب الخاص بعهد خاص .

ثم « عهدي » هنا-وإن على القدر المتيقن - هو عهد الامامة الإبراهيمية وهي بعد المحمدية فضلاً عنها ، و « الظالمين » بعد « فاتمهن » هم المتقصون

الكلمات المبتلى بها ، ولان الابتلاء لابراهيم بتلك الكلمات يحلق على كل حياته ، فإتمامها كذلك حذو النعل بالنعل .

فكل من انتقص كلمة من هذه الكلمات طيلة حياته ، انتقاصاً في عِدَّتها ام عُدَّتها ، في مادتها ام هيئتها ، فقد يعد من « الظالمين » الذين لا ينالهم « عهدي » هذا .

ومن أشر الإنتقاص هو الإشراك بالله ، فكيف يجعل إماماً ـ بهكذا إمامة أم فوقها وهي المحمدية ـ من عبد وثناً ردحاً عظيماً من عمره .

فمهما لم تدل « الظالمين » على الماضي ، إلاّ الإنتقاص في تلكم الكلمات المحلِّقة على مثلث الزمان ، يمنع منعاً باتاً عن جعل تلك الامامة الكبرى .

ولم تقل « ينال عهدي العادلون » لأن العدل مهما كان ظرفاً لتأهل الإمامة لم تكن لزامه الإمامة ، فقد اكتفى بالشرط السلبي وهو عدم انتقاص الكلمات في مثلث ازمنة الحياة ، حيث يراد هذه الإمامة الخاصة .

إذاً فكيف يحل الإمامة المحمدية وهي المطلقة القمة ، من عبد وثناً فيما مضى ، لا وحتى آدم الذي عصى ربه فغوى ، ولا ذا النون إذ ذهب مغاضباً .. فنادى في الظلمات « اني كنت من الظالمين » ولا موسى « رب إني ظلمت نفسي » فضلاً عن الخلفاء الثلاث الذي لا يسوون شسع آدم عليه السلام ! .

ثم « لا ينال عهدي الظالمين » لا يستلزم انه يناله غير الظالمين بصورة مطلقة ، وانما هو سلب لأهلية هذه الامامة عن الظالمين ، لا واثبات للزوم الإمامة لغيرهم ، فهم اذاً مَن هو كإبراهيم ام فوقه ، وقد تحققت الامامة فوق الإبراهيمية لمحمد (ص) وعترته المعصومين اللّهم إلاّ لفاطمة[1] حيث اكتفي بعصمتها .

فـإنما» أبـطلت هذه الآيـة إمامـة كـل ظـالم إلى يـوم القيـامـة فصـارت في الصفـوة »(١) وهـم المصطفـون حـين جعْـل الإمـامـة حتى المـوت ، مهـما زادت الصفوة العليا صفوة في ماضيها ، كما في حالها واستقبالها بأدلة أخرى .

أجـل قد يمنـع الظلم المـاضي من عهد الإمـامة إذا كـان من كبـائـر الإثم والفواحش ومن أكبرها وافحشها الإشراك بالله مهما كان مغفوراً بالايمان ، ولكنـه ليس مغفوراً لمنصب الإمامة ، فان الإصطفاء ، وقـاعدة امكـان الأشراف،يمنعان انتصاب من كان مشركاً لمنصب الإمـامـة ، مهما أصبـح من أعدل العـدول ، كما والغضاضة الشركيـة السابقـة تمنع المـأمومين عن الإئتمام بـذلك الإمـام ، مهما صحت الصلاة خلفه ، وصح قضاءه وشهادته أمّا ذا سوى القيادة الروحية العليا وهي إمامة الأمة (٢) .

---

(١) تفسـير البرهـان ١ : ١٥٠ عن لكافي بسنـد متصل عن عبدالعزيـز بن مسلم في حديث فضـل الامامة قال : كنا مع الرضا (عليه السلام) بمرو ـ الى ان قال (عليه السلام) : ـ ان الامامة اجل قدراً واعظم شأناً واعلى مكاناً وامنع جانباً وابعـد غوراً من ان يبلغهـا الناس بعقـولهم او ينالـوها بآرائهم و يقيموا اماماً باختيارهم ، ان الامامة لله عز وجل خص بها ابراهيم الخليل بعد النبوة والخلة مرتبة ثالثة وفضيلة شرفه بها وأشاد بها ذكره فقال عز وجل ﴿إني جاعلك للناس اماماً﴾ فقال الخليل مسـروراً بها « ومن ذريتي » قـال الله تبارك وتعـالى ﴿ لا ينال عهـدي الظالمـين ﴾ فـابـطلت هـذه الآية . . .

(٢) روى الشيخ في اماليه بسند متصل عن عبدالله بن مسعود والشافعي ابن المغازلي في المناقب على ما في تفسير اللوامع ١ : ٦٢٩ ـ باسناده يرفعه اليه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) وكيف صرت دعوة إبراهيم ابيك ؟ قال : اوحى الله عز وجل الى ابراهيم ﴿ اني جاعلك للناس إماماً ﴾ فاستخف ابراهيم الفرح فقال يا رب ومن ذريتي مثلي ، فاوحى الله عز وجـل اليه ان يـا ابراهيم إني لا اعطيك عهداً لا أفي لك به ، قال : يا رب ما العهد الذي لا تفي به ؟ قـال : لا اعطيك عهداً الظالم من ذريتك ، قال يا رب ومن الظالم من ولدي لا ينال عهدك ؟ قال : من سجد لصنم من دوني لا اجعله إماماً ابداً ولا يصلح ان يكون اماماً ، قال ابراهيم : واجنبني وبنيَّ ان ـ

ثم « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » تنفي عن مثل آدم عهد الإمامة المعني بـ « عهدي » فليس يكفي في ذلك العهد حاضر العدالة ، بل وماضيها كما في حاضرها ، حتى تحل في ظرف ظريف طريف حفيف في مثلث الزمان لكل أبعاد العدالة .

مطلق الإمامة الشامل لإمامة الجماعة وإمامة القضاء وإمامة التقليد ، لا يقتضي هذه المرتبة القمة من الإصطفاء ، ولا تعني الإمامة في الآية مطلقها الشامل لها ، بل هي الإمامة المطلقة لمكان « للناس » دون اختصاص بحقل او ناس خاص ، كما وأنها فيها بعد الرسالة والنبوة .

فمن يحمل قيادة الأمة الاسلامية ككلٍّ بعد إمام الائمة محمد (ص) ليس إلا من أصفى الأصفياء كما محمد (ص) في قمتهم علي الإطلاق ، فكيف يصح أن تشمل هذه الإمامة من عبد صنماً، كما و « إني جاعلك » تختص جعل ذلك العهد بالله ، والخلفاء الثلاث بعد الرسول لم يكونوا منتصَبين من قبل الله ، ولا هم أصفياء الامة ككل ، باجماع الامة الإسلامية ككل !.

ثم النسبة بين هذه الإمامة والنبوة عموم من وجه ، فقد يكون نبياً وليس هكذا إماماً ، كآدم ومن فوقه من غير اولي العزم ، أم يكون إماماً وليس نبياً ولا رسولاً ، كالائمة الإثني عشر المحمديين ، ام هو إمام ونبي كالخمسة أولي

= نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيراً من الناس ، ومن ثم قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فانتهت الدعوة إلي والى اخي علي (عليه السلام) لم يسجد أحد منا لصنم قط فاتخذني الله نبياً وعلياً وصياً (تفسير البرهان ١ : ١٥١) .

وممن أخرجه عن ابن مسعود المير محمد صالح الترمذي الكشفي في مناقب مرتضوي ص ٤١ ، روى عن الحميدي عن عبدالله بن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما ترجمه انه قال : ان دعوة ابراهيم الإمامة لذريته لا تصل إلاّ لمن لم يسجد لصنم قط ومن ثم جعلني الله نبياً وعلياً وصياً لي .

العزم ، ام هو إمام الانبياء والائمة ككل وهو محمد (ص) .

ولان ائمة اهل البيت عليهم السلام يحملون الإمامة فهم أفضل من سائر اولي العزم عليهم السلام وقد تدل على ذلك آية التطهير وما أشبه .

وترى الخليل تطلّب من ربه الإمامة المجعولة له للبعض من ذريته : « ومن ذريتي » ؟ علّها هي إمامة مطلقة لا مطلق الإمامة كما وانها قضية الموقف : « اني جاعلك . . » إذاً فـ « لا ينال عهدي الظالمين » تجتث كل دركات الظلم ، ناحية منحى كل درجات العدل في حياة الإمام كلها ، وذلك منطبق على ائمة المرسلين بعده:موسى والمسيح ومحمد عليهم السلام ، أمّن حذى حذوهم من ائمة الإسلام المعصومين ، فلا تشمل ـ ولأقل تقدير ـ مثل آدم ، الذي عصى ربه قبل رسالته فغوى ، مهما اجتباه ربه ـ بعده ـ فتاب عليه وهدى .

ومن ميِّزات هذه الإمامة أن ليس يختص وحيها بالعلوم والمعارف بل وفعل الخيرات ، كما والهداية بأمر الله تكوينياً وتشريعياً ، فكما هم مهتدون بأمر الله فيها ، كذلك هم هادون بأمر الله فيها ، وهم عاملون الخيرات بوحي الله : « وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكوٰة وكانوا لنا عابدين » (٢١ : ٧٣) .

وإطلاق القول « وكانوا لنا عابدين » ضارباً الى كل أبعاد الماضي ـ وهي قبل الإمامة ـ ذلك الإطلاق يخرج كمثل آدم عليه السلام .

وفي رجعة أخرى إلى آية الابتلاء :

« و » اذكر يا إمام ائمة الهدى ، الرسول المصطفى ، « اذكر » ذكرى من ابراهيم الخليل (ع) كأفضل مَثَل من أمثولات الإمامة بالابتلاء ، ولكي تكون على أهبة لابتلاء أشد وأقوى لإمامة هي أشمل وأنبل وأعلى ، اذكر«إذ ابتلى

ابـراهيم ربه بكلمات . . . » فـربك يبتليـك بكلمات ويجعلك للناس إمـامـاً عـلى العالمين أجمع ـ كما جعله ـ ! .

« فاتمهن » ابراهيم و « اتمهن » ربـه ، وأين إتمام من إتمـام ، وكذلـك الله يتم لك وتتمه أنت ، واين كلمات من كلمات .

« قال اني جاعلك للناس إماماً » وقد جُعِلتَ أنت إمـامـاً عـلى النبيين « وإذ اخذ الله ميثاق النبيين . . » .

« قـال ومن ذريتي » وكما قـال موسى « واجعـل لي وزيراً من أهـلي » ولكن الله جعـل لك من ذريتـك ائمة يحملون أمـانة امـامتك ككـل وكما يبـدو من آية التطهير ، الجاعلة طهارتك القمة لأهل بيت رسالتك القدسية وهم الائمة الإثني عشر عليهم السلام .

وقـد تعني « بكلمات » قسماً منهـا يناسب الإمـامة الإبـراهيميـة ، ولمحمـد (ص) كل الكلمات لأن إمامته هي كل الإمامات : « فآمنوا بالله ورسولـه النبي الأمي الذين يؤمن بالله وكلماته . . » (٧ : ١٥٨) ايمانـاً علمياً وعقيـدياً وعمليّاً في كل الحقول المعرفية والعملية ، دون أبقاءٍ لكلمة يبتلى بها إلاّ وأتمها كأتمُّها حتى نال الإمامة الكبرى .

ولئن نال الخليل مرتبة الإمـامة بعـد العبودية والرسـالة والنبـوة والخلة كما تناسب إمامته ، فقد نال الحبيب الإمامة الكبرى بعد أن اصبح اوّل العـابدين : «قل ان كان للرحمن ولد فأنا اوّل العابدين » ثم اصبح آخر النبيين ورسولاً إليهم اجمعين : « واذ اخذ الله ميثـاق النبيين . . » ثم حبيبـاً لرب العـالمين لحد يحلف بعَمره ربُّه « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » (١٥ : ٧٢) كما ويحلف بنفسه « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . . » (٤ : ٦٥) .

وترى الخليل ـ بعدُ ـ يتطلَّب من ربـه إمامتـه للبعض من ذريته دون شرط

إلّا انهم من ذريته ؟ وذلك بعيدٌ عن مقام الخليل أمام ربه الجليل ، وقد ابتلي هو نفسه بكلمات ، فكيف يدعو لذريته دون ابتلاءٍ !٠

« ومن ذريتي » ليست لتتعلق ـ فقط ـ بـ « إني جاعلك . . » بل وقبلها بـ « ابتلى ابراهيم ربه بكلمات » إذاً فلدعاءه بُعدان اثنان ، أن يبتلي ربه من ذريته ـ كما هو ـ بكلمات ، ثم يجعله بإتمامهن إماماً ، فأضاف ربه اليهما بعداً ثالثاً « قال لا ينال عهدي الظالمين » فلا يصلح الظالم أن يبتلى بكلمات تلك الإمامة حتى يُجعل إماماً .

وترى ابراهيم الخليل (ع) هو بعدُ كأضرابه من النبيين ، حكمت عليه رغبة امتداد الإمامة في ذريته فسألها لهم ربه ؟ ولا وراثة فيها ، ولا تقدم لها فيهم لانهم ـ فقط ـ ذرية !٠

نقول هنا : إضافةً إلى أن امتداد الشخصية ـ زمنية او روحية أما هيه ؟ ـ هو رغبةٌ فطرية ، أودعها الله في فطرت الإنسان ، تنمية للحياة ، ومضياً في طريقها المرسوم ، وقد قرر الإسلام على أسامه شرعة الميراث وسائر الإختصاص في حقل التربية مادية ومعنوية : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ـ « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » نقول إضافة إلى ذلك إنه استدعاء بشروط ، دونما فوضى جزاف ، ودون سلب لغير ذريته ، ومن ثم فدعاءه-كسائر فعله ـ إنما هو باذن ربه ودعاءه ، قضيةَ التسليم المطلق لساحة الربوبية وقد عرف وحياً من ربه ان من ذريته من اسماعيل من يأهل لتلك الإمامة .

وكما في دعاءه « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك . . » (٢ : ١٢٨) وما البعد الثالث لتحقيق ذلك الدعاء : « لا ينال عهدي الظالمين » إلّا توضيحاً لسائر الأجيال في هذه الإذاعة القرآنية العالمية ، وليس تفهيماً لإبراهيم ، العارف شروطات تلك الإمامة الكبرى كما لمسها في نفسه .

فطالما يدعو ابراهيم إمامته للبعض من ذريته ، ولكنه يشترط شرط إتمام نفس الكلمات ، مما لا يحصره في ذريته ، اللّهم إلاّ بما أوحى إليه ربه ، ألاّ يصلح لشروطاتها إلاّ بعضٌ من ذريته كمحمد وعترته المعصومين عليهم السلام أجمعين .

وهنا « من ذريتي » لا تعني إلاّ البعض منهم ، وهم بين عادل وظالم ، فتراه اراد الظالمين منهم فقط ترجيحاً للمفضول على الفاضل! ام عنى الفريقين ؟ و « من » تبعض ! فهو ـ إذاً ـ يعني العدول منهم ـ ولاقل تقدير ـ حالة الإمامة ، و « لا ينال عهدي الظالمين » أخرجت كل ظالم متنقص كلمات الابتلاء ، ماضياً او مستقبلاً فضلاً عن الحال ، فلم يشمل عهد الامامة كل العدول حال الجعل ، بل هم العدول في مثلث الزمان لقمة العدالة وهي عدم الانتقاص في الكلمات المبتلى بها هكذا إمام .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ ١٢٥ .

« البيت » هنا هو البيت العتيق : الكعبة المشرفة ، والجعل هنا تشريفي تشريعي ، وواقعي تكويني ، في مثابته وأمنه ، فما هي « مثابة » وما هو « أمناً » .

« مثابة » هي في الاصل المثوّبة اسم لمكان « البيت » ام ومصدراً ميمياً ، ام وعلى هامشها اسم زمان ، فان لإيتانه حجاً زمان خاص ، والتاء للمبالغة ، فالبيت مصدر لكل صادر بكل معاني « مثابة » كما هو ملجأ لكل حائر سادر ، فهو « مثابة »مصدراً وزماناً ومكاناً .

ولقد اتت « مثابة » في مختلف المناسبات لمعان عدة ، فلا تختص بواحدة دون أخرى ، وقضيةُ الإفصاح البليغ في مذهب الفصاحة البالغة ، ان يُؤتى باللفظ قدر المعنى المُرام ، لا زائداً على المعنى ولا ناقصاً عنه ، وخرافة استحالة استعمال لفظ واحد في اكثر من معنى واحد تخل في ألفاظ الكتاب والسنة بأن للقائل مقام جمع الجمع فلا مشكلة له في هكذا استعمال جامع بين شتات ، وذلك من اختصاصات الكتاب والسنة ، اختصاراً في التعبير ، وعناية للمعنى الكثير .

كما وتخل في اصطلاح من يقوم لما يستعمله من الفاظ كل المعاني الصالحة في اللغة ، دون حاجة الى لحاظها رِدف بعض حتى يُحيله قوله تعالى « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » .

فمختلَف التفسير لمثابة مختلِف عن تفسيرها المعني منها دون أية حجة لواحد من معانيها ، وهي :

١ المَقام ـ ٢ المرجع ـ ٣ المجتمَع ـ ٤ الممتلىء ـ ٥ المَلجأ ـ ٦ الماتي متواتراً ـ ٧ المُقبَل ـ ٨ المتاب ـ ٩ محل الثواب ـ ١٠ المتنبَه ـ ١١ المستقى ـ ١٢ مجتَمع الماء . . وبضرب مثلث الصيغة من « مثابة » إلى المعاني الإثني عشر تصبح معانيها المعنيَّة ستة وثلاثين مهما اختلفت عنايتها في درجات ، واين هي من معنى واحد لا دليل له ، وهو في نفس الوقت خلاف الفصيح بل وغير صحيح ! .

اجل إنه ١ مقام الإسلام ومنطلَقه ، ومَقام المسلمين بكل انطلاقاتهم الحيوية السامية .

٢ ومرجعهم حيث يرجعون اليه في مشاكلهم الروحية والجماعية أماهيه ؟ « لا يقضون منه وطراً »(١) .

---

(١) كما يروى عن باقر العلوم (عليه السلام) تفسيراً لمثابة : يرجعون اليه . .

٣ ومجتمعهم « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معدودات على ما رزقهم من بهيمة الانعام . . » اجتماعاً عن كل التفرُّقات والتفرقات .

٤ وممتلئ مجدهم بجمعه الحافل الكافل لحل كل المشاكل بتشاور وتحاور مليء بما يُغنيهم .

٥ وملجاءهم في مخاوفهم عن مفازاتهم في سياساتهم الزمنية والروحية ، وسائر حاجياتهم الحيوية .

٦ ياتونه متواتراً في حجهم وعمرتهم دونما انقطاع ، قطاعات عظيمة من مختلف الألسن والالوان من مشارق الارض ومغاربها ، من كل فج عميق .

٧ مقبلين اليه زيارةً له ، واستقبالاً في صلواتهم وسائر عباداتهم ، استقبالاً لقبلته الواحدة .

٨ ومتابهم عن ذنوبهم فردية وجماعية ، فانهم فيه من ضيوف الرحمن وحاشاه ان يرجعهم خائبين !

٩ ومحل ثوابهم إذ يثيبهم الله بزيارته حقها كما وعد عباده الثائبين اليه التائبين .

١٠ ومتَنَبهاً لهم عن كل غَفَلاتهم وغَفَواتهم ، وليشعروا ماذا عليهم في مسؤلياتهم الإسلامية الهامة .

١١ ومستقىً لهم من تروية ماءِ الحياة في كل حقولها الروحية والمادية ، من مشارف بئره العظيم ، بدِلاءِ التضامن والتعاضد الأخوي الاسلامي .

١٢ ومجتمع مياه الحياة في كافة الجنبات : العلمية ـ العقيدية ـ الأخلاقية ـ العبادية ـ الاقتصادية ـ السياسية والعسكرية أماهيه .

ذلك هو كيان جعل البيت في الإساس ، يجمعها « قياماً للناس » : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » (٥ : ٩٧) ومباركاً وهدىً للعالمين : « ان اوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا . . » (٣ : ١٦) .

و « الناس » كل الناس هم المحور الإساس في مثابة البيت وأمنه والقيام فيه وبركته وهداه ، مما يلمح أن الحج فريضة إنسانية تصلح الحيوية الجماهيرية .

« وأمنا » هنا دون « آمنا » كما لـ « من دخله كان آمنا » مما يدل على خالص الأمن والسلام فيه ، أمناً في شرعة الله اكثر من كل بيت ، وأمناً واقعياً ليس في ايِّ بيت ، مهما يوجد فيه خلاف الأمن من متخلفين ، ولكنه اقل بكثير من غيره على طول الخط .

والبيت هنا « مثابة وأمناً » لا يخص الكعبة المباركة ـ مهما كانت هي الأصل فيها ـ بل والمسجد الحرام والحرم كله كما « هدياً بالغ الكعبة » و « حاضري المسجد الحرام » « واجعل هذا البلد آمناً » تشهد على هذه الشمولية .

ثم « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » تأمر الحجاج والمعتمرين ـ الطائفين والعاكفين والركع السجود ـ تأمرهم ان يتخذوا من مقام ابراهيم مصلّىً أمراً تشريعياً بعد أمنه تكويناً وتشريعاً ، فما هو مقامه المأمور باتخاذ مصلّىً منه ؟ ·

يأتي مقام ابراهيم في ثانية : « فيه آيات بينات مقام ابراهيم » (٣ : ٩٧) مما تلمح ـ بين معانيها ـ وتلمع ان « آيات بينات » كلها مقام ابراهيم ، وقد ذكرنا في مسرحها اثنتي عشرةآية ، من أبرزها ـ المعروف بينها عند الكل ـ هو مقام ابراهيم ـ موضع قدمه من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن ، إذ أثرت

قدمه المباركة حين كان يرفع القواعد من البيت ، وحين أذن في الناس بالحج [١] .

ذلك الحجَر نزل في مثلث الحجَر ـ كما يروى ـ من الجنة [٢] وكما لمقام ابراهيم أبعاد ، كذلك اتخاذ مصلًّ منه له أبعاد ، أوسعها مقام البيت ككل ، فانه مصلًّ لكافة المصلين في هذه المعمورة وسواها ، مصلًّ واسع ابتداءً من البيت نفسه وإلى كل أنحاء العالم .

ثم في مقام الحجر فان الصلاة فيه مفضلة على غيره من كل أنحاء البيت ، ثم المسجد الحرام كله ، ثم مكة كلها ، ثم الحرم كله ، ثم المشاعر كلها ، فانها كلها مقام ابراهيم .

---

(١) . في حسنة ابن سنان او صحيحه ـ على الاصح ـ قال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) « فيه آيات بينات » ما هذه الآيات البينات ؟ قال : مقام ابراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه ، والحجر الاسود ومنزل اسماعيل .

وفي الدر المنثور ١ : ١١٨ ـ اخرج ابن ماجة وابن ابي حاتم وابن مردويه عن جابر قال : لما وقف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا مقام ابراهيم الذي قال الله : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال : نعم .

(٢) المجمع روي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال : نزلت ثلاثة أحجار من الجنة مقام ابراهيم وحجر بني اسرائيل والحجر الأسود ، وفي الدر المنثور ١ : ١١٩ ـ اخرج الترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولولا ذلك لأضاء ما بين المشرق والمغرب ، واخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الركن والمقام من ياقوت الجنة ولولا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاءا ما بين المشرق والمغرب وما مسهما من ذي عاهة ولا سقيم إلاّ شفي .

ولـ « من » ـ في « من مقام ابراهيم » بالنسبة لخصوص المقام ـ موقعها الدلالي فقهياً لهندسة « مصلى » فلم يقل « في » لانه لايكفي مكاناً لصلاة ، ولا لمصلٍ واحدٍ فضلاً عن مئآت الآلاف ، ولا « اتخذوا مقام ابراهيم مصلى » حتى يصبح كالبيت يصلّ حوله من كل الأطراف ، مهما جعل البيت دبراً ، ولا « الى مقام ابراهيم » وكيف يُجعل خلَف المصلي .

وإنما « من مقام ابراهيم » فهي ابتدائية تبين مبتدءً لركعتي الطواف أنه حد المقام ـ و طبعاً حيث هو الآن وكما كان ـ وليست تبعيضية فان كلّ المقام لا يسع لمصلٍ واحد فضلاً عن بعضه ولجموع المصلين ! .

ذلك بيان ظريف لمبتدء الصلاة الخاصة ـ دون كل صلاة ـ فقد يشمل خلف المقام وجانبيه حياله ، ما صدق انه « من مقام ابراهيم » مهما كان خلفاً وحيالاً بعيداً لإطلاق « من مقام » ثم المنتهى ـ طبعاً ـ هو منتهى المسجد الحرام ، وإن كان الأقرب منه فالأقرب أقرب في تطبيق الأمر ، إلّا أن مختلف الظروف والحالات لها مختلف الأبعاد لـ « من مقام ابراهيم » .

ومستفيض النقل عن الرسول (ص) وائمة اهل بيته عليهم السلام عنه ، ليس إلّا « عند المقام » و « خلف المقام » [1] وهما بيانان لـ « من مقام

(١) فمما روي في « خلف المقام » ما في الدر المنثور ١ : ١١٨ ـ اخرج مسلم وابن ابي داود وابو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن جابر ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رمل ثلاثة اشواط ومشى اربعاً حتى اذا فرغ عهد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ : واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وفيه ١٢٠ ـ اخرج الحميدي وابن النجار عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين وشرب من ماءِ زمزم غفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت وفيه أخرج الأزرقي عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المرء يريد الطواف بالبيت أقبل يخوض الرحمة فإذا دخله غمرته . . . فإذا فرغ من طوافه فأتى قام ابراهيم فصلى ركعتين دبر المقام خرج من ذنوبه كيوم ـ

ابراهيم » ، فلا يُتجاوز المقامُ الى البيت فانه ليس « من مقام » عِلماً أن البيت هو القبلة في المسجد الحرام ، إذاً فـ « من مقام » تعني الصلاة الى البيت ، فكيف تتجاوزُ قدامَ المقام الى البيت ؟ .

ولان خلف المقام أقرب مقاماً في « من مقام » الي المقام ، فليقدم على جانبي المقام ، ولكلٍّ منها مقامات حسب مختلف المقامات .

ولقد رأوا « ابا الحسن موسى (ع) يصلي ركعتي طواف الفريضة بحيال المقام قريباً من ظلال المسجد لكثرة الناس »(١) وذلك « من مقام ابراهيم » بعيداً عنه قضيةَ الضرورة ، مهما بعد عن « عند المقام » فضلاً عن « خلف المقام » حيث المدار هو صدق « من مقام » .

وهو يشمل كل اضلاع المقام سعة المسجد الحرام إلاّ ضلعه القِبلي،ثم و

= ولدته امه . . . اقول : لا تجد فيما يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ خلف المقام او دبره .

وفي التهذيب عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : ليس لأحد ان يصلي ركعتين طواف الفريضة الا خلف المقام لقول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ ان صليتها في غيره فعليك اعادة الصلاة .

وفي الكافي ٤ : ٤٢٣ والتذيب ١ : ٤٨٥ حسنة معاوية بن عمار او صحيحته « اذا فرغت من طوافك فائت مقام ابراهيم (عليه السلام) وصل ركعتين واجعله أماماً . . » وفي التهذيب عن ابي عبدالله الأبزاري سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن رجل نسي ان يصلي ركعتين طواف الفريضة في الحجر ؟ قال : يعيدهما خلف المقام لان الله يقول : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ يعني بذلك ركعتي طواف الفريضة .

(١) كما في الكافي ٤ : ٤٢٣ ـ في الصحيح عن الحسين بن عثمان رأيت ابا الحسن موسى (عليه السلام) يصلي . . . وفي التهذيب ١ : ٤٨٦ ـ « قريباً من الظلال لكثرة الناس » . وقد يشملها « عند المقام » مع رعاية الترتيب كما في خبر زرارة : « لا ينبغي ان يصلي ركعتي طواف الفريضة إلاّ عند مقام ابراهيم » (الكافي ٤ : ٤٢٤ والتهذيب ١ : ٤٨٥) .

« خلف المقام » يشمل كل مساحة الضلع الخلفي حتى آخر المسجد الحرام ، مهما لم يشمل « عند المقام » كل السطح اليميني واليساري .

فخلف المقام نص في جعل المقام أماماً كإمام ، وعند المقام يعمه وحيال المقام برجاحة الخلف ، إذاً فخلفه هو الأوّل ما صدق الخلف ، ثم حياله ما صدق الحيال ، وأجمل تعبير عنهما « من مقام » .

فمن الأضلاع الاربعة للمقام يبقى الضلع المواجه للكعبة حيث لا يصح ان يتخذ مصلى اذ يستلزم استدبار الكعبة ، ثم الاضلاع الثلاثة الاخرى هي بين الأحرى فالأحرى كلها « من مقام ابراهيم » في كونها مصلَّى الاقرب منها فالأقرب الى المقام حيث هو المبتدء فيها ، ما صدق انه من مقام ، والخلف والحيال البعيد عن المقام ، مهما بَعُدا عن خلف المقام وحياله حسب النصين ولكنهما داخلان في « من مقام » حيث المنتهى هو آخر المسجد الحرام إذ لم يذكر هنا منتهى آخر ، فلو كان لذكر كالمبتدء ! .

وترى إن نسي الصلاة خلف المقام حتى قضى مناسكه كلها او بعضها ، عليه ان يرجع فيصلي خلف المقام؟ طبعاً نعم إن إمكن « يرجع إلى المقام فيصلي ركعتين » [1] « وان كان ارتحل فإني لا أشق عليه ولا آمره أن يرجع ولكن يصلي حيث يذكر » [2] .

---

(١) كما في الكافي ٤ : ٤٢٦ والاستبصار ٢ : ٢٣٤ والتهذيب ١ : ٤٨٦ صحيحة ابن مسلم عن احدهما (عليهما السلام) قال : سئل عن رجل طاف طواف الفريضة ولم يصل الركعتين حتى طاف بين الصفا والمروة ثم طاف طواف النساء ولم يصل إيضاً لذلك الطواف حتى ذكر وهو بالابطح ؟ قال : يرجع الى المقام فيصلي ركعتين » .

(٢) كما في التهذيب ١ : ٤٨٦ والاستبصار ٣ : ٢٣٥ صحيحة ابي بصير سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن رجل نسي ان يصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام وقد قال الله : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ حتى ارتحل ؟ فقال : ان كان ارتحل . .

ذلك لإطلاق الأمر « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » للناسي كما الذاكر ، خرج موقف المشقة والحرج ، إذ لا عسر في الدين ولا حرج ، وان كان الأحوط الجمع بين ان يصليهما حيث يذكر ، وأن يستنيب[1] لادائهما عند المقام ، ام واذا رجع في سفرة أخرى يقضيهما .

فالأصل المرجع - ككل - هو على أية حال « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّىً » ما أمكن دون عسر ولا حرج ، والجمع بين صلاة الأصيل والوكيل يجمع بين مختلف الدليل .

وهنا ويلات من مختلقات الروايات ان فلاناً وفلاناً سألوا النبي (ص) لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ! وَيْكَأن الله يتبع في وحيه إلى رسوله أهواء فلان وفلان ، فهما أحرى بالإتباع وأعرف من الرسول (ص) استصلاحاً لركعتي الطواف[2] .

وكما يُهرف فيما يُخرف « كان المقام إلى لزق البيت فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله (ص) لو نحّيته عن البيت ليصلي إليه الناس ففعل ذلك رسول الله (ص) فأنزل الله : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » »[3] !

---

(١) في التهذيب عن ابن مسكان قال : حدثني من سأله عن الرجل ينسى ركعتي طواف الفريضة حتى يخرج ؟ فقال : يوكل ، قال ابن مسكان وفي حديث آخر : ان كان جاوز ميقات أهل ارضه فليرجع وليصلها فان الله تعالى يقول ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ .

(٢) الدر المنثور ١ : ١١٩ - اخرج الطبراني والخطيب في تاريخه عن ابن عمر ان عمر قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ وفيه خرج عبد بن حميد والترمذي عن انس قال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لو صلينا خلف المقام ؟ فنزلت . . .

(٣) المصدر ١١٩ أخرج ابن ابي دواد عن مجاهد قال : . .

كلّا ! إن المقام هو المقام الآن كما كان دون تحوّل ولا تحويل ولا تحويل في تحويل ، كما البيت هو البيت ، والمشاعر هي المشاعر ، والحرم هو الحرم .

ولأن المطاف يتسع حسب اتساع الطائفين - والى خلف المقام بقليل او كثير - فحتى لا تكون فوضى الصدام بين الطائفين والمصلين ، قد تلمح « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » - دون « صلّوا . . » او ما أشبه - تلمح بأن المصلّى من المقام مرحليّ لجمهرة المصلين كما المطاف ، فليتقدَّم المطاف على المصلّى ، وعلى المصلين ان يتخذوا من مقام ابراهيم مصلّىً إلى آخر المسجد الحرام بصورة مقررة محسوبة على الجميع ، حيث لا يضيق المطاف على الطائفين .

فالإسلام بكل مقرارته نظام ، ولاسيما في القرارات الجماعية تحسّباً دقيقاً رفيقاً لسلامة التطبيق في كل جليل ودقيق ، ومؤتمر الحج هو من أدق التنظيمات الجماعية الإسلامية السلمية « ليشهدوا منافع لهم » - « قياماً للناس » .

فليكن المطاف والمصلى بحيث لا يكون صدام واحتدام بين الطائفين والمصلين ، فليراعِ المصلون كتلَة الطائفين ، كما على الطائفين رعاية كُتَل المصلين ، مع تقدم الأوّلين حسب الحاجة الضرورية لصالح الطواف من متّسع المطاف .

ولو أن المطاف احتل - يوماً مّا - المسجد الحرام كله ، وطبعاً في واجب الطواف ، فليقرِّر لكلٍّ من الطواف والصلاة موعد يكفيه ، باستثناء أمام المقام الى البيت فانه مطاف على أية حال ، وليراعَ واجبُ كلٍّ من الطواف وصلاته ، تقديماً على تطوعه ، ولا يجوز إشغال المصلّى خلف المقام مع الزحام - كما المطاف - تقديماً للفرض على النفل كما قدّمه الله .

(١) راجع كتابنا - اسرار . مناسك وادلة حج - باللغة الفارسية ، وفيها اوردناه من الفروع كفاية كأصول لأحكام صلاة الطواف .

ثم وفي رجعة اخرى الى الآية مسائل :

الاولى : لو تحوَّل المقام الى غير مقامه الآن ، لم تتحول الصلاة خلفه عما خلفه كما كان حيث المقام لا يختص بذلك الحجر القابل للتحول ، بل هو مقامه من أرض المسجد الحرام الى تخوم السماوات والارض ، وكما الكعبة المباركة والمسجد الحرام ، والحل والحرام ، حيث الظاهرة الآن على الأرض هي علامات ، وليست هي ـ فقط ـ الأصل في مسرح الأحكام .

الثانية : المأمور بالصلاة خلف المقام أم عنده هو هو المكلف بطوافها ، فلا يستنيب فيها مهما كلف الأمر ، إلا إذا لا يسطع أن يأتي بالأمر ، عذراً يسقط عنه أصالة الأمر ، إذاً فإلى الإستنابة ، كالمغشي عليه والميت ومن أشبه ، فإجادة القراءة وسائر الواجبات والأركان وإن كانت مفروضة في تطبيق الأمر ، إلاّ أنها لا تسمح للإستنابة ، قصوراً عن الإجادة أم تقصيراً فيها .

ثم الإستنابة في الواجبات هي خلاف الأصل حتى عند الضرورة حيث تسقط الفريضة عندها ، اللهم إلاّ بدليل ، ولا دليل على الوجوب او السماح في استنابة لصلاة الطواف إلاّ لمن يعذر بنفسه عنها ، في نفسه ، ام لانه خارج لا يسطع على العودة .

الثالثة : لا يجوز له طواف واجب ما لم يعرف واجبات ركعتيه كواجباته ، إلاّ اذا ضاق وقت الطواف ، فان طاف في سعة الوقت ولا يعرف واجب الصلاة أخرها حتى يعرفها تعلماً ، ام يقتدي في ركعتي الطواف ، فان صلاهما مخلاً بصحتها أعادها بعد تعلمها ان أمكن ، فان كان خرج ام في تعلمه حرج ، صلاهما حيثما كان واستناب .

فالأمر الذي لا بد منه هنا كضابطة أن عليه نفسه ركعتي الطواف كما

الطواف ، فلا استنابه هنا او هناك إلاّ عند الضرورة ، وليس منها عدم معرفته كيف تؤدى الصلاة ؟.

الرابعة : لا تجب في ركعتي الطواف رعاية عدم تقدم النساء على الرجال ، قضيةَ تضيُّقها مكاناً وزماناً ، ففي رعاية المكان والزمان ، الى رعاية عدم التقدم حرج فلا وجوب .

واخيراً ذكر مصلى المقام مما يدّل على ان صلاة الطواف فريضة كسائر ما يذكر من فرائض الحج في القرآن ، ولكنها ليست ركناً كسائر اركانه .

ثم والتفصيل الى سائر المفصلات المخصصة لهذه الفروع ، فانما علينا ان نلقي اليكم الأصول وعليكم التفريع[١] .

ثم « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » مفسَّرة في نظيرتها : « وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع والسجود » (٢٢ : ٢٦) .

فالركع السجود فيهما هم المصلون ـ ككل ـ طائفاً او عاكفاً او قائماً ، ثم الطائفون هم المسافرون لقرنهم في آية الحج بالقائمين ، ام هم اعم منهم ومَن يطوف بالبيت وعلّه أصلح ، حيث التعبير عن خصوص المسافرين بالطائفين هو أوسع من معناها ، كما والعاكفين ـ علّه ـ اعم من المقيمين والمعتكفين في المسجد الحرام والقاعدين فيه،فقد شملت الأيتان كل عابد في المسجد الحرام ، مسافراً او مقيماً ، معتكفاً او طائفاً او مصلياً ام جالساً فإنه أيضاً عبادة ، والتطهير المأمور به هو ـ ككل ـ تعبيد الكعبة المباركة بما حولها لهؤلاء العباد ، إزاحةً لمعالم الشرك ، وإراحة للموحدين بمعالم وطقوس التوحيد ، فيعم تطهيره عن كل الأرجاس ظاهرة وباطنة[٢] .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٢٣ عن تفسير القمي في الآية قال الصادق (عليه السلام) يعني نحّ عنه =

وقد تلمح « طهرا . . » بأولى وأحرى إلى طهارة نفوس هؤلاء ، وطهارة ملابسهم وأبدانهم ، وطهارتهم عن الأحداث ، فمثلث الطهارة قد تعنى ضمن المعني من « طهرا »[1] .

ولان أظهر مصاديق « بيتي » ـ الموسَّع إلى المسجد الحرام ـ هو نفس الكعبة المباركة ، فقد يظهر من الآية جواز الصلاة في جوف البيت ، وأما الطواف فلا يشرع إلاَّ حول البيت لنص آخر « ثم ليطوفوا بالبيت العتيق » وكيفما توجهت في جوف البيت كنت متجهاً الى القبلة لأنه كله قبلة من داخله كما هي من خارجه ، اللهم إلاّ من يقوم على أشراف سطح البيت فليست صلاته إلى القبلة فلا تصح ، إلا مستقبلاً لسائر الأشراف .

وليس يعني «حيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » إلاّ الخارجين عن البيت والمسجد الحرام ، حيث الشطر هو الجانب ، وهي تعني شطر المسجد الحرام .

﴿ وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(١٢٦) .

هنا « هذا بلداً آمناً » لا تعني انه لم يكن حينذاك بلداً ، حيث المفعول

= المشركين ، وقال : لما بنى ابراهيم البيت وحج الناس شكت الكعبة الى الله تبارك وتعالى ما تلقى من انفاس المشركين فاوحى الله اليها قرّي كعبتي فاني ابعث في آخر الزمان قوماً يتنظفون بقضبان الشجر ويتخللون .

(١) المصدر في كتاب العلل بسند متصل عن عبيدالله بن الحلبي قال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) ايغتسلن النساء اذا اتين البيت ؟ قال : نعم ـ ان الله عز وجل يقول : ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فينبغي للعبد الاّ يدخل إلاّ وهو طاهر قد غسل عنه العرق والأذى وتطهر .

الثاني « آمناً » يكفي لجديد الجعل ، فـ « هذا » إشارة الى البلد كما في ابراهيم « رب اجعل هذا البلد آمناً » (٣٥) [١] .

فقد تطلّب أمنه في حقلي التكوين والتشريع كما شرحناهما في آية « ابراهيم » ـ ثم « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » يُنضاف الى اهله المؤمنين « ومن كفر » ولكن رزقه بدعاءه ليس لينجيه من عذاب الله حيث « فأمتعه قليلاً » وكل متاع الدنيا قليل ! .

« ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير »وقد يكون الطائف من ثمرات الحرم كما دعى الخليل فأعطاه الجليل الطائف لتكون من رزق الحرم [٢] .

ثم « الثمرات » تعم ثمرات القلوب الى ثمرات القوالب كما يروى عن ائمة الهدى عليهم السلام [٣] .

---

(١) تفصيل البحث عن موقفي الدعائين تجده في تفسير آية ابراهيم .

(٢) الدر المنثور ١ : ١٢٤ ـ اخرج الأزرقي عن محمد بن المنكدر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من فلسطين » اقول : قد يعني من ذلك النقل وضع مماثل لقرية فلسطين فيه حيث الطائف يشبهها في جوّها ومنظرها وثمارها ، وفي نور الثقلين ١ : ١٢٤ عن العلل عن ابن مهزيار عن الرضا (عليه السلام) في الطائف : أتدري لم سمي الطائف ؟ قلت لا ، قال : ان ابراهيم (عليه السلام) دعىٰ ربه ان يرزق اهله من كل الثمرات ، فقطع له قطعة من الاردن فاقبلت حتى طافت بالبيت سبعاً ثم أقرها الله عز وجل في موضعها ، فانما سميت الطائف للطواف بالبيت .

(٣) الدر المنثور ١ : ١٢١ ـ اخرج احمد عن ابي قتادة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) توضأ ثم صلى بأرض سعد بارض الحرة عند بيوت السقيا ثم قال : اللّهم ان ابراهيم خليلك عبدك ونبيك دعاك لأهل مكة وانا محمد عبدك ورسولك ادعوك لاهل المدينة مثل ما دعاك ابراهيم بمكة ، ادعوك ان تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت الينا مكة ، واجعل ما بها من وباء الخم ، اني حرمت ما بين لا بيتها كما حرمت على لسان ابراهيم الحرم .

ولقد تصبغ دعاء ابراهيم لأهل البلد الحرام بما صبغه الله من قبل « لا ينال عهدي الظالمين » إفادةً له من هذه العظة البالغة ، محترساً في دعاءه محدداً المرزوقين من اهله بمن آمن وقد تبرء من قبلُ من المشركين « فلما تبين انه عدو لله تبرء منه » (٢ : ٢٥٩) .

ولكن يبقى هنا مجال السؤال : هل إن طلب الرزق للمشرك ضمن المؤمن ، هو من الإستغفار له ؟ طبعاً لا ! ولكنه استرحام قد يحوم حوم الإستغفار .

فانما حصر الخليل دعاءه في المؤمنين حائطة على مرسوم الدعاء ، ولكيلا يكون مطلقاً يقيَّد كما قيِّدت « ومن ذريتي » وقد حسره عن حصره الجليلُ ، ولأن هذا الرزق ليس ليختص بالمادي منه المؤمنين « قال ومن كفر . . » ولكن كيف ؟

إنما « سنمتعه قليلاً » ، ثم الرزق الآخر وهو الروحي الإيماني يختص بالمؤمنين ، وكما اختص عهد الإمامة بغير الظالمين ، وقد يروى أن الرسول (ص) دعى لأهل المدينة كما دعى ابراهيم لأهل مكة [1] .

ذلك وإلى رسم راسم لمشهد تنفيذ الخليل باسماعيل لأمر الجليل بإعداد البيت وتطهير « الطائفين والعاكفين والركع السجود » :

ـ وفيه اخرج مسلم عن ابي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اللهم ان ابراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وانه دعاك لمكة واني ادعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه ، وفيه اخرج الطبراني في الاوسط عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . واجعل مع البركة بركتين .

(١) الدر المنثور ١ : ١٢٨ ـ اخرج الأزرقي عن ليث بن معاذ قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا البيت . . .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾١٢٧ .

قد تعني « القواعد من البيت » أن ليس البيت هو القواعد والبنيان ، مهما كانت منه ، إذاً فالبيت هو المربع الخاص من سطح الأرض ، ثم من فوقها إلى السماء السابعة ، وكذلك من تحتها ، عمود مستقيم يربط أعلى النُقَط من الكون إلى أدناها ، وقد يصدقه ما يروى عن الرسول (ص) :

«هذا البيت خامس خمسة عشر بيتاً سبعة منها في السماء وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى ، وأعلاها يلي العرش البيت المعمور ، لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى ، ولكل بيت من أهل السماء ومن اهل الارض من يعمره كما يعمر هذا البيت » (١) .

وقد يعني البيتُ المعمورُ - حيث يلي العرش - السدرة المنتهى ، التي انتهى اليها الرسول (ص) في معراجه ، مجتازاً « من المسجد الحرام » - إلى سائر بيوت الله في السماوات والأرضين - « إلى المسجد الأقصى » وهو البيت الأقصى في أقصى الكون في السدرة المنتهى .

وهكذا يحق لخاتم النبيين واشرف الخلق اجمعين أن يطوف البيوت الخمسة عشر بأهليها ، وكما قال (ص) عن سفرته هذه : « رأيت في كل سماء ميادين فيها خلق كثير . . . » .

---

(١) عن الصادق (عليه السلام) يعني من ثمرات القلوب اي جهنم الى الناس ليثوبوا اليهم (تفسير البرهان ١ : ١٥٤) . وعن الباقر (عليه السلام) ان الثمرات تحمل اليهم من الآفاق وقد استجاب الله له حتى لا توجد في بلاد المشرق والمغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي انه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية وصيفية وخريفية وشتائية (تفسير بيان السعادة ١ : ١٤٥) .

لقد رفع ابراهيم القواعد من البيت واساعيل بما بوّءَ له ربُّه مكانَ البيت : « وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » (٢٢ : ٢٦) .

بوّأه له بما أوحى إليه هندسةَ المكان ليرفع القواعد عليه كما هندسّه ربُّه .

إذ لم تكن له ـ حينذاك ـ قواعد ولا أعلام ، إلّا بذلك الإعلام من الله الملك العلّام[١] .

وان هذا البيت المبارك ـ قبل ان يضع ابراهيم القواعد منه ـ كان بيتاً بأعلام أحياناً ودون أعلام أخرى ، كيف لا و « إن اوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين » (٣ : ٩٦) .

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٢٦ ـ اخرج الديلمي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : « جاءت سحابة على تربيع البيت لها رأس تتكلم ارتفاع البيت على تربيعي فرفعاه على تربيعها .

وفي نور الثقلين وعن الصادق (عليه السلام) ان اسماعيل (عليه السلام) لما بلغ مبلغ الرجال امر الله ابراهيم (عليه السلام) ان يبني البيت فقال : يا رب في اي بقعة؟ قال : في البقعة التي انزلت بها على آدم القبة ، فأضاء لها الحرم فلم يدر ابراهيم في أي موضع يبنيه فان القبة التي أنزلها الله على آدم كانت قائمة الى أيام الطوفان فلما غرقت الدنيا رفع الله تلك القبة وبقي موضعها لم يغرق ولهذا سمي البيت العتيق لانه اعتق من الغرق فبعث الله جبرئيل (عليه السلام) فخط له موضع البيت فانزل الله عليه القواعد من الجنة وكان الحجر لما انزله الله على آدم اشد بياضاً من الثلج فلما مسته ايدي الكفار اسودّ ، فبنى ابراهيم (عليه السلام) البيت ونقل اسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه ابراهيم (عليه السلام) ووضعه في الموضع الذي هو فيه الآن فلما بنى جعل له بابين ، باباً الى المشرق وباباً الى المغرب يسمّى المستجار ثم ألقى عليه الشجر والأذخر وعلّقت هاجر على بابه كساء وكان معها وكانوا يكتنون تحته .

فابراهيم (ع) ليس إلّا أوّل بانٍ لقواعده ، بما بوأه ربه من مكان البيت ، وقد كان بيتاً منذ آدم ، مطافاً له ولذريته ، بل ومنذ كانت خليقة على وجه الأرض ووجوه السماوات السبع والارضين السبع .

« ربنا تقبل منا » ما نرفع من قواعد البيت « انك انت السميع » دعاءنا سراً او جهراً « العليم » بنياتنا وطوياتنا ، و « العليم » سؤلنا ، وقد كان النبي (ص) إذا أفطر قال : « اللّهم لك صمنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل منا انك انت السميع العليم »[1] .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾١٢٨

وتراهما لمّا يسلما بعدُ لربهما حتى يسألانه « واجعلنا . . » ؟ إن الإسلام المسؤول هنا هو غاية التسليم ، وهي لا تحصل إلّا بعد العروج الى معارج الإيمان ، ومما استجاب لهما ربهما عن سؤل الإسلام : « فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين » (٣٧ : ١٠٣) .

و لذلك الإسلام درجات تدرّج ابراهيم الى ما دون العليا منها ، فان محمداً اوّل من اسلم :

« قل إني أمرت أن أكون أوّل من أسلم » (٦ : ١٤) حيث الأوّلية هنا ليست لتكون زمنية وقد كان قبله مسلمون كابراهيم واسماعيل ومن أشبه ، فهي أولية في الدرجة ، و « الايمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم قد

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٣٧ - أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . .

يكون في الحرم ولا يكون في الكعبة ، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم »[١] ولذلك الإسلام ميِّزات عن مطلق الايمان وسمات ، فلا يلبس الإسلام بظلم أو مشركٍ مهما لبسهما الإيمان : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن » (٦ : ٨٢) « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

ولقد قورن مطلق الايمان بمقارنات الظلم والشرك والفساد والعصيان ، ولم يقارَن بشيء منها ذلك الإسلام ، فلذلك يُعَد من ميِّزات المرسلين دون الإيمان فانه لكل المؤمنين بدرجاتهم .

لذلك يطلب الخليل الى ربه الجليل ان يجعله واسماعيل مسلمَين له ، بعد كل درجات الإيمان ودرجاتٍ من الإسلام .

ثم يتطلّب من ربه « ومن ذريتنا » ذريتي من إسماعيل « أمة مسلمة لك » وهم أهل بيت الرسالة المحمدية ، فالرسول فيهم هو محور الدائرة ، وذووه المعصومين هم الأشعة ، فلأن ابراهيم تطلّب لهم أصل الإسلام لا درجته ، لم يمنع سؤاله أن يكون محمد أوّل المسلمين .

ولقد أسلم إبراهيم لدرجة قبل هذا الوقت : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » (١٣١) ثم يتطلب بعده إسلاماً أرقى « ربنا واجعلنا مسلمين لك . . » فهو كما الإيمان درجات : « يا ايها الذين آمَنوا آمِنوا . . » .

ولو أنه إسلام قبل الايمان أم إسلام الإيمان ، لم يكن يسأله من ربه ، بل كان يفعله لأنه من فعله ، فإنما الإسلام المسؤول هنا هو قمة التسليم بما آمن وأسلم ، توفيقاً من الله .

---

(١) في الكافي عن سماعة عن الصادق (عليه السلام) : . . .

وهكذا نرى ذلك الإسلام أنه من حصائِل الإيمان ، كل درجة منه حصيلة درجة منه فانهما كلاًّ درجات :

فـ « إن تُسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٣٠ : ٥٣) « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » (٥ : ١١١) .

كما ويوصي المصطفين من عباده أن يكونوا من المسلمين : « إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون » (٢ : ١٣٢) .

ثم ولا تسمع أحداً من النبيين يؤمر بالإيمان ، اللهم إلاّ بالإسلام ، اللهم إلاّ شذراً في عرض ايمان المؤمنين بعرض الرسول تلفيقاً رفيقاً بينهما : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » على أن إيمانه هنا ليس بالله ، بل بما أنزل إليه ، طَمأنةً للمؤمنين .

ولا تجد الله يذكر أحداً منهم بخير أفضل من الإسلام « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً » (٣ : ٦٧) وتراهم ـ دوماً ـ يؤمرون بالإسلام ومرتبطون بالإسلام ! .

فذلك بدرجاته إسلام ، وقبله الإيمان بدرجاته ، ثم قبلهما إسلام لَمّا يصل إلى القلب فلم يصل لحد الإيمان : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » (٤٩ : ١٤) واين إسلام من إسلام ؟ ! .

وهنا « من ذريتنا » تختص دعاء الخليل بأمة مسلمة لله من ذرية ابراهيم من اسماعيل ، فلا تشمل الأمة الإسرائيلية حتى المسلمة منهم لأنهم من إسحاق ، دون إسماعيل ، ولا كلَّ المسلمين إذ ليسوا كلهم ولاجلُّهم من

اسماعيل ، أتراهم بعدُ هم كل بني هاشم فانهم من ذرية اسماعيل ، وكيف تعمهم ذلك الدعاء لإسلام ردفَ إسلام ابراهيم ؟ وفيهم عصات بغات طغات ! ولئن خُصَّت بعدولهم فليس كل العدول مسلمين بذلك المعنى الرفيع ، ثم لماذا تختص بهم وممن سواهم مسلمون أرقى واجل من جُلِّهم ؟ .

إذاً فهم مسلمون خصوص من ذرية اسماعيل ، والمعصومين الاربعة عشر عليهم السلام (١) أم هم أصدق مصاديقها ، وسائر الامة المسلمة من ولد اسماعيل هم على هامشها ؟ إلاّ إسلاماً أدنى مما لابراهيم واسماعيل والمحمديين المعصومين ، هو إسلام يحصل على ضوء الصمود والرقي فلماذا يسأله لها ولهم من الله .

فلا بد ـ اذاً ـ أنه إسلام العصمة القمة المرموقة ولمّا يصلا اليه إذ يرفعان القواعد من البيت .

وهكذا تكون « وتب علينا » فإنها ليست توبة عليهم من عصيان ، بل هي توبة رجوعاً عليهم برحمة خاصة تضمن لهم كامل الإسلام .

فقد يتوب الله على عبد يتوب إليه عن ذنب كما في آدم « وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (٢٠ : ١٢١) .

او يتوب على عبد رجوعاً برحمة خاصة تعصمه وتسدده عما لا يُحمد ، لولاها لكاد أن يقترفها او يقتربها حيث تكل الطاقات البشرية كما في يوسف « ولقد همت بها وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » (١٢ : ٢٤) وفي محمد (ص) :

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٠ في الكافي باسناده الى ابي عمر والزبيري عن ابي عبدالله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه . . ثم اخبر عن هذه الامة وممن هي وانها من ذرية ابراهيم وذرية اسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير الله قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم واسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه « اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

« ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً » (١٧ : ٧٤) وهكذا يكون ـ دوماً ـ توبة الله على اصفى المصطفين .

ثم « وأرنا مناسكنا » قد تعم الإراءة المعرفية الى اراءه فقهية ، فحين يرينا الله مناسكنا كما هي ، كان بامكاننا تطبيقها كما هي ، فتصبح حجة مقبولة مشكورة مجبورة ، وقد تعم « مناسكنا » مصدراً ميمياً واسم زمان ومكان ، والاراءة المعرفية تناسب الأولى .

وكأن « تب علينا » هي من الظروف الصالحة لـ « أرنا مناسكنا » إراءةً لملكوتها ، بعد هذه التوبة التي توصِّل إلى الملكوت .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾١٢٩ .

هناك « امة مسلمة لك » كانت ظرفاً ظريفاً لبلورة هذه الرسالة السامية هنا بدعاء ثان ، ولقد سمع الله دعاءه في اسماعيل كما في الاصل العبراني من تكوين التوراة :

(١٧ : ٢٠) : « وُلِيشمَعيل شِمَعْتيخا هِينِّهْ بِرَخْتِي أُوتـوا وَهيفْرتي أُوتوا وهِيربْتِي أُوتوا بِمْئُدْ مِئُدْ شِنيم عاسارْ نِسيئِيم يُولِدْ وِنْتَتِّيو لِغُويَ غادُل » ـ :

« ولإسماعيل سمعته : ـ ابراهيم ـ ها أنا أباركه كثيراً وأنمِّيه وأثمره كثيراً وارفع مقامه كثيراً بمحمّد واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل واجعله أمة كبيرة » .

وفي التكوين ٢١ : ١٢ « . . وابن الجارية ايضاً سأجعله أمة لانه نسلك » .

وقد سمي اسماعيل به لانه مسموع الرب في ولادته وفي نسل امة مسلمة من ذريته .

وفي الاصل الانقلوسي من « نبوئت هَيِّلذْ » : وحي الطفل : شَبُوياه شاباهْ بِهْيا شَعْطاطابا لِأزعابِتيا وورهَاباه دعبدا تِشوياه ويرحم إياطابا علْ بُوخَرا حبيبا :

يأسر أعداءَه ـ محمد المذكور قبل ـ في ساعة جيدة في ارض مرغوبة ويـرحمه الله هناك اجابة لدعوة ابراهيم لاسماعيل .

ذلك ـ ثم نجد التوراة تبشر في آيات أخرى ان ذلك الموعود من ولد قيدار بن اسماعيل في عدة تصريحات (١) .

(١) منها ما في اشعياء (٤٢ : ١ ـ ٢٠) ... لِتشُد البرية ومدنها والحظائر التي يسكنها قيدار وليرنّم سكان الصخرة وليهتفوا من رؤوس الجبال (١١) ليؤدوا المجد لله ويخبروا بحمده في الجزائر (١٢) . هذه بشارة لنبي من قيدار و « هو الولد الثاني لاسماعيل » (تك ١٣ : ٢٥) و « ابوه من اشهر قبائل العرب وبلادهم الجزيرة العربية » (اشعياء ٢١ : ١٦) .
فالصرخات التي تسمع من اهل قيدار وترنماتهم من الصخرة وهتافاتهم من رؤوس الجبال كل ذلك تصريحات لطيفة بشأن الرسول المبعوث من نسل قيدار ابن اسماعيل ، ترنمات من اعالي جبال مكة وعرفات ومنى و المشعر الحرام في حج البيت .
وفي الآية (١٠) منها : انشدوا للرب نشيداً جديداً تسبيحة له من اقاصي الأرض ياها بطي البحر ويامِلأه ويا ايتها الجزائر وسكانها .
والنشيد الجديد هو الشرعة الجديدة المحلقة على كل الجزائر من ذلك النبي الإسماعيلي، وفي بعض التراجم (١) تأتي هذه الآية هكذا : يسبحون الرب تسبيحاً جديداً ويبقى اثر سلطانه بعده واسمه « احمد » (٨٩) .
وفي اشعياء ٦ : ١ ـ ٢٢) توصيفات لمكة المكرمة بالكعبة المباركة وهذا الرسول المكي قائلاً :
« قومي استنيري فان نورك قد وافى ومجد الرب اشرق عليك[1] ها ان الظلمة تغشى الأرض والدجور يشمل الشعوب ولكن عليك يشرق الرب ويترائى عليك مجده[2] فتسير الأمم في نـورك والملوك في ضياء اشراقك[3] أرفعي طرفك الى ما حولك وانظري كلهم قد اجتمعوا واتوا إليك . بنوك من بعيد

(١) هذه ترجمة القسيس اوسكان الارمني في ترجمته لكتاب اشعياء المطبوعة ١٧٣٣ في مطبعة انتوني بورتولي وقد الفها في ١٦٦٦ ـ اي قبل ٦٧ سنة من طبعها .

وقد يروى عن النبي (ص) قوله : « انا دعوة ابراهيم »(١)، و « اني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينة وسأنبئكم بأول ذلك

ـ يأتون وتحملين بناتك في حضنك؛ حينئذ تنظرين وتتهللين ويخفق قلبك ويرحب اذ تنقلب اليك ثروة البحر ويأتيك غنى الأمم° كثرة الإبل تغشاك بكران مدين وعيفة . كلهم من « شبا » يأتون حاملين ذهباً ولباناً يبشرون بتسابيح الرب٦ .

كل غنم قيدار تجتمع اليك ـ وكباش نبايوت تخدمك . تصعُد على مذبحي المرضي لدي واُمجّد بيت جلالي٧ من هؤلاء الطائرين كالسحاب وكالحمام الى كواها٨ إن الجزائر تنتظرني وسفن ترشيش مستعدة منذ الأول ان تأتي ببنيك من بعيد ومعهم فضتهم وذهبهم لإسم الرب إلهك ولقدوس اسرائيل لانه قد مجدك٩ وبنو الغرباء يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك لأني في غضبي ضربتك وفي رضاي رحمتك١٠ وتنفتح ابوابك دائماً لا تغلق نهاراً ولا ليلاً ليؤتى إليك بغنى الأمم وتُحضر إليك ملوكهم١١ لان الامة والمملكة التي تتعبد لك والامم تُخرب خراباً١٢ مجد لبنان يأتي اليك السرو والسنديان والشربين لزينة مَقدسي وأمجّد موطىء قدميّ١٣ وبنو الذين عنّوك يفدون إليك خاضعين ويسجد لإخامص قدميك كل من ازدراك ويدعونك مدينة الرب١٤ وعاً أنك كنت مهجورة متروكة فلم يكن أحد يجتاز فيك سأجعلك فخر الدهور وسرور كل جيل فجيل١٥ وترضعين لبن الأمم وترضعين ثدي الملوك وتعلمين أني أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب١٦ آتي بالذهب بدل النحاس وآتي بالفضة بدل الحديد وبالنحاس بدل الخشب وبالحديد بدل الحجارة واجعل ولاتك سلاماً ومسخريك عدلاً١٧ لا يسمع من بعد بالجور في ارضك ولا بالدمار والحطم في تخومك بل تدعين اسوارك خلاصاً وابوابك تسبيحاً١٨ لا تكون الشمس من بعد نوراً لك نهاراً ولا ينيرك القمر بضيائه ليلاً بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك يكون فخرك١٩ لا تغرب شمسك من بعد وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نوراً ابدياً وتكون ايام مناحتك قد انقضت٢٠ ويكون شعبك كلهم صديقين والى الأبد يرثون الأرض . هم فرع غرسي وعمل يديّ الذي أتمجد به٢١ القليل منهم يصير ألفاً والصغير يصير امة عظيمة . انا الرب أعجل ذلك في ميقاته »٢٢ .

(١) الدر المنثور ١ : ١٣٩ ـ اخرج ابن سعد في طبقاته وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : انا دعوة ابراهيم ، قال : وهو يرفع القواعد من البيت : ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم . . حتى اتم الآية .

دعوة ابي ابراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين » (١) .

« وابعث فيهم » هذه الأمة المسلمة من ذريتنا « رسولاً منهم » وكلهم نور واحد فإن : أولنا محمد آخرنا محمد أوسطنا محمد وكلنا محمد صلوات عليهم اجمعين .

« رسولاً يتلو عليهم آياتك » تكوينية : آفاقية وأنفسية،وتدوينية : قرآنية وكتابيات أخرى .

ولماذا « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » هنا « ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » في ثلاث أخرى (٢) أترى تعليم الكتاب والحكمة هو المقدم على التزكية كما هنا ، ام هي المقدمة عليها كما في الثلاث الأخرى ، ام هما صنوان لا يتفاضلان ، فهما متعاضدان مع بعضهما البعض متقارنان ؟ فلماذا تتقدم التزكية ثلاثة أضعاف تقدم التعليم عليها ؟ .

علّ الأضعاف في التزكية للتأشير إلى أهميتها ، حيث التعليم ذريعة الى

---

(١) المصدر اخرج احمد وابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن العرباض بن سارية قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إني عند الله . . .
وفيه اخرج احمد وابن سعد والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن ابي امامة قال قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كان بدءُ أمرك ؟ قال : دعوة ابراهيم وبشرى عيسى ورأت امي انه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام .

(٢) وهي : ﴿ كما ارسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (٢ : ١٥١) و ﴿ لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً من انفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ (٣ : ٦٤) و ﴿ هو الذي بعث في الاميين رسولاً يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ (٦٢ : ٢) .

التزكية فهي رأس الزاوية في محاولات الرسالة ، فلو أمكنت التزكية دون تعليم لما كان ضرورة ، وهما صنوان متعاملان ، كلما ازداد التعليمُ المعرفةُ ازدادت التزكية ، وكلما ازدادت التزكية ازداد العلم والمعرفة فـ « العلم نور يقذفه الله في قلب من يريد ان يهديه » .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾١٣٠ .

« ملة ابراهيم » هي توحيد الإسلام وإسلام التوحيد لوجه الله ، و لايرغب عنها إلّا من سفِه نفسَه : حملاً لها على خفة العقل والإدراك ، فالنفس الانسانية فطرياً وعقلياً راغب الى هذه الملة المسلمة الحنيفة ، فلا يرغب عنها إلى سواها إلّا من حمل نفسه على التنازل عن ذاتيتها ، استخفافاً بها وتغرُّباً عنها .

« ولقد اصطفيناه في الدنيا » بقمة الإصطفاء فانه من أصفى الأصفياء « وإنه في الأخرة لمن الصالحين » كما تطلّبه يوم الدنيا « وألحقني بالصالحين » وسعى له سعيه ، ومتى اصطفيناه في الدنيا ؟ :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾١٣١ .

وعلّه إسلامه بفعله لما أُمِر به قبل إسلامه المطلوب من ربه حين دعا « واجعلنا مسلمين . . . » .

فهناك إسلام قضيةَ كمال الإيمان ، وهنا إسلام قضية الأمر الخاص ، وعلّه لأمر خاص كما « أسلما وتله للجبين » ثم إسلام بعدهما تطلّباه إذ يرفعان القواعد من البيت ، وقد يجمع مراتب الإسلام حديث قدسي يذكر عيشاً أهنى وحياةً أبقى (١) .

---

(١) في البحار عن ارشاد الديلمي قال الله سبحانه يا أحمد هل تدري اي عيش اهنى وأي حيوة أبقى ؟

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾١٣٢ .

« بها » لا مرجع صالحاً لها إلّا « ملة ابراهيم » دون الإسلام لذكوريته ، ثم وهذه هي ملة الإسلام في توحيد العقيدة والعمل .

= قال : اللهم لا ـ قال : اما العيش المنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكرى ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقي ، يطلب رضائي في ليله ونهاره ، وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه وتعظم الآخرة عنده ، ويؤثر هواي على هواه ويبتغي مرضاتي ، ويعظم حق نعمتي ، ويذكر عملي به ، ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة او معصية ، وينقّي قلبه عن كل ما أكره ، ويبغض الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً ، فاذا فعل ذلك اسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه وفراغه واشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي ، وأضيق عليه الدنيا ، وأبغض اليه ما فيها من اللذات وأحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذّر الراعي على غنمه مراتع الهلكة ، فإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً وينقل من دار الفناء الى دار البقاء ، ومن دار الشيطان الى دار الرحمن ، يا أحمد ولأزيّنه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش المنيء والحياة الباقية ، وهذا مقام الراضين فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال : أعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل ، وذكراً لا يخالطه النسيان ، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين ، فإذا أحبني احببته وافتح عين قلبه إلى جلالي ، ولا أخفي عليه خاصة خلقي ، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم ، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي ، وأعرّفه السر الذي سترته عن خلقي ، وألبسه الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم ، ويمشي على الأرض مغفوراً له . واجعل قلبه واعياً وبصيراً ، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار ، وأعرّفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول والشدة وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء ، وأنومّه في قبره ، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه ، ولا يرى غم الموت وظلمة القبر واللّحد وهول المطّلع ، ثم انصب له ميزانه وأنشر ديوانه ، ثم اضع كتابه في يمينه فيقراه منشوراً ، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً ، فهذه صفات المحبين ، يا أحمد إجعل همك هماً واحداً ، واجعل لسانك لساناً واحداً ، واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً ، من يغفل عني لم أبال في أي وادٍ هلك .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلَٰهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾١٣٣ .

هنا في ذكر اسماعيل في عداد آباء يعقوب دليل السعة في لغة الأب فهي تختلف عن الوالد ، فابوه آزر في آيات ليس والدَه ، لاسيما وانه تبرءَ من آزر « فلما تبين أنه عدو لله تبرءَ منه » ثم نراه في أواخر عمره يدعو لوالديه « ربنا اغفر لي ولوالدي » إذاً فوالده غير أبيه .

وإنه لمشهد عميق التدليل ـ في لحظات الموت ـ على عمق عقيدة التوحيد بين آل ابراهيم ، فيعقوب ـ وهو رأس الزاوية في بيت اسرائيل ـ لا يوصي عند احتضاره بمال ، ولا يشغله بال ، إلاّ ذلك الأمر الجلل فهو المبتده وهو المآل ، فهو ـ فقط ـ تَرِكَتُه وتركة آباءه ، قضية كبرى لا تشغله عنها سكرات الموت ، بل هي تشغله عما سواها .

« وما تعبدون من بعدي » إختبار حاسم تظهر فيه مدى الدعوة التوحيدية لهم طول حياته الرسالية ، يتلوه جواب حاسم « نعبد إلهك و . . » أن إلهنا جميعاً إلٰه واحد ، خلاف المشركين الذين لكلٍّ منهم إلٰه او آلهة ، ثم « ونحن له مسلمون » لافقط مقرون وإنما إسلام له قلباً وقالباً .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١٣٤)

« تلك أمة » موحدةٌ مسلمةٌ « قد خلت » فخلف من بعدها خلْف أضاعوا ملتها الوحيدة الموحدة المسلمة ، وتخلفت عن شرعة الله المرسومة بينها ، فـ « لها ما كسبت » من خير « ولكم » الخَلْف المتخلف « ما كسبتم » ـ « ولا تُسألون » أنتم «عما كانوا يعملون» كما وهم لا يسألون عما كنتم تعملون، كما «ولكم»

المسلمين « ما كسبتم . . . » أمم ثلاث لكلٍّ ما كسبت وعليها ما أكتسبت . وليست الإمة في ميزان الله أمة الجنس والإقليم والعنصر والتراب والدم ، فإنها موازين لحيونة الأمم ، أم وإنسانيتها المنفصلة عن شرعة الله ، وإنما هي جماعة ذات قصد واحد : خيراً أو شراً ، مهما اختلفت أجناسهم وأواصر الأنساب والقرابات فيما بينهم .

أجل - إنها أمة دينية وليست أمة طينية ، وعلى هذا القياس فالكتلة الموحدة المسلمة من آل إبراهيم « أمة قد خلت لها ما كسبت » ثم الكتلة الكافرة من آل إبراهيم أمة « ولكم ما كسبتم » وكذلك المسلمون ، من آمن منهم حق الإيمان ومن لم يؤمن ، فلكلٍّ حساب حسب الصالحات والطالحات ، دونما فوضى جزاف بحساب القوميات والعنصريات أم سائر الصِّلات غير الروحية .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١٣٥) .

قالت الهود : « كونوا هوداً تهتدوا » وقالت النصارى : « كونوا نصارى تهتدوا »[1] فكلٌّ يتمسَّك بطائفيةٍ خاوية عن « ملة إبراهيم حنيفاً » فمجرد كونك من أولاءِ أم هؤلاء يكفيك هدىً ! « قل » لا هذا ولا ذاك « بل ملةَ إبراهيم حنيفاً » لا نسل إبراهيم كإبراهيم - إسرائيل وسواها - وإنما « ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » هذه هي الهدى دون سواها ، أياً كنت في أصلك ونسلك ، في وصلك وفصلك ، وقد يروى عن رسول الهدى (صلّى الله عليه

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٠ عن ابن عباس قال قال عبدالله بن صوريا الأعور للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي ، وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله فيهم . . .

وآله وسلم) قوله : بعثت بالحنيفية السمحة [١] ، وترى الحنافة لمّا تكفي هدىً لأنها الإعراض عما يخالف الحق ، ويقابله الجَنَف ، فلما ذا ـ إذاً ـ « وما كان من المشركين » ؟.

علّه لأنهم تمسكوا بظاهر الحنيفية وانتساب النسب إلى إبراهيم الحنيف ، فلكي يسد عليهم كل ثغرات الجَنَفِ تحريفاً لمعنى الحَنَف يصرِّح « وما كان من المشركين » وقِسم من الهود والنصارى مشركون .

ولقد وصف « حنيفاً » وصف إيضاح ب « مسلماً » في أخرى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (٣ : ٦٧) مما يلمِّح أنهم كانوا يتذرعون بصيغة « حنيفاً » لإلصاق أنفسهم إلى إبراهيم ، وكأن « حنيفاً » لقب يلقب به نسل إبراهيم أيّاً كانوا ، فجاء « مسلماً ـ وما كان من المشركين » كإيضاح يخيِّب آمال المشركين الحنفاء الجنفاء !.

فلان الملة الإبراهيمية هي الناصعة بين الغابرين في خالص التوحيد ، المعروفة لدى الخواص والعوام ، لذلك فليُعلن بملته الوحيدة الكبرى بين أهل الملل الثلاث وسواهم من الموحدين ـ رفضاً لكل الفواصل المختلقة ـ من لدن إبراهيم إلى موسى والمسيح وإلى خاتم النبيين (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَما أُوتِيَ مُوسَىَ وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(١٣٦) .

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٠ ـ أخرج احمد عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . ، وفيه عن ابن عباس قال قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الاديان أحب إلى الله ؟ قال : الحنيفية السمحة ، وعن سعد بن عبدالله بن مالك الخزاعي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : احب الدين إلى الله .

« قولوا » أياً كنتم من الملل ، سلسلة موصولة متواصلة من ملل كتابية « آمنا بالله » كأصل هو رأس زوايا الإيمان ، ومن ثم فروع:« وما أنزل إلينا » ككل الكتابيين، « وما أنزل الينا » كمسلمين،والإيمان بكتابات السماء ذريعة للإيمان بالقرآن وكما يروى عن النبي (صلّ الله عليه وآله وسلم) :«آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن »(١).

أم و « قولوا » أيها المسلمون « آمناً بالله وما أنزل إلينا »: القرآن ـ لا فحسب بل « وما أنزل إلى إبراهيم . . . وما أوتي النبيون » قبل إبراهيم وبعده ككلٍّ .

وترانا كيف نؤمن بعدما أنزل إلينا ـ وهو ناسخ ـ بما أنزل إلى سائر النبيين وهي منسوخة ؟ .

إنه إيمان تصديق بكل ما أنزل الله أنه من الله ، ثم وإيمان تطبيق لكلٍّ في زمنه ، فتطبيق لشرعة القرآن الناسخة للبعض من سائر الشرائع ، وهو تصديق لها إذ تبشر بالقرآن ، ثم ومحور الإيمان هو الإيمان بالله وبرسالاته واليوم الآخر ، الأصول الأساسية لكل إيمان ، « لا نفرق بين أحد من رسله » في هذه الأصول ، ولا سيما رأس الزاوية وهو توحيد الله « ونحن » ككل « ونحن » المسلمين « له » لا لسواه « مسلمون ».

كما و « لا نفرق بين أحد منهم » في ضابطة الإيمان ، أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فلا تفريق هنا أو هناك ، وذلك كلمة الإيمان الجاسم الحاسم « لا نفرق بين أحد من رسله » حيث « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٠ ـ أخرج ابن ابي حاتم عن معقل بن يسار قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . . . » (٢ : ٢٨٥) .

هذه هي قضية الإيمان المجرد عن إنحيازات طائفية أم قبلية أما هي من امتيازات جاهلة قاحلة لا دور لها في حقل الإيمان الصالح .

وترى لماذا اختلاف التعبير لمنازل الوحي ب « ما أنزل » أولاً و « ما أوتي » ثانياً ، وهذا أعم من الوحي كما « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (٣ : ١٢) والوحي النازل الى موسى وعيسى أعلى نازلاً ومنزلاً من النازل الى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ؟ ! .

علّه لأن أصل الوحي هو النازل على إبراهيم ، ثم تبعاً له ولمن تبعه ، ومن ثم أوتي موسى وعيسى والنبيون نفسَ الوحي مهما اختلف وحي عن وحي في درجات وبعض الطقوس ، وذلك معاكسة لما كان يزعمه الهود والنصارى أنهم الأصل في الوحي .

وكما أن « أنزل » أعم من الإتياء والإعطاء ، كذلك « أوتي » أعم من الوحي وسواه ، فهذان التعبيران لسلسلة الرسالات الحاملة للوحي ـ علّهما ـ للتدليل على أن النازل إلى المرسلين ليس عطية لهم فهم ما لكوها ، بل هو إتياء كأمانة ووديعة مرجوعة بعد تطبيقها ، فتلك الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات في أصول الدعايات والإتجاهات ، هي القاعدة المتينة الرصينة للتصور الإيماني المسلم السليم ، السائرة في كل الدروب على هدى ونور ، التي تجمع كل الشعوب ـ بلا تمييز ـ على درب الإسلام التام والسلام العام ، مفتوحاً للناس جميعاً وكل العالمين في مودة ووئام ، ذلك هو الإيمان الإسلام السليم أياً كان وأيان ومن أيٍّ كان :

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾(١٣٧) .

« آمنوا بمثل . . . » دون « آمنوا بما آمنتم به » تنازلٌ في درجات الإيمان ، فإنهم لم يكونوا مؤمنين بمثل ذلك الإيمان المجرد عن حسابات دخيلة فيه ، فكيف يُدعون إلى نفس ذلك الإيمان المجرد ، إلاّ قفزه لا تناسب سليم الدعوة والدعاية .

فليؤمنوا أولاً « بمثل ما آمنتم به » إيماناً بكل ما أنزله الله على رسله دون تمييز ، ثم وذلك الإيمان المجرد يجرهم بطبيعة الحال إلى نفس ما آمنتم به من رسالة الإسلام ، حيث الإيمان السليم بالوحي الكتابي ، يجذب الى الإيمان بمحور الوحي : القرآن العظيم ، ولا يعني « مثل ما آمنتم به » مثل الله الذي آمنتم به ، حتى تسقط « مثل » عن لفظ القرآن (١) اذ « ليس كمثله شيءٌ » بل هو مماثلة في أصل الإيمان ، لا الذي يُؤمَن به ، إيماناً بالله كما آمنتم ، وإيماناً برسالات الله كما آمنتم .

« وإن تولوا » عن مثل هذا الإيمان « فإنما هم في شقاق » تقسيم لبلد الإيمان الى شقين : إسرائيلي وإسماعيلي ، وذلك شَقٌّ لوحدة الدين والإيمان ، وخروج عن واقع الإيمان إلى اللاّإيمان ، أم هو أنحس ـ أحياناً ـ من الكفر المطلق ! .

إذاً« فسيكفيكهم الله » بعدما أديت واجب الدعاء وبالغ الدعوة ، فالله هو

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٠ عن ابن عباس قال : لا تقولوا « فان آمنوا بمثل ما آمنتم به » فان الله لا مثل له ، ولكن قولوا : فان آمنوا بالذي آمنتم به ، وفيه عن ابي جرة كان ابن عباس يقرأ : فإن آمنوا بالذي آمنتم به .

الكافي لا سواه ، فلا ترجُ في سدّ ثغراتهم إلاّ إيّاه « وهو السميع » لحواركم حول الدين ، و « السميع » لدعاءِك وسؤالك حفاظاً على الدين « العليم » بما يصلحك ويصلح هذا الدين ، ف « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » (٥ : ١٠٥) وكل ما في البين حقاً ولا حِوَل عنه هو :

﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾(١٣٨) .

آية فريدة في صيغة التعبير ، عرضاً جامعاً لما يتوجب الإلتزام به على كل العالمين ، فما هي « صبغة الله » حتى نصطبغ بها او نلتزمها ؟ وليست لله صبغة يمكن الإصطباغ بها ، ولا أية صبغة ! .

« صبغةَ الله » هي من إضافة الفعل الى فاعله ، كخلق الله وروح الله واخلاق الله وشرعة الله أم أي فعل لله ، وهي كفطرت الله أدبياً ومعنوياً مهما كانت اعم منها ومن سائر الصبغة ، تكوينية وتشريعية ، فهي مفعول مطلق نوعي تعني صبغاً خاصاً إلٰهياً لقبيل الإنسان وسائر المكلفين ، مما للإنسان في أصله خيار كمتابعة الفطرة والعقل والشرعة الإلٰهية ، أم ليس له خيار كأصل الفطرة ، أمَّا يقدم سببه كتطبيق مالَه خيار ثم الله يهديه كما اهتدى .

وإضافة الفعل إلى فاعله كما هنا تقدِّر « من » النشوية ، أي : صبغة ناشئة من الله كسائر خلق الله .

فليست من إضافة الصفة الى موصوفه تقديراً ل « في » ان تكون هذه الصبغة في الله كسائر صفاته الذاتية ، ام «ل» حيث تعم ما تعنيه « من ـ و ـ في » .

ففي ذلك المثلث من تقادير الجار المحذوف لا تصلح هنا إلا « من » اذ ليست لذات الله صبغة وحتى المعنوية ، حيث الصبغة حالة خاصة من الصَّبغ

وليست له تعالى حالة دون أخرى إذ لا حدّ لذاته وصفاته حتى تصبغ بصبغة ! وإنما المعني منها ما صَبَغ به خلقه .

ولقد صبغ الله الناس كلهم بصبغة الفطرة ، ثم العقلية التي تتبناها ، ثم شرعة من الدين الهادية لها ، الشارحة لأحكامها، الشارعة سبيلها الى الخير المُرام ، ولقد اختصرت في : « آمنا بالله وما أنزل الينا و . . . » ولها ـ ككل ـ حصيلة مزيد الهدى والتقوى : « الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤٧ : ١٧) .

ثم وهي « الإسلام » [١] و« الولاية في الميثاق »[٢] : إسلاماً لله ورسله وكتبه ، وولاية توحيدية ورسالية أما هيه من ولايات إسلامية ، كلٌ على درجاته .

وقد تتعلق « صبغة الله » بكلٍّ من « اسلمت لرب العالمين »ـ « اصطفى لكم الدين »ـ « نعبد إلهك . . »ـ « بل ملة إبراهيم »ـ « آمنا بالله . . » « آمنوا بمثل ما آمنتم » والكل راجع إلى الإسلام والولاية في الميثاق في ذلك المثلث البارع الذي هو كيان الإنسان كإنسان : « فطرت الله ـ العقل ـ شرعة الله »! .

صبغة سابغة سابقة على كل صبغة لأنها « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » كما صبغنا ـ في مثلث الفطرة والعقلية والشرعة ـ بعبادته السليمة عن كل إشراك ودون أي عراكٍ .

---

(١) تفسير البرهان ١ : ١٥٧ يروي تفسير « صبغة الله » بالاسلام عن عبدالله بن سنان وحمران ومحمد بن مسلم وأبان وعبدالرحمن بن كثير كلهم عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال « الصبغة هي الإسلام » .

(٢) المصدر عن الكافي عن ابي عبدالله (عليه السلام) في الآية قال : صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق .

ويا له من تعبير منقطع النظير ، يتصبغ أولاً ب « صبغة الله » أمراً إلـزامياً من الله ، بمـواصفة غـالية تجعلهـا في أعلى قمم الحسن والجمـال ، وثانيـاً بإقـرار المصبـوغين بهـا « ونحن » المسلمون المحمـديون « لـه » لا لسواه « عـابدون » لا نعبد إلّا إياه ، كحصيلة بارزة لصبغة الله .

فحذار حذار في دين الله وشرعته عن كل صبغة غـير إلٰهية في قـال او حال او فعال على أية حال ، في تكوين او تشريع أم أية صبغة ربانية .

وكما الصبغة المادية تـظهر عـلى المصبوغ كـأولى المظاهـر ، كذلـك الصبغة الـروحية من طبعهـا الظهـور في كافـة المظاهـر الحيويـة الإنسانيـة ، وقد سميت بصبغة الله عناية بتلك الظاهرة في مظاهر الأقوال والأفعال ، كما هي في كـامنات العقـائد والأحـوال ، فكل إنـاء بما فيـه يرشـح ، فالفـطرة ـ وهي أعمق أعمـاق الإنسـان ـ لمّا تصبـغ بصبغة الله ، فلتُصَبِّق ـ عـلى آثارهـا ـ النفس بكل جنودها ومراحلها الخيِّـرة : عقلاً وصـدراً ولباً وقلبـاً وفوآداً ، ومن ثم في كـافة الحـواس ومظاهرها في كافة الحقول ، والقلب الفوآد هو المحـور الأصيل كـإمام الائمـة في مملكـة النفس الإنساني ، حيث « القلوب ائمـة العقـول والعقـول ائمـة الأفكـار والأفكار أئمة الحواس والحواس ائمة الأعضاء » .

وكل صبغة دون صبغة الله هي صبغة ابليسية مهما اختلفت دركاتها ، كما والصبغة الإلٰهية ـ في حقل التكوين والتشريع والتكليف ، والواقع الحاصل بينها ـ درجات .

أجـل « صبغـة الله » لا الصبغـة اليهـوديـة والنصـرانيـة[1] أمّا هيه من

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤١ عن قتادة قال : ان اليهود تصبغ ابناءها يهود وان النصارى تصبغ ابناءها نصارى وان صبغة الله الاسلام ولا صبغة احسن من صبغـة الله الإسلام ولا أطهـر وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومَن كان بعده من الأنبياء .

المختلَقات الزور والغُرور التي هي من صَبغ الغَرور « وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً »!.

وكما أن « فطرت الله » آية يتيمة ، كذلك « صبغة الله » وهي أعم منها وأتم وأطمّ حيث تعم كل صبغة ربانية تكوينية او تشريعية ، ما بالإمكان الإلتزام له أو تحصيله حتى يصبح صاحبها من أهل الله وخاصته وخيرته وحزبه ، اللهم اجعلنا منهم بحقهم .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾(١٣٩) .

فلماذا المحاجة في الله : في ذاته وصفاته وأفعاله ، في وحيه وآياته ، لماذا المحاجة فيه بين من يربّبه دون نكير حسب الأصل الكتابي وصبغة الله ، ثم « ولنا أعمالنا » دونكم « ولكم أعمالكم » دوننا كما « ونحن له مخلصون » دونكم ؟ .

إن المحاجة في الدين هي حصيلة أحد أمرين : الإختلاف فيمن يُعبد « وهو ربنا وربكم » او الإختلاف في : أيّ الأعمال أصلح وأقرب الى الرب

ـ وفيه أخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان بني اسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ ربك ؟ فقال : اتقوا الله فناداه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم ان اصبغ الألوان الاحمر والابيض والاسود والالوان كلها في صبغتي وانزل الله على نبيه « صبغة الله . . . » اقول : ولكنها لا تعنى صبغة الألوان اللهم إلاّ هامشاً كخلق الله ومنه الاصباغ كلها ، حيث الصبغة هيئة خاصة من الصبغ فلا تعني ـ مبدئياً ـ كل صَبغ .

والنصارى يشتغلون بصبغ اولادهم في سابع الولادة مكان ختان المسلمين ، بغمسهم في الماء الأصفر المسمى عندهم بالمعمودية ، وهو اسم ماءٍ غسل به المسيح (عليه السلام) ، فمزجوه بماءٍ آخر وكلما استعملوا منه جعلوا مكانه ماءً آخر .

« ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » لا فحسب حتى نستوي فيها بل « ونحن له مخلصون » معرفياً وعبودياً دون إشراك ، فلما ذا ـ إذاً ـ تحاجوننا ؟! ولقد كانت اليهود والنصارى ـ كلٌ ـ يختص الرب بنفسه بآصرة البنوة الإلٓهية المزعومة او النبوة الممتازة المدّعاة ، فرد عليهم هذه التهوسةَ العمياءَ بأن ربوبيته ـ كأصل ـ هي بيننا وبينكم على سواء ، ثم ونحن نختلف في مدارج الزلفى إليه حسب الأعمال والإخلاص فيها ، فمن هو أخلصُ منا لله معرفياً وعملياً ؟ .

ثم إذا اختصت الهدى والزلفى بمن كان هوداً او نصارى ، فما بال إبراهيم الخليل[٤] أهو كما نحن ـ في زعمكم ـ بعيد عن الهدى وأنتم به تتسببون وتفتخرون ؟ :

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١٤١)

لقد كان هؤلاء قبل اختلاق اليهودية والنصرانية ، فهل كانوا ـ بعد ـ هوداً أو نصارى ؟ .

وعجباً من حمقهم في عمقهم أنهم كانوا يتفوهون بهذه الفرية الوقحة على هؤلاء الرسل الكرام ! وتراهم ماذا يظنون بهؤلاء ؟ أهم ضُلّال لأنهم ليسوا هوداً أو نصارى ، أم هم هود أو نصارى ؟ ثم الله مشتبه في أمرهم ، وإنما يعرف الهدى هود او نصارى ! « قل ءأنتم أعلم أم الله »؟

ولقد كتموا شهادة إلٓهية تحمل بشارة محمدية : كتماناً عن أسرها ، أم تحريفاً في لفظها ومعناها لحسرها عن معناها وأسرها عن محتواها فهم أظلم وأطغى .

« تلك » الكتلة الرسالية والرسولية الصالحة ، اسرائيلية وسواها « أمة قد خلت » ومضت بإسلامها وأعمالها « لها ما كسبت » دونكم « ولكم ما كسبتم » دونهم « ولا تسالون » أنتم ـ أياً كنتم ـ « عما كانوا يعملون » وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى ـ ولا تزر وازرة أخرى .

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي
كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ
وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ
ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا
عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ
فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ

وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم
مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ
وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟
يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ
وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى

وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا
فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(١٤٢) .

جزءٌ ثان من القرآنِ يبدء فيه بهامة تحويل القبلة ، مما أحدث عراكاً حاداً بين أهل القبلة وناسٍ سفهاء من اليهود والمشركين ومنافقين من المسلمين ، فريصة كفريسة حريصة عليها هؤلاء السفهاء من الناس بملابسات أحاطت به ، سفسطة عارمة تواجهها حجة صارمة من رب العالمين :

« سيقول » المستقبل تستقبل تحويل قبلة الى أخرى وقولة سفيهة بعد التحويل ، و « ما ولاهم » تساءُل استنكار على ذلك التحويل بصورة التهويل والتسويل و « هم » يحتمل انفسهم الى جانب سفهاء غيرهم ف « هم » تعم سفهاء من المشركين وأهل الكتابين وجهالاً من المسلمين ، ولكنها الخطر الحادق الذي سفّه جهالاً من المسلمين هو سفاهة أهل الكتاب ولا سيما اليهود الذين كانت قبلتهم قبلة الإسلام لردح ابتلائي من الزمن .

لو كانت القبلة المتولى عنها في « ما ولاهم » هي القدس الى الكعبة ، زعم ان القدس هي القبلة المكية ، لكان صحيح التعبير هو « وقال السفهاء » فان

سفاسف القول وسفاهته من المشركين وضعفاء المسلمين كانت أشد خطراً على الدعوة الجديدة الإسلامية في مكة .

فلتكن الآية نازلة قبل أي تحول عن القبلة المرضية ـ وهي الكعبة المباركة ـ و « سيقول . . » توطئة لتحولها الى القدس حيث يتبع قالة سفيهة من مشركين ويهود وضعفاء من المسلمين ، ثم تحول القدس الى الكعبة المباركة حيث يتبع قالة الأخيرين وتقطع ألسنة المشركين .

فالتحويل الأول هو المحور لهذه السفاهة الثالوثية ، وعلى ضوءه الثاني قضاءً على سفاهة وبقاءً لأخرى .

ثم « وما جعلنا . . » نازلة بعد التحويل الثاني فان « القبلة التي كنت عليها » التي يُعتذر منها هي القدس ، إذ لم يكن اتباع الرسول ـ كابتلاء للمسلمين ـ إلا في التحول عن الكعبة الى القدس ، فان التحول عن القدس الى الكعبة كان مرجواً لهم ينتظرونه ليل نهار كما والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقلب وجهه الى السماء .

ولم تكن الكبيرة الثقيلة عليهم إلا قبلة القدس المتحوَّل إليها من الكعبة المباركة ، ثم « وما كان الله ليضيع إيمانكم » طمَانة لهم بالنسبة لفترة القبلة الثانية ، زعماً من بعضهم أن صلاتهم إليها كانت ضائعة .

ف « ما ولاهم عن قبلتهم » من المسلمين ، تعني ـ بطبيعة الحال ـ القبلة المكية ، وكذلك من غيرهم حيث القبلة المتولى عنها هي قبلة المسلمين ، فهي ـ على أي الحالين ـ ليست القدس ، بل الكعبة المباركة ، مهما شملت « ما ولاهم » التحويل الثاني ضمنياً ، وهو من القدس الى الكعبة . ثم « قل لله

المشرق والمغرب » اجابة صارمة عن كافة المشاكل المزعومة حول النسخ والتحويل ، سواء من أهل الكتاب أم سفهاء المسلمين...أترى بعد « قبلتهم التي كانوا عليها » هي القدس ؟ وصيغتها الصحيحة ـ ولا سيما من اليهود المتبجحين بقبلتهم وبكلٍّ ما لديهم ـ: « قبلتنا » توهيناً للمسلمين أنهم ما كانت لهم قبلة في بزوغ إسلامهم إلا قبلتنا ، و « قبلتهم » هي الكعبة المباركة التي كانت قبلة لهم في العهد المكي ، ثم حولت عنها بعد الهجرة لمصلحة وقتية مذكورة في آيات تالية ، ثم رجعت الى ما كانت للمصلحة الدائبة الخالدة في استقبال البيت العتيق ، وقد دلت على ذلك أحاديث (١) .

أم إنها القدس إذ كانت قبلتهم منذ بزوغ الإسلام وحتى أشهر بعد الهجرة ثم حولت إلى شطر المسجد الحرام كما تدل عليه طائفة أخرى من أحاديث (٢) ، وعلّ التعبير عن القدس هنا ب « قبلتهم » يعني تعميق الشبهة

---

(١) كما في الدر المنثور ١ : ١٤٢ عن ابن عباس قال : اوّل ما نسخ في القرآن القبلة وذلك ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما هاجر الى المدينة وكان اكثر اهلها اليهود امره الله ان يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بضعة عشر شهراً وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحب قبلة إبراهيم . . وفيه عن البراء بن عازب كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر او سبعة عشر شهراً . . . وعن ابن عباس ان محمداً كان يستقبل صخرة بيت المقدس وهي قبلة اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهراً ليؤمنوا به وليتبعوه وليدعوا بذلك الاميين من العرب فقال الله : ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله وقال : قد نرى تقلب وجهك في السماء ، وعن سعيد بن عبدالعزيز ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى نحو بيت المقدس من شهر ربيع الاول الى جمادي الآخرة ، وفيه عن انس ان القبلة قد حولت الى الكعبة مرتين . فمالوا كما هم ركوع الى الكعبة .

(٢) كما في الدر المنثور ١ : ١٤٣ ـ أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب ان الانصار صلت للقبلة الأولى قبل قدوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة بثلاث حجج وان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى للقبلة الاولى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً . =

في ذلك التحويل ، أنها كانت قبلتهم منذ البداية ، فهي ـ إذاً ـ قبلتهم ، مهما كانت كذلك قبلتنا ، فهم لا يعارضوننا ـ فقط ـ في شرعتنا ، بل وفي شرعتهم ، معارضة ذات بعدين بعيدين عن شرعة الحق التي لا تتحول ـ في قياسهم ـ نكراناً للنسخ ـ أياً كان ـ وهم في الوقت نفسه معترفون بالشرعة الإبراهيمية المنسوخة في البعض من أحكامها بالشرعة التوراتية ، وعارفون التناسخ في التوراة نفسها ، وهم الآن يندّدون بكل نسخ وناسخ بعد التوراة ! .

وعلّ « قبلتهم التي كانوا عليها » تشمل القبلتين ، حيث كانت هي الكعبة ثم تحولت الى القدس ، ثم من القدس الى الكعبة ، وكلاهما « قبلتهم » إذ كانتا أمراً من شرعتهم ، ولا صراحة في الآيات لإحداهما بل « سيقول » تعمهما مهما اختلفت قولة عن قولة كما اختلفت قبلة عن قبلة ، ثم الأحاديث القائلة أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر في العهد المكي أن يستقبل القدس من واجهة الكعبة [(١)] قد تجمع بين القبلتين في العهد المكي ، ولكلٍّ من القبلتين ملامح

= وفي تفسير البرهان ١ : ١٥٨ ـ ابو علي الطبرسي عن علي بن إبراهيم باسناده عن الصادق (عليه السلام)قال: تحولت القبلة الى الكعبة بعد ما صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة ثلث عشرة سنة الى بيت المقدس وبعد مهاجرته الى المدينة صلى الى بيت المقدس سبعة اشهر ، قال : ثم وجهه الله الى الكعبة . . .

(١) المصدر عن ابن عباس ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما تحول الى المدينة ستة عشر شهراً ثم صرفه الله الى الكعبة .

وفي تفسير البرهان ١ : ١٥٨ ـ الامام ابو محمد العسكري (عليه السلام) قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ كان بمكة أمره ان يتوجه نحو بيت المقدس في صلوٰتهم ويجعل الكعبة بينه وبينها اذا امكن لم وإذا لم يمكن استقبل بيت المقدس فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يفعل ذلك طول مقامه بها ثلث عشر سنة فلما كان بالمدينة وكان متعبداً باستقبال بيت المقدس استقبله وانحرف عن الكعبة سبعة عشر شهراً او ستة عشر شهراً . . .

وفي الدر المنثور ١ : ١٧٥ ـ أخرج احمد وابو داود وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والحاكم =

في ذلك العهد من الآيات التالية ، لا سيما بالنسبة للكعبة المباركة .

ف « سيقول » كقولة معترضة آتية من السفهاء ، هي أحرى ان تكون « قال » لو أن القدس هي القبلة المكية ، فإنها هي الأصيلة عند الموحدين والمشركين ، فكون القدس ـ إذاً ـ هي القبلة المكية هو مثارٌ لسفاهة وسفاسفة القول أكثر من تحويل القبلة عن القدس اليها ، ومن ثم فكلٌّ من إلاّ لنعلم . . قد نرى تقلب وجهك . . لئلا يكون للناس عليكم حجة . . كل ذلك إضافة إلى أن مكية القدس في القبلة هي من الموانع العظيمة لقبول الإسلام لذلك القوم اللّدّ لدّاً إلى لدّهم!ـ هذه الخمس هي من عساكر البراهين لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة ، مهما اتجه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى القدس من قِبلَها ضمنها أم لم يتجه ، وتفصيل الأربعة الأخيرة تجده عند آياتها .

وعلى أية حال فلقد « جاء قوم من اليهود الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا : يا محمد ! هذه القبلة بيت المقدس قد صليت اليها ثم تركتها الآن ، أفحقاً كان ما كنت عليه ؟ فقد تركته الى باطل ! فإن ما يخالف الحق فهو باطل ، أو باطلاً ؟ فقد كنت عليه طول هذه المدة ! فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): بل ذلك كان حقاً وهذا حق يقول الله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ إذا عرف صلاحكم يا أيها العباد في استقبال المشرق أمركم به وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به ، وإن عرف صلاحكم في

= وصححه والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال : أحيلت الصلاة ثلاثة احوال واحيل الصيام ثلاثة احوال فامّا احوال الصلاة فان النبي (صل الله عليه وآله وسلم) قدم المدينة فصلى سبعة عشر شهراً الى بيت المقدس ثم ان الله أنزل عليه : قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها الآية فوجهه الله الى مكة هذا حول . . .

غيرها أمركم به ، فلا تنكروا تدبير الله في عباده وقصده الى مصالحكم .. [1] .

والمشرق والمغرب هنا هما تعبيران عن كافة الجهات الأرضية ، لأنهما النقطتان الأصيلتان ، فليس المشرق : القدس ـ فقط ـ لله ، أو المغرب : قبلة النصارى ـ فقط ـ لله ، بل والجنوب الكعبة فله الجهات كلها ، يحوِّل عباده في صَلاتهم وكل صِلاتهم أينما يريد لمصالح وابتلآت ، كما وأن أصل تحول شرعة الى شرعة ابتلاء : « لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٥ : ٤٨). فكما أن قبلة القدس ـ في وقتها ـ صراط مستقيم لاتجاه الصلاة ، كذلك الكعبة المباركة صراط مستقيم ، بل هي الأصل المقصود على مدار الزمن الرسالي ، ولا سيما الإسلامي ، وقبلة القدس ابتلاء وقتي لمصلحة وقتية وقد مضت .

وقد اختلفت الروايات في عديد الأشهر المدنية لقبلة القدس من خمسة الى سبعة الى سبعة عشر ، ولأن عديد الأشهر ليس من صميم قصته التحويل ، لم تشر اليها الآيات وكما لم تصرح للقبلة المكية ، فإنما الأصل في مسرح البحث هو تحويل القبلة ، وأن أصلها هو الكعبة المباركة .

ولقد انطلقت أبواق اليهود السفهاء ـ ومعهم سائر السفهاء من الناس مشركين ومنافقين ومسيحيين ـ تصرخ على المسامع « ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » مرة أولى حين تحولت عن الكعبة الى القدس ، ومرة أخرى اذ تحولت عن القدس الى الكعبة ، انطلقت تلقى في صفوف المسلمين وفي قلوب

---

(١) هذا من تتمة الحديث السابق عن الامام العسكري ، ومكان النقط . . . اربع عشرة سنة ، فهو من القسم الثاني الدال على ان القبلة في مكة كانت هي القدس ، ولكن باتجاه الكعبة .

السذج منهم بذور الريبة والقلقة ، حيث النسخ ـ في زعمهم ـ دليل الجهل وهو لا يصدر عن مصدر الربوبية ، دليلاً على أن محمداً لا يصدر عن ربه ! .

ذلك ! رغم ما سبق في « ما ننسخ من آية او ننسهانات بخير منها أو مثلها . . » إذ بيِّنت أن النسخ ـ على أية حال ـ تحمل مصلحة مماثلة أو خيراً مما نُسخ ، وقبلة الكعبة خيرٌ من قبلة القدس كأصل على مدار الزمن ، كما وأن قبلة القدس كانت خيراً منها ـ مصلحياً وقتياً كاختبار ـ أو مثلها في أصل الإتجاه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . ﴾ ١٤٣

آية وحيدة تحمل صيغة الأمة الوسط ، لا تشبهها إلّا آية الحج إلّا في لفظ الوسط : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس . . » (٧٨) .

فهذه وإن لم تحمل صيغة الوسط ، ولكنها تواصفه تفسيراً له أنهم هم الوسط بين الرسول والناس ، « وكذلك » التحويل للقبلة الأصيلة الى قبلة يهودية ، خروجاً عن العنصرية والطائفية فيها ، كذلك البعيد المدى ، الوسيع الصدى ، البليغ المدى من صبغة الإسلام وإسلام الصبغة « جعلناكم أمة وسطاً . . » فما هو الوسط لهذه الأمة ، ومن هم المعنيون ب « كم أمة ؟» أهم الوسط بين إفراط الحياة الجسدانية وتفريط الحياة الروحية ، حيث الوسط بينهما جامع لهما مهما كانت الحياة الروحية هي الأصيلة بينهما ؟.

وهذا مهما كان صحيحاً في نفسه ، ولكنه لا يناسب خلفيته الصريحة هنا : « لتكونوا شهداء على الناس » فإن هذه الوسطية تتطلب مرجعية الأمة الوسط لطرفي الإفراط والتفريط ، لا أن تكون شهيدة عليهم ، إلّا بمعني الرقابة على

أعمالهم كشهادة خاصة ! أم شاهدة عليهم في حقل الإعتدال ، نبراساً لهم في ترك الانانية والإنية الطائفية ، وتحلّلا في شرعة الله عن الإنحيازات غير الشرعية ، إتباعاً لأمر الله كيفما كان وإن في ترك المجد القِبلي والقَبلي ، كما وأن الوسط اليهودي والنصراني لا يمت بصلة لهذه الوسطية الإسلامية لأنها من أهل الكتب السماوية وهي كلها تحمل الشرعة المعتدلة الوسط ، اللّهم إلّا بالنسبة لإفراط اليهود في الإتجاهات المادية ، وتفريط النصارى فيها مبدئياً كنسيّاً - مهما تورطوا في الماديات وأكثر من اليهود ، ولكن « جعلناكم » يختص الوسط بجعل رباني وليس الإفراط والتفريط يهودياً ونصرانياً من جعل الله !.أم هم الوسط بين الرسول والناس ، كما ينادي به الإنقسامات الثلاث : شهداء على الناس - الرسول الشهيد على الشهداء ، وناس ، فطبيعة الحال قاضية هنا باختصاص للشهداء على الناس بهذا الرسول الشهيد عليهم .

فهل هم - بعدُ - كل الأمة الإسلامية ؟ وفيهم بغات وفساق طغات ! أم وعدول لا يصلحون للشهادة على الناس ! (١) اللّهم إلّا شهادة على حق الوسط الإعتدال .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٥ عن تفسير العياشي عن ابي عمرو الزبيري عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : قال الله : ﴿ وكذلك جعلناكم امة وسطاً . . . ﴾ فان ظننت ان الله عنى بهذه الآية جميع اهل القبلة من الموحدين ، أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية ؟ كلّا ! لم يعن الله مثل هذا من خلقه ، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة ابراهيم « كنتم أمة اخرجت للناس » وهم الأمة الوسطى وهم خير امة اخرجت للناس .

اقول : فكما الرسول شهيد على الامة الوسط كذلك الامة الوسط شهيدة على الناس ، وقد تعني الشهادة هنا كل مراحلها ولكنها محصورة في الشهادة على ، من شهادة على الاعمال لكي تكون وسطاً ، وشهادة عليها القاءً لها يوم يقوم الاشهاد فلا بد اولاً من تلقيّها .

إن نفس الشهادة على الناس كوسط بين الرسول والناس ، يحدُ موقف الأمة الوسط ، فهنالك شهادة متعدية بنفسها : شهده ، وهنا « شهد على » ام شهادة له لصالحه كدعاية ذاتية ، أم تمثيلاً للكيان الرسولي ؟ وهنا « شهد على ».

ف « شهده » تتطلب حضوراً عند العمل أياً كان ، حضوراً ذاتياً أم علمياً ، ولا يتيسرّ إلّا للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمعصومين من عترته ! (عليهم السلام).

و « شهد له » محصورة في بعديها بالعدول الصالحين من الأمة المسلمة .

ثم و « شهد عليه » هنا في الدعاوي ، تتطلب العدالة ، وليست الأمة ـ ككل ـ عادلة ، ولا أن الآية تختص الشهادة بالدعاوي .

و « شهد عليه » هنا في الأعمال ، تختص بالصالحين الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، دون كل الأمة ولا كل العدول ، وتلك الدعوة ـ على شروطها ـ لا تختص بالأمة الإسلامية . و « شهد عليه »ـ إلقاءً للشهادة على الأعمال يوم يقوم الأشهاد ـ يتطلب تلقياً لها هنا حضوراً ذاتياً أو علمياً بما يعلّمهم الله ، وذلك مخصوص بالمعصومين ! ثم ولا تختص تلك الشهادة بخصوص المعصومين من هذه الأمة ! .

وعلى كلٍّ فلا تعني الآية كلَّ الأمة الإسلامية دون ريب ، فقد تعني عدول الأمة حيث يمثلون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على قدر عدلهم بين الناس : مسلمين وسواهم ، ثم وبأحرى العدول الدعاة من الأمة ، الآمرة الناهية : « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم » (٥٧ : ١٩) (١) ، فهي مهما عمت كل المؤمنين ، إلّا أن مؤمني هذه الأمة أعلى محتداً ممن سواهم .

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٣ عن الكافي باسناده الى ابي جعفر الباقر (عليهما السلام) حديث طويل ـ

ثم في القمة ، الائمة الأثني عشر المعصومون (عليهم السلام)، فانهم القمة العليا بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الشهداء بكل معاني الشهادة ومغازيها ومراميها ولا سيما الشهادة على الأعمال والأحوال ، فالوسط في الأمة هي العدل على مراتبه ومراتبهم [1] فلأن العدل في هذه الأمة أعدل منه في غيرها وأفضل ، فكأن العدول منهم هم الشهداء ـ فحسب ـ على الناس ، سواء ناسُ المسلمين او الكتابيين او المشركين والملحدين ، إلاّ أن لكل شهادة أهلها الخصوص دونما فوضى جزاف .

فمؤمنوا هذه الأمة شهداء على الناس شهادة ذاتية بأعمالهم وأحوالهم ، وشهادةٌ على كيان هذه الرسالة السامية ، شهوداً منه (صلى الله عليه وآله وسلم) على محتده الرسالي .

والدعاة الى الله منهم شهداء على الناس رقابة على أعمالهم وأحوالهم ، ودعوة لترقيتهم عن نقائصهم ممثلين للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في كل دعواتهم الصالحة .

والائمة المعصومون منهم ـ إضافة الى هذه وتلك ـ هم شهداء على أعمالهم

= وفيه يقول : ولقد قضي الأمر أن لا يكون بين المؤمنين اختلاف ولذلك جعلهم شهداء على الناس ليشهد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) علينا ولنشهد على شيعتنا وليشهد شيعتنا على الناس .

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٤ ـ اخرج جماعات عدة عن ابي سعيد الخدري وابي هريرة وابن عباس وجماعة آخرين عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان « وسطاً » في الآية تعني « عدلاً » والعدل درجات كما بيناه في درجات الشهادات .

وفي نور الثقلين ١ : ١٣٥ عن كتاب المناقب وفي رواية حمران بن اعين عنه (عليه السلام) انما انزل الله ﴿ وكذلك جعلناكم ائمة وسطاً ﴾ يعني : عدولاً ـ لتكونوا... ولا يكون شهداء على الناس إلاّ الأئمة والرسل (عليهم السلام) ، فاما الأمة فانه غير جائز ان يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل .

وأحوالهم ، بل وعلى كافة المكلفين على مدار الزمن الرسالي دون إبقاء [١] .

فأعلى الوسط بين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين الناس هم هؤلاء الأكارم ، تمثيلاً للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما هو ، وتبييناً لشريعة الحق كما هي « إلينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصر » [٢] .

كما وأن الشرعة الإسلامية هي الوسط المعتدل بين كل إفراط وتفريط مختلَقَين في كتابات السماء ، فنفس تحوّل القبلة الى القدس ردحاً من الزمن وسطية واعتدال حيث تزال به العصبية القومية في القبلة ، رغم ان القبلة الإسلامية هي الكعبة المباركة ، بل هي القبلة في كل الشرائع الإلهية ، فرغم كل ذلك يُومَر المسلمون قضاءً على الإنحيازية القِبلية والقَبلية ان يتجهوا الى القدس شطراً من العهد المدني ، حال ان أهل الكتابين ليسوا تابعين قبلة بعضهم البعض رغم وحدة الشرعة التوراتية بينهم ، فقد تعني « وسطاً » كلّ هذه الأوساط ، متمحورة الوسط المعصوم الرسالي المتمثل في الائمة الإثني عشر (عليهم السلام) أجمعين .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٤ في تفسير العياشي عن ابي بصير قال سمعت ابا جعفر (عليهما السلام) يقول: نحن نمط الحجاز ، فقلت : وما نمط الحجاز ؟ قال : أوسط الأنماط ، ان الله يقول : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ ثم قال: الينا . .

(٢) نور الثقلين ١ : ١٣٤ عن اصول الكافي عن ابي عبدالله (عليه السلام) في الآية قال : نحن الامة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في ارضه ، ورواه مثله بريد العجلي عن الباقر (عليه السلام) . وفيه عن المجمع روى الحاكم ابو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل باسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن علي (عليه السلام) : ان الله تعالى إيّانا فاعنى بقوله : لتكونوا شهداء على الناس « فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه ونحن الذين قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم امة وسطاً ﴾ .

ثم ذلك الجعل يعم حقلي التكوين والتشريع ، فكينونة هذه الأمة الأئمة ومَن دونهم من العدول ، هي مجعولة بجعل رباني بما سعوا ، كما وشرعتهم بما طبقوها فيما سعوا : « وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى » تمثلاً بالحقلين ، جمعاً بين الجعلين ، فكما « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » بكلا الجعلين ثم جعل القدس قبلة مؤقتة ابتلاء للمسلمين وإزالة للفوارق الطائفية « وكذلك جعلناكم . . » أهل القبلة الواجبة لهم دعوة إبراهيم (عليه السلام) .

ووسط الرأي في الأمة الوسط ، بعيداً عن كلِّ الإنحيازات إلاّ في حوزة الوسط وحيازتها ، إنها هي الوسط بكل معاني الوسط مهما اختلفت درجاتها وصِلاتها :

« أمة وسطاً » كمجعولة إلهية ـ في التصور والعقيدة ، بعيداً عن غلو التجرد الروحي ، وحمأة الركسة المادية ، معطية لكلٍّ من الروح والجسد حقه دون أي إفراط أو تفريط .

ووسطاً في المشاعر والإدراكات ، دون تجمُّد على حاضرها لتغلق عليها كل منافذ المعرفة تجريبياً أمامها ، ولا اتّباعٍ أعمى لكل ناعق ، بل هي منطلقة على ضوء الهدي القرآني والسنة المحمدية ، قابلة كل ما يوافق هديها المعصوم وعقلها المقسوم وصراطها المرسوم .

« أمة وسطاً » في تنسيق الحياة ، فلا تطلقها ـ فقط ـ للضمائر والمشاعر ، ولا تدعمها ـ فقط ـ للتشريع والتأديب ، وإنما ترفع ضمائرها بالتوجيه والتهذيب ، فلا تكل الناس الى سوط السلطان ولا ـ فقط ـ الى وحي الوجدان .

« أمة وسطاً » في العلاقات الحيوية ، لا توصِّل الفرد فالمجتمع كهامش له

خادم ، ولا تلغي شخصية الفرد تأصيلاً للمجتمع ، بل هما عندها أصلان ، كلٌ يخدم الآخر ، ترجيحاً لكفة ميزان المجتمع لأنه مجموعة أفراد .

« أمة وسطاً » في كل وسط وفي جميع الأوساط ، خارجة عن حدي الإفراط والتفريط ، فوسطاً في النهاية تتمحورها كل الأمم حيث تسدد البشرية بسلطتها المهدوية في آخر الزمن .

فلا تعني وسطاً وسطاً بين الأمم في الواقع الزمني للأمم ، حتى يتعلق به متعلق ممن ينكر خاتميه الأمة الإسلامية ، انها الوسط بين الأمم ، فقد تأتي أمم رسالية بعدها .

فان « كذلك » وكذلك « لتكونوا شهداء . . » تنفيان ذلك ، حيث الوسطية بين الرسول والناس هي غير الوسطية بين الأمم ، فتلك الوسطية تقتضي الخاتمية لهذه الأمة ، حيث الوسطية الزمنية ليست فخراً ولا مستلزمة لكونهم وسطاً بين الرسول والناس ، فإنما يعني من « وسطاً » هنا ما يناسب تحويل القبلة كشرعة معتدلة ، أو يناسب الشهادة على الناس وسطاً بين الرسول وبين الناس .

فما من شرعة حولت فيها القبلة كما حولت في شرعة الإسلام ، ولا أمة وسط بين الرسول والناس ، هم شهداء على الناس كما الرسول شهيد عليهم ، اللهم إلّا شرعة الإسلام بأمتها .

فتلك الشرعة البعيدة عن كافة الإنحيازات والإمتيازات القبلية والعنصرية ، هي الوحيدة بين كل شرائع الدين .

كما أن تلك الأمة الشهيدة على الناس هي الوحيدة بين كل الأمم الرسالية على مدار الزمن الرسالي . والنظر إلى الآيات السابقة يوسع تلك الوسطية ، فإنها

تلتزم بصبغة الله دون الصبغة اليهودية او النصرانية ، وتلتزم بهدى الله تصديقاً بكل رسالات الله وكل ما أنزل الله دون التجمد على طائفية كتابية : « وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[١٣٥].

وكما هو وسط في القبلة ، لا خصوص الكعبة ولا خصوص القدس ، بل هما معاً مهما كانت الكعبة هي الأصيلة الدائبة ، وكما كانت قبلة لكافة الموحدين أحياءً وأمواتاً طول الزمن الرسالي .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ .... ﴾ ١٤٣

« وما جعلنا .. » فيها بيان الحكمة الحكيمة لجعل القبلة الابتلائية السابقة ، بلمحة أنها كانت مؤقتة لمصلحة وقتية ، وكأن الله يعتذر فيها الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من جعْلِ تلك القبلة ، وعلَّه لم يسمِّها تخفيضاً لشأنها أمام الكعبة المباركة ، ولمحة في لمحات أن لم يبدء الإسلام بها عند بزوغه ، وإلّا كان الحق الصحيح والفصيح ان يعبر عن القدس كقبلة وإن في مرة يتيمة ، ولا نجد في القرآن كله بيت عبادة ومتجَهٍ للصلوة إلّا الكعبة المشرفة ، تارة ك « أوّل بيت وضع للناس » ـ وطبعاً ليس للسكن ، فإنما للطواف حوله والصلاة تجاهه ـ وأخرى « مثابة للناس وأمناً » ومن مثابته : المُقبَل ، إقبالاً إليه حجاً له ، واستقبالاً للصلاة إليه ، وثالثة يُؤمر الخليل بتطهيره « للطائفين والعاكفين والركع السجود » وهذه الثالثة المعبرة عن الصلاة تعم الصلاة فيه أم في المسجد الحرام ، ثم في المعمورة كلها ، ومن ثم الكون كله ، أن يستقبلوا البيت الطاهر عن قذارات خبيثة ، وعن الرجس من الأوثان .

ولا موقع ل « لنعلم » إلا في ظرف التحول عن الكعبة الى القدس دون

العكس فإنه مرغوب لكل من أسلم ، والكبيرة إلاّ على الذين هدى الله ليست إلا القدس المتحول اليها من الكعبة ، فهذه من اللمحات اللمعات كصراحة أن القدس هي ثاني القبلتين .

و « نعلم » هنا هي من العَلْم العلامة ، كما تشهد له وحدة المفعول وللعِلم مفعولان اثنان (١) ف « القبلة التي كنت عليها » وهي القدس ، جعلناها قبلة بديلة عن القبلة الأصيلة ، ردحاً مؤقتاً في بداية العهد المدني « ما جعلنا إلاّ لنعلم . . » علامة واقعية ظاهرة باهرة ل « من يتبع الرسول »(صلى الله عليه وآله وسلم) حقاً « ممن ينقلب على عقبيه » جاهلياً .

فلقد كانت العرب تعظِّم البيت الحرام عربياً جاهلياً ، ولمَّا آمن منهم من آمن وكانت قبلتهُم إسلامياً هي قبلة مجدهم القومي ، ولمَّا يُخلصوا ويتخلصوا عن آصرة القومية ، أراد الله منهم أن يتجردوا في قبلتهم ـ كما في كل شيء ـ إسلامياً ، تخليصاً حثيثاً من كل تعلقة بغير المنهج الإسلامي ، فابتلاهم في الفترة الأولى المدنية ـ وهم بين اليهود ـ أن يتحولوا إلى القدس « لنعلم من يتبع الرسول » كرسول لا كعربي ، اتباعاً مجرداً من كل إيحاء غير إسلامي « ممن ينقلب على عقبيه » صراحاً أم نفاقاً عارماً من هؤلاء الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ، أو لمّا ، فإن فيها رواسب من الجاهلية الجهلاء ، ليسوا ليستقبلوا قبلة اليهود ، تاركين بيت مجدهم القومي القديم ! فإنه الآن على أشراف تأسيس دولة إسلامية ، لا تصلح لها إلا أعواد وأعضاد وأعماد صالحة ، خالصة عن كل نزعة غير إسلامية ، فلُيبتلوا بذلك البلاء العظيم ، ليُعرف الغثُّ من السمين والخائن من الأمين « وإن كانت »« القبلة التي كنت عليها »« لكبيرة » ثقيلة « إلاّ على

---

(١) في آيات عشر او تزيد نجد هذه الصيغة مصوغة من العَلم لا العِلم ، وفي الكل نجد مفعولاً واحد لا يناسب العِلم المتطلبة مفعولين ، فلا حاجة الى تعليلات عليلة لها .

الذين هدى الله » بما اهتدوا بهُدى الله ، بعيدين عن كل هوى إلاّ هَوى الله وهُدى الله ، و « إن ناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا »(١) .

وهكذا تتجرد القلوب متخلصة من كل رواسب الجاهلية ووشائجها ، ومن كل سماتها القديمة ووصماتها ، ومن كل رغائبها الدفينة ، متعرية من كل رداءٍ لبست في الجاهلية ولمّا تخلعها مهما أدعت خلعها ، فتنفرد هذه القلوب لشعار الإسلام وشعوره تاركة كلَّ شعور وشعار لغير الإسلام .

إن العرب كانت تعتبر ـ ولا تزال ـ أن الكعبة المباركة هي بيت العرب المقدس ، والله يريد لها منهم ان تكون بيت الله المقدس « مثابةً للناس وقياماً للناس ـ سواء العاكف فيه والباد » دون تميُّز لقوم ، ولا تمييز بين عربي وأعجمي .

ومهما كان الإنخلاع ـ وان مؤقتاً ـ عن « أوّل بيت وضع للناس » الذي رفع قواعده الخليل وعظّمه الجليل ـ مهما كان « كبيرة » لكنها على من لم يهدي الله « وإن كانت لكبيرة إلاّ على الذين هدى الله » .

ثم ورداً على غيلة السفهاء من الناس ـ القائلة ـ: إذاً فصلوات الذين صلُّوا إلى الكعبة طيلة العهد المكي باطلة ـ إذا كانت القبلة هي القدس ـ أم وصلوات الذين صلوا إلى القدس باطلة حين حولت القبلة عنه إلى الكعبة المباركة ، وكما « قال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نُصرف إلى القبلة كيف بصلاتنا نحو بيت المقدس » فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤف رحيم ﴾ .١٤٣

هنا تسمى الصلاة نحو القبلة الشرعية ـ كعبةً أو قدساً ـ إيماناً ، لأنها

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٦ ـ اخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بلغني ان ناساً . .

قاعدة الإيمان وعمود الدين ، وأنها كانت بنزعة الإيمان ، فالذين صلوا نحو القدس تركاً لبيت مجدهم القديم لم يصلوا نحوه إلاّ إيماناً بالله واحتراماً لأمر الله ، بل وصلاتهم أقرب إلى الله زلفى ممن صلوا من قبل ومن بعد إلى المسجد الحرام ، فكيف يضيع الله إيمانهم وهو الذي أمرهم باستقبالهم نحو القدس « لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » فهل إن علامة اتباع الرسول ضائعة عند الله ؟!..هنا « إلاّ لنعلم » هي ثاني التأشيرات بعد « ما ولاّهم عن قبلتهم » تأييداً لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة ، حيث العلامة هذه تحصل في بداية الفترة المدنية ، دون حاجة الى هذه الطائلة المكية المزعومة بلا طائلة : أربعة عشر سنة ، فلو أنهم أمروا في العهد المكي باتجاه القدس ـ ولم تكن فيه يهود ليزدادوا ابتلاءً بهم ـ لكان ذلك رادعاً عن إسلامهم ، وهم قوم لدٌّ ليسوا ليؤمنوا بكل الجواذب والتبشيرات ، فكيف كان لهم ان يؤمنوا وهم يفاجَئون في بزوغ الدعوة بترك القبلة المكية ، وما هو الداعي لتكون القبلة المكية هي القدس إلاّ صداً عن دخولهم في دين الله بداية الدعوة ؟ ثم ولم ينقل ولا مرة يتيمة أن جماعة من العرب إمتنعوا عن الإسلام لأن قبلته متخلفة عن الكعبة المباركة ، ولا أنه كان يصلي إلى القدس في مكة متحولاً عن الكعبة !... ولو كانت القبلة في العهد المكي هي القدس لشملت قصتُها الكتب وتواترت في الألسن ، ونقلت اعتراضات متواترة من عرب الحجاز على هذه القبلة !.

ثم و « إن هوى أهل مكة كان في الكعبة فأراد الله ان يبين متبع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ممن خالفه باتباع القبلة التي كرهها ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يأمر بها (١) لا يشبه حديث الحق ، فإن مجال مخالفة

---

(١) نور الثقلين ١ : ١١٤ في كتاب الاحتجاج قيل يا ابن رسول الله فلم امر بالقبلة الاولى ؟ فقال : لما قال عز وجل ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ﴾ وهي بيت المقدس ﴿ الا لنعلم من يتبع ـ

الهوى في شرعة الحق ـ وبهذه الصورة القاسية ـ ليس في غضون الدعوة التي تتطلب لينة وجاذبية لهؤلاء القوم اللُّدّ !، والبداية بقبلة القدس هي من أعضل المشاكل صداً عن دخولهم في دين الله !.

نعم قد يروى شطر قليلٌ من العهدين لقبلة القدس أن « صلينا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القبلة الى الكعبة بعد دخوله الى المدينة بشهرين ... »[1] وهو وسط بين الأمرين ، وفيه محنة لأهلي البلدين في العهدين .

هذا ـ وأما القبلة المدنية في بداية الهجرة فالجوُّ اليهودي فيها كان يزيد ابتلاء لتحول القبلة إلى القدس ، فبروز بارزين من الناجحين في ذلك الإمتحان العظيم كأعضاد للدولة الجديدة .

ثم لا معنى ل « لنعلم » في تحول القبلة ، إلا في تحولها عن الكعبة الى القدس ، حيث اتباع من اتبع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس علامة الإيمان إلا هنا ، وأما اتباعه في التحول الى الكعبة بعد القدس فهو رغبة المسلمين أجمع ، وحتى أهل الكتاب الذين اسلموا فضلاً عن أهل الحرم !.

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا

ـ الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ الا لنعلم ذلك منه وجوداً بعد ان علمناه سيوجد ، وذلك ان هوى ... ولما كان هوى اهل المدينة في بيت المقدس امرهم بمخالفتها والتوجه الى الكعبة ليبين من يوافق محمداً فيما كرهه فهو يصدقه ويوافقه ... فعرف ان الله يتعبد بخلاف ما يريده المرء ليبتلي طاعته في مخالفة هواه ... اقول : تفسير « لنعلم » يشبه تفسير المتفلسفين ، ثم وسائر مواضيع الحديث يشبه التقاطات ملفقة بين حق وباطل .

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٦ ـ اخرج ابن ماجة عن البراء قال صلينا .

الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾١٤٤.

لقد بلغت محنة الإمتحان في قبلة القدس لحدٍّ يتقلب وجه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في السماء ، نَظِرة الأمر بتحول القبلة الممتحَن بها إلى القبلة الأصيلة التي يرضاها ، فمهما يرضى كلما يرضاها الله من قبلة ، ولكن الكعبة المباركة هي أوّل بيت وضع للناس مباركاً وهدىً للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وهي مثابة للناس وقيام ، فهذه جهة من رضاه بها ، وأخرى هي انتهاء أمد الإبتلاء بقبلة القدس ، وثالثة ان اليهود يحتجون عليه وعلى المسلمين بهذه القبلة ، إذاً فـ « ترضاها » لا تعني إلاّ مرضات الله ، إذ « وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله » (٧٦ : ٣٠) كما ولا تعني سُخطه لقبلة القدس ، فإنما هو سخط لاستمرارية الحجة اليهودية على المسلمين ، زعزعة في إيمانهم ، وزحزحة عن إيقانهم وكما قال الله : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة إلاّ الذين ظلموا منهم ..** ﴾ ثم « التقلب » دون « التقليب » تلمح أنه ما كان يقلّب وجهه ، وإنما يتقلب وجهه أتوماتيكيّاً في السماء كما كانت تقتضيه الحالة الرسالية الأخيرة ، الناظرة للقبلة الأصيلة ... ثم « قد نرى تقلب وجهك في السماء » هي ثالثة التأشيرات لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة ، اذ كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يحبها منذ عرف نفسه ومنذ أرسل . فهل كان يتقلب وجهه في السماء طيلة العهد المكي إضافة الى ردح من المدني : أربعة عشر سنة ؟ وصيغته الصالحة « تقلبات وجهك » تدليلاً على التكرار والإستمرار . دون « تقلب وجهك » اللاّمح إلى مرة يتيمة جديدة جادّة ، عرف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها أن الإمتحان حاصل ، وأمر التحويل الى المسجد الحرام على الأشراف ، ولكنه لم يتفوه بدعاءٍ واستدعاءه لذلك التحول ، فإنما إشارة الإنتظار بتقلب وجهه في سماء الوحي نَظِرَةَ نزول رسول الوحي حاملاً تحويل

القبلة...« قد نرى. فلنو لينك قبلة ترضاها » هي الكعبة المباركة التي أنا أرضاها، بعد الفترة الإبتلائية المدنية لقبلة القدس « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ».

كل ذلك يشي بتلك الرغبة القوية الرقيبة الظروفَ المؤاتية لتحول القبلة بعد ما كثر حجاج اليهود ولجاجهم، إذ وجدوا في اتجاه المسلمين الى قبلتهم في تلك الفترة الخطيرة، وسيلة للتموية والتضليل والبلبلة والتجديل، فأخيراً - ولما أحس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بخاتمة البلية، أصبح يقلب وجهه في السماء، دون أن يصرح بدعاء [1] حرمة لأمر ربه على إمره، وتحرجاً من اقتراح مبكّر ليس في وقته، فأجابه ربه فورَ تقلب وجهه « فلنو لينك قبلة ترضاها..» [2] ولقد أمر بتلك التولية وهو يصلي في المسجد المسمى لذلك ب« القبلتين » [3].

---

(١) نور الثقلين ١ : ١١٤ في تهذيب الأحكام الطاطري عن محمد بن ابي حمزة عن ابن مسكان عن ابي بصير عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال: سألته عن قوله عز وجل ﴿ وما جعلنا .. ﴾ امره به؟ قال: نعم ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقلب وجهه الى السماء فعلم الله عز وجلّ ما في نفسه فقال: «قد نرى..».

(٢) فالروايات القائلة انه دعى مقترحاً بوسيط ملك الوحي تُرجع الى رواتها، كما يروى عن الامام العسكري (عليه السلام).. وجعل قوم من مردة اليهود يقولون: والله ما ندري محمد كيف يصلي حتى صار يتوجه الى قبلتنا ويأخذ في صلوته بهدينا ونسكنا واشتد ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما اتصل به عنهم وكره قبلتهم واحب الكعبة فجاء جبرئيل فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا جبرئيل لوددت لو صرفني الله عن بيت المقدس الى الكعبة فقد تأذيت بما يتصل بي من قبل اليهود من قبلهم، فقال جبرئيل (عليه السلام) فاسأل ربك ان يحولك اليها فانه لا يردك عن طلبتك ولا يخيبك من بغيتك، فلما استتم دعائه صعد جبرئيل ثم عاد من ساعته فقال اقرء يا محمد « قد نرى...».

وفي المجمع عن القمي عن الصادق (عليه السلام): ... ثم وجهه الله الى مكة وذلك ان اليهود =

« فول وجهك » عن القبلة المؤقتة الإبتلائية « شطرَ المسجد الحرام » كأمرٍ يختصه تشريفاً لسماحته وتعظيماً لساحته ، ثم أمر يعم المسلمين كافة : « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فما هو الشطر القبلة هنا ، وهل هو قبلة - فقط - للنائين ، أم وللقريبين إلى المسجد الحرام ، أم والكائنين فيه أمام الكعبة المباركة ؟ .

الشطر - لغوياً - هو نصف الشيء ووسطه ، وهو نحو الشيء [1] وجهته ، وهو بُعده ؛ ويجمعها جانب الشيء إما بجنبه داخلياً وهو نصفه ، أم خارجياً وهو نحوه بعيداً عنه . فهل هو بَعضُ : البعض ؟ ولم تأت في اللغة كبعض ! والمعنى - إذاً - بعض المسجد الحرام ، فتراه أيّ بعض هو ؟ أهو أي بعض منه ؟ وتعبيره الصحيح « المسجد الحرام » دون شطره، أم شطراً من المسجد الحرام ، فان « شطر المسجد الحرام » يعني شطراً خاصاً منه !، ثم

= كانوا يعيّرون على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقولون : انت تابع لنا تصلي الى قبلتنا فاغتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذلك غماً شديداً وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر من الله في ذلك أمراً فلما اصبح وحضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم وقد صلى من الظهر ركعتين فنزل جبرئيل (عليه السلام) فاخذ بعضديه وحوّله الى الكعبة وانزل عليه « قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . » فكان قد صلى ركعتين الى بيت المقدس وركعتين الى الكعبة فقالت اليهود والسفهاء « ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » .

(٣) وفي نور الثقلين ١ : ١١٤ عن احدهما في حديث القبلة قال : ان بني عبد الأشهل أتوهم وهم في الصلاة وقد صلوا ركعتين الى بيت المقدس فقيل لهم ان نبيكم قد صرف إلى الكعبة فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء ، وصلوا الركعتين الباقيتين الى الكعبة فصلوا صلاةً واحدة الى قبلتين فلذلك سمي مسجدهم مسجد القبلتين .

(١) عن تفسير النعماني باسناده عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) في الآية قال : معنى شطره نحوه . . .

الشطر العام هو طبيعة الحال لمستقبله ، اذ لا يمكن لأي أحد ان يستقبل كل المسجد الحرام !.

أم هو شطرٌ خاص ولا أخص من الكعبة ؟ فلماذا ـ إذاً ـ شطر المسجد الحرام دون « الكعبة » وهي أصل القبلة ! ثم وعين الكعبة لا يمكن أن تكون هي القبلة للنائي !.

أم هو نصف المسجد الحرام ؟ فهل هو أيُّ نصف منه ؟ فلماذا ـ إذاً ـ نصفه لا نفسه حيث تعني أي نصف منه ثم وتعبيره الصحيح « شطراً من المسجد الحرام » ثم وكيف يولي وجهه نصفه ؟ ولا يولّى إلاَّ جزءَه قدرَ الوجه لو أمكن ! ثم لا يتمكن البعيد أن يولي وجهه لا نصفه ولا بعضه ! ...أم هو منتصَفه « الكعبة » وهو غير النصف ! ثم صالح التعبير عنه « الكعبة » دون منتصف المسجد الحرام ، ثم ونفس الكعبة لا يمكن أن تكون قبلة النائين !.

أم هو نحوه وجانبه ؟ وذلك هو الصحيح ، وتعبيره ذلك الفصيح ! فليس بإمكان النائي أن يولي وجهه إلاَّ نحوه حيث يسع بين المشرق والمغرب وكما في الأثر المستفيض « بين المشرق والمغرب قبلة ».

و « حيث ما كنتم » يعني خارج الحرم ، أم ـ وبأحرى ـ خارج مكة ، والسند « ومن حيث خرجت » يعني من مكة،وليس « حيث ما كنتم .. » تكراراً ، حيث الأَول خطاب لخصوص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد يظُنُّ ان حكمه يخصه ، والثاني يعم عامة المسلمين ، ثم « فول » لا تدل على ان القبلة هي « شطر المسجد الحرام » أينما كانوا و « حيث ما كنتم » تصريحة لشمولية الجهات ، ثم الوجه ـ وهو ما يواجه أو يواجَه ـ هو بأقل تقديره ثلث الدائرة ، فالوجه المولّى وشطر المسجد الحرام المولى إليه ، هما يصدِّقان « بين

المشرق والمغرب قبلة » والكل مصدِّق ب « لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

ثم الوجه هنا لا يخص خصوص الوجه ، بل وكل مقاديم البدن ، فلتوجُّه كلها نحو المسجد الحرام ، فان للوجه وجوهاً حسب المولّى إياه ، فوجه القرائة هو البصر ، ووجه الوضوء هو كل الوجه ، ووجه الإتجاه لجهة سفراً أو صلاة هو كل وجوه البدن ، اللهم إلاّ اليد فإنها لا وجه لها ، أم لا وجه لتوجيه وجهها المسجد الحرام .

وليست هذه التوسعة إلاّ رعاية للسعة في الإتجاه نحو الكعبة المباركة ، فالمتمكن لاستقبال عين الكعبة يستقبلها ، ثم المتمكن لاستقبال المسجد الحرام يستقبله ، ومن ثم استقبال شطر المسجد الحرام ، المحدَّد بما بين المشرق والمغرب بإتجاه الجنوب من كل أنحاء الكرة الأرضية ، كما وأن الكرة الأرضية ككل هي « شطر المسجد الحرام » لسكان سائر الكرات ! .

وهذه طبيعة الحال في زاوية الإتجاه الى قبلة وسواها ، فكلما ابتعد مكان الإتجاه عنها أنفرجت زاويتها لحدٍّ يصدق أن « ما بين المشرق والمغرب قبلة » وهي الزاوية المنفرجة حسب انفراج المستقبِل بعداً عن القبلة .

ف « شطر المسجد الحرام » وهو ناحيته وجهته ، ليس له حدّ خاص ، بل هو حسب بُعد الجهة يتشطر أكثر ، كما في قربها تنقلب منفرجة الزاوية الى قائمة والى حادة ، وكل ذلك حسب امكانية الإتجاه كالعادة المستمرة ، مهما هُندِست واجهة القبلة في عصر العلم بما يقرب شطر المسجد الحرام ، إلاّ أن رعاية الجهة المهندَسة ثابتة شرط ألاّ يكون عسر أو حرج .

ومن لطيف أمر السعة في القبلة إضافة سعة الوجه للمستقبل الى سعة المواجهة للقبلة ، فالوجه هو ثلث الدائرة ، وشطر المسجد الحرام هو الجهة التي

فيها المسجد الحرام ، فالإتجاه بجزء من الوجه في زاوية قدرها (٦٠) درجة ، نحو المسجد الحرام كلما صدق عليه زاوية الإتجاه ، ذلك هو فرض النائي ، والنتيجة كما في المستفيضة « ما بين المشرق والمغرب قبلة » يعني جهة الجنوب وهي قرابة تسعين درجة ، خارجاً عن نقطة الشرق والغرب ، ما صدق أنه جهة الجنوب .

﴿ وإنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾(١٤٤) .

« أنه الحق » علّه « شطر المسجد الحرام » كقبلة ، وبأحرى الكعبة المباركة كقلب القبلة،أم وهو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لسابق ذكره ، إذاً فقبلته حقٌّ ضمن رسالته ، أم هما معنيان على البدل والأصل هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتراهم كيف يعلمون أنه الحق من ربهم ؟ قد تعني أن السنة الكتابية هي النسخ ابتلاءً وتدريباً ، فكما أن سائر كتابات السماء فيها نسخ ما قل أو كثر ، فليكن كذلك القرآن !، أم إن معرفة كتابات الوحي تحمل على تصديق القرآن كواحد منها لأقل تقدير ، فليصدِّق ـ من ضمنه ـ البيت كقبلة ! .

أم ولأن في هذه الكتابات تأشيرات أم تصريحات بالكعبة المباركة كقبلة إسلامية أم وأممية إلاّ شطرات في تاريخ الرسالات .

ومنها ما في (أشعياء٥٦ : ٨) حسب الأصل العبراني : « كي بيتي بيْت تَفيلا ييقارُء لِخالْ هاعَمِيمْ » « بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الشعوب » .

مع العلم ان « بيتي » صيغة خاصة للكعبة المباركة ، ولم تستعمل بهذا الإختصاص إلاّ فيها .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ

قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(١٤٥).

« الذين أوتوا الكتاب » تعم كافة اهل الكتاب في الرسالات الكتابية على مدار الزمن ، فالإنحيازات الكتابية ـ ككلٍّ ـ من جهة ـ إلّا من آمن ـ

والعنصرية الإسرائيلية بوجه خاص ، ثم الطائفية الكتابية في الرسالة الإسرائيلية بوجع عام ، هما من الموانع لأن يتبعوا قبلتك ـ إلّا قليلاً منهم ـ وان أتيتهم بكل آية بينة ، ثم « وما أنت بتابع قبلتهم » سناداً إلى حجة الوحي الصارم ، وقبلة القدس المؤقتة لم تكن متبوعة لك كقبلة يهودية ، وانما « لنعلم . . » وليعلم أهل الكتاب انك لست جامداً على قبلة عنصرية أم طائفية ف « ما أنت بتابع قبلتهم » تنفي هذه التبعية بأمر الله ـ فضلاً عن سواه ـ من الحال حتى آخر زمن التكليف ، فهي عبارة أخرى عن انها ـ بعد ـ لا تُنسخ ، قطعاً لآمال أهل الكتاب ، وصداً عما يخلد بخلد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من التحول الى قبلة القدس تقريباً لأهلها الى الإسلام .

ذلك ! وكما نفت ـ عما سلف من قبلة القدس ـ إتباعه لها لمجرد هوى أهلها ، فانه اتباع لأمر الله في مصلحة وقتية ، ثم هنا مقابلة بين حق القبلة وباطلها ، فهم « ما تبعوا قبلتك » سلباً باطلاً « وما أنت بتابع قبلتهم » سلباً حقاً .

ثم وكيف بالإمكان اتباع قبلتهم وهي بين القدس والمشرق ، فاتباع كلٍّ رفضٌ للآخر ، فليترك اتباع الأهواء المختلفة ـ المستحيل تحقيقها ـ إلى اتباع هدى الله .

ثم « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » فالبعض اليهود مستقبلون القدس على طول الخط دون تحول الى شرق المسيحي ، والبعض المسيحي مستقبلون الشرق

دون تحول الى القدس ، أفأنت تهوى ـ بعدُ ـ ان تتبع أهـواءهـم في اتباع قبلتهم لفترة أخرى حتى يتبعوا قبلتك ؟.

فحتى ولـو اتبع بعضهم قبلة بعض ، واصبحت القبلة الكتـابية واحـدة ، ف « مـا أنت بتابـع قبلتهم » إذ قضي أمر التحـويل تمييـزاً لأهـل الحق عن غـير أهله .

ثم اليهود والنصارى عـلى وحدتهم في تكـذيبك هم مختلفـون في قبلتهم ، فكيف يرجون أن تتبع قبلتهم ؟! .

« ولئن أتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم » في أيٍّ من الطقوس الكتابية « إنك إذاً لمن الظالمين » بحق الشرعة الإلٓهية ، بعد ما كنت من العادلين في استقبال القبلتين .

هنـا « ولئن . . » تلمح أن الرسول كان يودُّ ـ بعنوان ثان ـ التحول الى قبلة القدس فترة أخرى رغبة في تميُّل اليهود إلى الإسلام ، إذاً ف « قبلة ترضاها » لا تعني انه لا يرضى القدس ، وإنما هو لولُحُلِّي ونفسه كان يرجِّح الكعبة المبـاركة ، وهو ـ كضابطة رساليـة ـ يحب ما أحبـه الله ثم « الذين أوتـوا الكتاب » هنـا هم العـارفون بمـا في الكتاب من حق هـذه الرسـالـة الأخيـرة ، ثم « وجحـدوا بهـا واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » لا وعوامهم المشتبهـون باتبـاعهم إلاّ الصامـدون في تقليدهم الأعمى ، ولا كل علماء الكتاب ، فالذي يجحد بالحق وهو على علم به بأدلته ، ليس ليتحول عن نكرانه له بأدلته ، فهو من الذين « زاغوا فـأزاغ الله قلوبهم » امتناعاً لاتباع هذه القبلة بإختيار .

وهنا « من بعد ما جاءك من العلم » تشديد على العلماء في مسئولية الحفاظ على ما يعلمونه حقاً ، وتنديد بهم إن تركوها كـأنهم لا يعلمون ، فـالإقدام عـلى أمر جهلاً هو أقل مسئولية من الإقدام عليه بتخلف علماً .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(١٤٦).

إيتاءُ الكتاب هنا هو الإيتاء معرفياً ، دون مجرد الإنتساب انه كتابي ولا يعلم الكتاب إلّا أماني .

و « يعرفونه » بعد « آتيناهم الكتاب » دليل أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معروف لديهم في الكتاب كمعرفة الأبناء ـ وهي قمة المعرفة المعروفة ـ حيث الضمير راجع اليه دون القرآن ، فان تعبيره الصحيح ـ إذاً ـ كما يعرفون كتابهم ، كما ونجد نفس الآية في الأنعام بنفس المعنى ونفس السند : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون »(٢٠).

ولماذا « أبناءهم » دون « آباءهم ـ أو ـ أمهاتهم »؟ لأن كلًّا من الأبوين يعرف ما ولده دونما استثناء ، وقد لا يعرف الولد مَن ولَّده ، إذ وُلد بعد موته أم مات في صغره ، إذاً فأعرف التعريف بهذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في معرفة أهل الكتاب هو « كما يعرفون أبناءهم ».

ويا له من معرفة نظرية بمواصفة كتابية ، تشبه معرفة حسية في قمتها ، وهم له منكرون ، مؤوِّلين إسمه المذكور في كتبهم تارة بغير إسمه ؛ وصفاً أو فعلاً ، ومسقطين له عن الترجمات أخرى ، وناظرين محمداً غيره ثالثة دون حجة عليه إلّا أنه غير إسرائيلي ، وقد جاء بما لا تهوى أنفسهم ، وهو مذكور باسمه ورسمه ومولده ونسبه وحسبه ولكن لا حياة لمن تنادي .

وجواباً عن سؤال : مهما بلغت البشارات الكتابية بحق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واضحة ، لم تأت بمعرفة له كما يُعرف الأبناء،فان هذه

حسية لا ريب فيها ، وتلك بالإسم والمواصفة وقد تعترضها ريبة ؟ ·

نقول : « يعرفونه » دون « عرفوه » مما يدل على معرفة لاحقة بعد ظهوره بآيات صدقة فإنها كافية لتصديقه رسولاً مهما لم تكن هناك معرفة سابقة ، وحين تجتمعان لأهل الكتاب في مثلث : البشارات الكتابية ـ مماثلة الوحي الكتابي في قرآنه ـ بينات رسالته ، فهم ـ إذاً ـ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم دون أية ريبة وشبهة « وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق » الناصع اللّامع « وهم يعلمون » أنه الحق وأنهم كاتموه .

وقد جاء في الأصل العبراني من كتاب هوشع الآية(٧) : « بائوا يِمّي هَفِقوداه بائوا يِمّي هَشِلّوم يِدعو يبسرائل إويل هنابِيا مَشوكاعْ إيشْ هاروُحَ عَلْ رَبْ عَوُنحا وِ رَبّاه مِسِطْماه »ـ:

« تأتي أيام التمييز ، تأتي أيام الجزاء سيعلم إسرائيل أن النبي السفيه ورجل الروح مجنون لكثرة إثمك وشدة الحنق »ـ أجل « ويقولون انه لمجنون وما هو إلّا ذكر للعالمين »! وقد جاءت في ترجمة أخرى عنها : « بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون ان النبي الأمي المصروع صاحب روح الهامي وصاحب الوحي » وقد قال ربي حييم ويطال في كتابه « عصحييم » إن القصد من النبي الأمي هنا هو محمد بن عبدالله الذي بعث في زمن عبدالله السلام .

ويا لعبدالله السلام من سلام حين يجيب السائل عن هذه الآية : « لقد عرفته حين رأيته كما أعرف إبني إذ رأيته مع الصبيان وأنا أشد معرفة بمحمد مني بإبني ... » (١) .

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٧ ـ اخرج الثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة قال عمر بن الخطاب لعبدالله بن سلام قد انزل الله على نبيه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم ﴾ فكيف يا عبدالله هذه ـ

أجل وهم « يعرفون محمداً والولاية في التوراة والإنجيل كما يعرفون ابناءهم في منازلهم » (١).

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾(١٤٧).

وليس ذلك الخطاب - كأمثاله - يعني ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - وعوذاً بالله - كان من الممترين في الحق من ربه ، فإنما ذلك له تثبيت ، وللممترين من أهل الكتاب تنبيب ، ولكلٍّ دعاية ضالة تمويت وتفويت .

« الحق » كله « من ربك » الحق الرسالي بالقرآن الحكيم الذي هو كل الحق ، المحلِّق على كل حق ، إنه « من ربك » لا سواه « فلا تكونن من

= المعرفة ؟ فقال عبدالله بن سلام يا عمر : . . . فقال عمر كيف ذلك ؟ قال : انه رسول الله حق من الله وقد نعته الله في كتابنا ولا ادري ما تصنع النساء ، فقال له عمر : وفقك الله يا ابن سلام . وفيه اخرج الطبراني عن سلمان الفارسي قال : خرجت أبتغي الدين فوقعت في الرهبان بقايا اهل الكتاب قال الله تعالى : ﴿ يعرفونه كما يعرفون ابناءهم ﴾ فكانوا يقولون : هذا زمان نبي قد أطل يخرج من ارض العرب له علامات من ذلك شامة مدورة بين كتفيه خاتم النبوة .

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٨ في اصول الكافي عن الاصبغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه يقول : فاما أصحاب المشأمة فهم اليهود والنصارى يقول الله عز وجل ﴿ الذين آتيناهم . . . ﴾ وان فريقٌ منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . ﴿ الحق من ربك » أنك الرسول إليهم ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ وفيه في تفسير القمي عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى يقول الله تبارك وتعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ يعني رسول الله ﴿كما يعرفون ابناءهم ﴾ لأن الله عز وجل قد انزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجرته وهو قوله تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ فهذه صفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في التوراة والإنجيل وصفة أصحابه ، فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ .

الممترين » فيه ، وذلك إيحاءٌ صارم الى مَن وراءَه من المسلمين تثبيتاً ، والى الناكرين من أهل الكتاب تنبيهاً ، ثم ومتعلّق الإمتراء ليس يختص بأصل رسالته ، أم وقبلته ، بل وأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، إذ كانوا يرتابون فيه كأنهم لا يعلمون ، أم هم شاكون « فلا تكونن من الممترين » أنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءَهم ، وأنهم يكتمون حقك وهم يعلمون .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١٤٨) .

هنا محتملات حسب عديد الإحتمالات أفضلها جمعها مالم تطارد أدب اللفظ والمعنى : « ولكلٍّ » من الناس : ملحدين ومشركين وكتابيين ومسلمين ـ أم « لكلٍّ » من الثلاث الآخرين ، او الآخرَين ، أم المسلمين .

« وجهة » قلبية أو قالبية ، فالثانية هي القبلة لدعاء وصَلاة،والأولى هي لكل الحالات والصِّلات .

« هو » الله « موليها » أياها ، أم « هو » صاحب الوجهة مولي نفسه أياها ، وهذه ستة عشر وجهاً في الوجهة المولّاة ، تضرب في استباق الخيرات مادة ومُدة وعِدة وعُدة فهي(٦٤) احتمالاً ، والأصل في معارك الوجهات والإتجاهات هو « فاستبقوا الخيرات » في كل المجالات ، فمهما كانت وجهة الملحدين الماديين هي المادة قلباً وقالباً ، ووجهة المشركين ـ كذلك ـ هي الآلهة المختلِفة المختلَقة ، ووجهة الكتابين قبلةً هي القدس والمشرق ، وروحيةً هي مختلف اتجاهاتهم في شرعة الله ، ووجهة المسلمين كقبلة قدساً لفترة وكعبة على طول الخط ، وفي كلٍّ جهات حسب مختلف الواجهات في المعمورة وسواها ، والوجهة الروحية حسب مختلف المذاهب والإجتهادات « هو » الله « موليها » تكويناً وتشريعاً ، و « هو » صاحبها « موليها » اختياراً دونما اضطرار . . .

« فاستبقوا الخيرات » و« سابقوا الى مغفرة من ربكم. . » (٥٧ : ٢١) في ذلك المسرح الواسع الحافل بمختلف الوجهات والواجهات ، و« الخيرات » هي التي يولّيها الله إياكم دون سواه ، فاجعلوا الحياة ميدان سباق في الخيرات كلها ، في كل وجهة واتجاهة قلبية وقالبية ، استباقاً في موادها ومُدَدها وعِددها وعُددها ، فإن استباق الخيرات والمسارعة فيها هي بعدها كأصل أصيل في الحياة ، فرضاً أو ندباً : « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك من الصالحين » (٣ : ١١٤) - « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما أتَوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. اولئك يسارعون في الخيرات هم لها سابقون . ولا نكلف نفساً إلّا وسعها . . . » (٢٣ : ٦٢).

إن استبقاق الخيرات والمسارعة فيها أصل حيوي تحلق على كافة النشاطات الصالحة للصالحين ، يتسابقون في الخيرات ما استطاعوا ، ويسارعون فيها ما استطاعوا ، ومن أفضل الخيرات الصلاة ، واستباقها يعم ظاهرها وباطنها وقبلتها كما هو مولّيها ، وزمانها ومكانها كما أمر الله ، مجردة عن كافة الصِلات إلّا بالله ، وعن كافة النزعات إلّا نزعة الله ، وعن كافة الوجوه إلّا وجه الله .

ذلك ! ومن ثم يصرف الله المسلمين عن الإنشغال بما يبثّه أهل الكتاب وسواهم من دسائس وفتن في أقاويل وأفاعيل ، يصرفهم إلى استباق الخيرات حيث مصير الكل إلى الله :

« اينما تكونوا » مكاناً ومكانة ومُكنة وفعلية وفاعلية ، وفي أية إتجاهه خيرة أو شريرة .

« يأت بكم الله جميعاً » مع بعضكم البعض ليوم الجمع ، و« جميعاً » مع كل أعمالكم واتجاهاتكم ليوم الحساب ، ولا يعزب عنه منكم ومن أعمالكم

شيءٌ « ان الله على كل شيء قدير » ومن مجالات خاصة ل « يأت بكم الله جميعاً » حشر أصحاب ألوية القائم المهدي من آل محمد (عليهم السلام) (١) وهو من تأويل الآية ، فإن تنزيلها هو الحشر العام ليوم القيام ، ومن تأويلها هو الحشر الخاص ، ولا ينبئك مثل خبير .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١٤٩).

« حيث خرجت » هو ـ لأقل تقدير ـ خروجه عن مكة « كما أخرجك ربك من بيتك .. » (٨ : ٥) « من قريتك التي أخرجتك » (٤٧ : ١٣)، ولأكثر تقدير هو خروجه عن الحرم ، فقد يصدق الخبر : « البيت قبلة لأهل المسجد

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سهل بن زياد عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى (عليه السلام) إني لأرجو ان تكون القائم من اهل أبيت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ الى قوله في وصفه وانه غيره ـ يجتمع اليه اصحابه عدة اهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض وذلك قول الله عز وجل : ﴿ اينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً .. ﴾ وفيه باسناده الى ابي خالد الكابلي عن سيد العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام) قال : المفقودون عن فرشهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدة اهل بدر فيصبحون بمكة وهو قول الله عز وجل : ﴿ اينما تكونوا .. ﴾ .

وباسناده الى محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال قال ابو عبدالله (عليه السلام) لقد نزلت هذه الآية في المفتقدين من اصحاب القائم (عليه السلام) ليفقدون عن فرشهم ليلاً فيصبحون بمكة وبعضهم يسير في السحاب يعرف اسمه واسم ابيه وحليته ونسبه ، قال فقلت جعلت فداك ايهم اعظم ايماناً ؟ قال : الذي يسير في السحاب نهاراً .

وفيه تفسير القمي قال ابو جعفر (عليه السلام) مثله وهو قول امير المؤمنين (عليه السلام) هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله . . .

وفي المجمع قال الرضا (عليه السلام) في الآية : وذلك والله ان لو قام قائمنا يجمع الله اليه جميع شيعتنا من جميع البلدان .

والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة للناس جميعاً »(١) فان الحرم هو شطر المسجد الحرام للخارج عنه ، والضابطة امكانية استقبال القبلة دون عسر ولا حرج .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(١٥٠) .

« فول وجهك شطر المسجد الحرام » تتكرر في مسرح التحويل ثلاث مرات ، ثم « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » مرتين ، فلماذا هذا التكرار والصيغة نفس الصيغة دونما زائدة ؟ علّه « لئلا يكون للناس عليكم حجة » وفي كل مرة من الثلاث فائدة زائدة تثبيتاً للقبلة الجديدة ، ففي الأولى « ان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق » إخراجاً لذلك التحويل عن الباطل .

وفي الثانية « وانه للحق من ربك » تثبيتاً لحقه كأنه هو الحق لا سواه ، فالقبلة المكية أصيلة ، وقبلة القدس ابتلائية فرعية .

وفي الثالثة « لئلا يكون للناس عليكم حجة .. » ثم وفي هذا التكرار بمختلف التلحيقات تأكيد أكيد لتداوم هذه القبلة ، وكما في تكرار « فبأي الآء ربكما تكذبان » عدّه مرات ، تلحيقاً بها لكل مقطع من مقاطع البيان لذكر نعم الرحمان ، ثم وفيها رابعة التأشيرات أن القبلة المكية هي الكعبة المباركة دون القدس ، حيث الإبتلاء يقدّر بقدر الضرورة ، ولا سيما إذا كان فيه حجة على المبتلَين ، فالضرورات تقدّر بقدرها ، وما هي الضرورة الإبتلائية أن يكون

---

(١) وسائل الشيعة ابواب القبلة ب ٣ ح ١ و ٣ .

القدس هو القبلة منذ بزوغ الإسلام إلى أشهر في المدينة ، خلقاً لجوّ الحجة على المؤمنين من قبل المشركين (١) والكتابيين ، وصداً عن دخول العرب ـ الهائمين الى الكعبة المباركة ـ في هذا الدين ؟! فابتلائية قبلة القدس ـ بما تخلّف حجة على المسلمين ـ وعلى رسول الإسلام أيضاً إذ هم عارفون من كتبهم ان قبلة هذا الرسول هي الكعبة المباركة ، فلما صلى ـ لفترة ـ الى القدس أخذوا يحتجون عليه انه ليس هو الرسول الموعود !ـ هذه الابتلائية غير صالحة إلّا لقضاء الإبتلاء ، وظرفُه الصالح هو بداية العهد المدني ، بلورةً لصالح المؤمنين عن طالحهم ، وما إضافة العهد المكي إلى أشهر الإبتلاء المدني ، إلّا زيادة لحجة اليهود ، إضافة الى حجة العرب في رفضهم لهذا الدين .

و « الناس » هنا كما الناس في « سيقول السفهاء من الناس » هم السفهاء من الناس ، مشركين وكتابيين ، فانّ كلًّا كان يحتج على الرسول والمسلمين « ما ولاهم . . . ».

وهنا « إلّا الذين ظلموا منهم » استثناء لجماعة خصوص منهم استمراراً لحجتهم على المسلمين « فلا تخشوهم واخشوني » فان حجتهم راخصة عند ربهم ، وذابلة بعد تحوُّل القبلة إلى الكعبة المباركة . ثم وفي ذلك التحويل إضافةٌ الى سلبية حجتهم إيجابيةُ إتمام النعمة والإهتداء .

« ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » فقبلة الكعبة إتمام للنعمة ،

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٨ ـ اخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا لما صرف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نحو الكعبة بعد صلاته الى بيت المقدس قال المشركون من اهل مكة تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته اليكم وعلم أنكم اهدى منه سبيلاً ويوشك ان يدخل في دينكم فانزل الله ﴿ لئلا يكون الناس عليكم حجة ﴾ .

واهتداءً كما قال الله ﴿ إن أوّل بيت وضع للناس للذي بمكة مباركاً وهدىً للعالمين ﴾.

وقد تحمل « لأتم وتهتدون » بشارةً لفتح مكة كما تحملها آية الفتح : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك . . . » (٣) .

ومن أهم النعم التامة الإعتصام بحبل الله جميعاً : ﴿ وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمة أخواناً ﴾.

ثم ومن أهمها في مظاهر العبودية الإتجاه الى قبلة واحدة هي أوّل بيت وضع للناس ، مثابةً وأمناً وهدى وقياماً « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله . . . ».

كلام فيه ختام حول القبلة

القبلة هي هيئة خاصة للمقابلة ، فهي تعم المستقبل اليه ، فان لكلٍّ هيئَة خاصة للمقابلة ، فشطر المسجد الحرام نص أم ظاهر كالنص في أن قبلة النائي عن مكة المعظمة هي ناحية المسجد الحرام « وحيث ما كنتم » تحلق على ذلك الإستقبال أولاً لسكنة المعمورة كلها ، ثم سكان سائر المعمورات ، إلاّ ان شطر المسجد الحرام لهم هو الكرة الأرضية ككل ، ولا يخص شطرُه ، الناحيةَ القاطعة له الى الكعبة المباركة ـ فقط ـ سطح الأرضية ، بل شطره في العمود الذي يربط الكون كله بسماواته وأرضيه ، كما الكعبة المباركة ممتدة من ناحيتها فوق وتحت الى أعماق السماوات .

ثم الداخل في مكة المكرمة ، هل يستقبل ـ كما الخارج ـ شطر المسجد الحرام أم عينه ؟ طبعاً عينه ما أمكن حيث الشطر قبلة النائين كضابطة ، وإلاّ

فالأقرب الى العين فالأقرب ، دون شطره كضابطة (١) .... والداخل في المسجد الحرام يستقبل الكعبة المباركة من جوانبها ، وندب الصلاة جماعة أو فرضها يقتضي صحة صلاة الجماعة الدائرية حول البيت بإمام واحد ، ولو كانت محظورة لورد فيها نهي ، وهل الداخل في البيت يصلي كالعادة إلى أيٍّ من جوانبها ؟ قد يقال : لا ، لأنه هو القبلة من خارجه دون جوفه، وقد ورد في الصحيح : « لا تصل المكتوبة في جوف الكعبة فان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يدخلها في حج ولا عمرة ولكنه دخلها في الفتح وصلى فيها ركعتين بين ميري العمودين ومعه اسامة ابن زيد » (٢) وفي آخر « لما دخل

---

(١) في صحيحة زرارة عن ابي جعفر (عليهما السلام) : يجزي التحري ابداً اذا لم يعلم اين وجه القبلة . (الوسائل ابواب القبلة ب ٦ ح ١) .

وعن تفسير النعماني باسناده عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) في قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ قال : معنى شطره نحوه إن كان مرئياً وبالدلائل والأعلام ان كان محجوباً ، فلو علمت القبلة وجب استقبالها والتولي والتوجه اليها ، ولو لم يكن الدليل عليها موجوداً حتى تستوى الجهات كلها فله ان يصلي باجتهاده حيث أحب واختار حتى يكون على يقين من الدلالات المنصوبة والعلامات المبثوثة ، فإن مال عن هذه الوجوه مع ما ذكرناه حتى يجعل الشرق غرباً والغرب شرقاً زال معنى اجتهاده وفسد حال اعتقاده . (الوسائل ابواب القبلة ب ٦ ح ٤) .

(٢) الوسائل ابواب القبلة ب ١٧ ح ٣ و ١ صحيحتان فالصحيحة الاولى عن معاوية عمار عن ابي عبدالله (عليه السلام) والثانية عن محمد بن مسلم عن احدهما قال : لا تصل المكتوبة في الكعبة ، واورده مثله في صحيح البخاري حدثنا مسدَّد قال حدثنا يحيى عن سيف قال سمعت مجاهداً قال : أتي ابن عمر فقيل له : هذا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دخل الكعبة ، فقال ابن عمر : فأقبلت والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خرج وأجد بلالاً قائماً بين البابين فسألت بلالاً فقلت : أصلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكعبة ؟ قال : نعم ركعتين بين الساريتين اللتين على يساره اذا دخلت ثم خرج فصلّى .

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة وقال : هذه القبلة » (١) .

ولكن النهي عن الصلاة فيها هو اعم من التحريم والتنزيه ، وتحريمه أيضاً اعم من أن جوفها ليست قبلة ، مع العلم أنها أصل القبلة ، وقد يعني النهي رعاية حرمة البيت ، ورعاية الجماعة القائمة حول البيت ، وكما تدل عليه الموثقة :«إذا حضرت المكتوبة وأنا في الكعبة أفاصلي فيها ؟ قال : صل»(٢) إلاّ أن « هذه القبلة » تعارض نصاً « قال صل » فالأحوط إن لم يكن الأقوى ترك الفريضة في جوفها ، وان كان الأشبه صحة الصلاة فيها فان « هذه القبلة » لا تنفي كون جوفها ايضاً قبلة كما ظاهرها ، كذلك والصلاة على سطح الكعبة ، حيث العمود الأسطواني من مكان البيت قبلة في طرفيه إلى أعنان السماء ، والإستلقاء على السطح استلغاءً لكون الأسطوانة قبلة ، وتشكيك أو الغاء لصحة صلوات الساكنين أو الكائنين في علات أرفع من البيت ! .

وترى إذا فقد العلم او والظن بشطر المسجد الحرام ، فهل يصلي الى أربع جهات لمرسلة يتيمة (٣) لا توافق الكتاب ولا السنة ؟ مع العلم انه ليست عليه

---

(١) موثقة يونس بن يعقوب قال قلت لابي عبدالله (عليه السلام) اذا حضرت الصلاة المكتوبة . . .

(٢) صحيح البخاري حدثنا اسحاق بن نصر قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال سمعت ابن عباس قال لما دخل . . .

(٣) هي مرسلة قريش عن بعض اصحابنا عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال قلت : جعلت فداك إن هؤلاء المخالفين علينا يقولون : اذا اطبقت السماء علينا او اظلمت فلم نعرف السماء كنا وانتم سواء في الاجتهاد ؟ فقال : ليس كما يقولون ، اذا كان ذلك فليصل لأربع وجوه .

وعن الفقيه « وقد روي فيمن لا يهتدي الى القبلة في مفازة انه يصلي الى اربع جوانب » اقول : وأظنها هي نفس مرسلة خريش .

إلّا صلاة واحدة حتى مع تقصيره في اجتهاد القبلة فضلاً عن قصوره ! وحتى إذا أريد بذلك درك القبلة فصلوات ثلاث هي الكافية ، فإن بين المشرق والمغرب قبلة !.

أم يصلي لجهة واحدة ، لذلك ، ولصحيحة الفاضلين عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): « يجزي المتحير أبداً اين ما توجه إذا لم يعلم وجه القبلة » (١) و« المتحير » اعم من القاصر والمقصر .

ثم ولا ريب في إجزاء صلاة واحدة أم أقل من الأربع في تضيُّق الوقت مع الإحتمال الأوّل ، وترى حين ينحرف عن القبلة قاصراً يميناً أو شمالاً أم بينهما ثم تتبين هل يعيد أم تجزيه ؟ الظاهر « قد مضت صلاته وما بين المشرق والمغرب قبلة » (٢) .

وإذا زاد الإنحراف كأن يستدبرها أمّا شابه أعادها في الوقت دون خارجه (٣) حيث الميسور في الوقت لم يتجاوز ما أداه فلا إعادة خارجه ،

(١) هي صحيحة زرارة ومحمد بن مسلم المروية في الفقيه عن ابي جعفر (عليهما السلام) انه قال : . . .

(٢) تدل عليه صحيحة معاوية بن عمار عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال قلت له : الرجل يقوم في الصلاة ثم ينظر بعدما فرغ فيرى انه قد انحرف عن القبلة يميناً او شمالاً ؟ فقال : « قد مضت صلاته وما بين المشرق والمغرب قبلة » وموثقة عمار عن ابي عبدالله (عليه السلام) رجل صلى لغير القبلة فيعلم وهو في الصلاة قبل ان يفرغ من صلاته ؟ قال : ان كان متوجهاً فيما بين المشرق والمغرب فليحول وجهه الى القبلة ساعة يعلم ، وان كان متوجهاً الى دبر القبلة فليقطع الصلاة ثم يحول وجهه الى القبلة ثم يفتح الصلاة (الوسائل ابواب القبلة ب ١٠ ح ١ .

(٣) تدل عليه صحيحة عبدالرحمن بن ابي عبدالله عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : « اذا صليت وانت على غير القبلة واستبان لك انك صليت وانت على غير القبلة وانت في وقت فأعد وان فاتك الوقت فلا تعد » وصحيحة سليمان بن خالد قال قلت لابي عبدالله (عليه السلام) الرجل يكون ـ

والمستدبر فيها والوقت باق لم يأت بما عليه مهما أخطأ .

وعلى أية حال فواجب القبلة ـ عيناً أو شطراً أما بين المشرق والمغرب ـ هو المستطاع ، لا يجوز البعيد عنها ما أمكن القريب لها ، وإذا كنت على راحلة متحولة عن القبلة إلى جهات ، فلتتحول ما أمكنك ، إلاّ في عسر أو حرج فجهة واحدة ، لا سيما بين المشرق والمغرب فانه قبلة المقدور على أية حال .

ومن اللائح اللامع من الكتاب والسنة عدم وجوب الإجتهاد للقبلة إلاّ حسب الميسور المتعود بين عامة الناس ، دون الدراسات الهندسية والنجومية أمّا هي ، التي لا تتيسر إلاّ لجماعة خصوص ، إلاّ إذا شاعت نتائج هذه الدراسات بمتناول سائر الجموع ، فهي ـ إذاً ـ تصبح من الميسور، فهي ـ إذاً ـ واجب كل الجموع ، اللّهم إلاّ من يهتدي على شياعها .

ولقد بذلت مساعي عدة لتعيين القبلة لساكني المعمورة ، بعد ما كان المسلمون يعتمدون على الظن والحسبان باي نحو كان ، فاستنهض الحاجية العامة في ذلك الحقل جمعاً من العلماء الرياضيين تقريباً للقبلة إلى التحقيق (١)

ـ في قفر من الارض في يوم غيم فيصلي لغير القبلة ثم يضحي فيعلم انه صلى لغير القبلة كيف يصنع ؟ قال : « ان كان في وقت فليعد صلاته وان كن الوقت قد مضى فحسب اجتهاده » (الوسائل ابواب القبلة ب ١١ ح ٥ و ٦) اقول : واطلاقها مقيد بالاخبار رقم (١٢٦) . او يقال : بين المشرق والمغرب قبلة فلا انحراف ـ اذاً ـ عن القبلة في غير الاستدبار كما تدل عليه صحيحة زرارة عن ابي جعفر (عليهما السلام) قال : لا صلاة إلا الى القبلة ، قال قلت : اين حد القبلة ؟ قال : بين المشرق والمغرب قبلة كله ، قال قلت : فمن صلى لغير القبلة او في يوم غيم في غير الوقت ، قال : يعيد .

(١) فقد استفادوا من الجدوال الموضوعة في الزيجات لبيان عرض البلاد وطولها ، واستخرجوا انحراف مكة عن نقطة الجنوب في البلد ، اي انحراف الخط الموصول بين البلد ومكة عن الخط الموصول بين البلد ونقطة الجنوب (خط نصف النهار) بحساب الجيوب والمثلثات ، ثم عينوا ذلك ـ

ثم وتسريعاً وتسهيلاً لذلك عملوا الآلة المغناطيسية المعروفة بالحك [١] ولأنها لم تخل من الشبهة والنقصان ، قام المغفور له السردار الكابلي باستخراج الإنحراف القبلي بأصول حديثة ، وحصل ـ من ضمنها ـ على استقامة كاملة للمحراب الخاص في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة المنورة [٢] ثم

= في كل بلدة من بلاد الإسلام بالدائرة الهندية المعروفة المعينة لخط نصف النهار ، ثم درجات الإنحراف وخط القبلة .

(١) هذه الآلة بعقربتها تعين جهة الشمال والجنوب فتنوب عن الدائرة الهندية في تعيين نقطة الجنوب ، وبالعلم بدرجة انحراف البلد يمكن للمستعمل ان يشخص جهة القبلة

(٢) ولأن هذه الآلة تبين فيها الاشتباه من الجهتين جميعاً ـ طولاً وعرضاً ـ : فان المتأخرين من الرياضيين عثروا على ان المتقدمين اشتبه عليهم الأمر في تشخيص الطول ، واختل بذلك حساب الإنحراف فتشخيص جهة الكعبة ، وذلك ان طريقهم الى تشخيص عرض البلاد ـ وهو ضبط ارتفاع القطب الشمالي ـ كان اقرب الى التحقيق ، بخلاف الطريق الى تشخيص الطول ، وهو ضبط المسافة بين النقطتين المشتركتين في حادثة سماوية مشتركة كالخسوف بمقدار سير الشمس حساً عندهم ، وهو التقدير بالساعة ، فقد كان هذا بالوسائل القديمة عسيراً وعلى غير دقة ، لكن توفر الوسائل وقرب الروابط اليوم سهّل الامر كل التسهيل فلم تزل الحاجة قائمة على ساق ، حتى قام الشيخ الفاضل البارع الشهير بالسردار الكابلي ـ رحمه الله ـ في هذه الأواخر بهذا الشأن فاستخرج الإنحراف القبلي بالأصول الحديثة وعمل فيه رسالته المعروفة بتحفة الأجلة في معرفة القبلة وهي رسالة ظريفة بيّن فيها طريق عمل استخراج القبلة بالبيان الرياضي ، ووضع فيها جداول لتعيين قبلة البلاد .

ومن ألطف ما وفق له في وسعيه ـ شكر الله سعيه ـ ما اظهر به كرامة باهرة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في محرابه المحفوظ في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة ٢٥° ٢٧٥° ـ وذلك ان المدينة على ما حاسبه القدماء كانت ذات عرض ٢٥ درجة وطول ٧٥ درجة و ٢٠ دقيقة ، وكانت لا توافقه قبلة محراب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مسجده ، ولذلك كان العلماء لا يزالون باحثين في امر قبلة المحراب ، وربما ذكروا في الحرافه وجوهاً لا تصدقها حقيقة الأمر ، لكنه ـ رحمه الله ـ أوضح ان المدينة على عرض ٢٤ درجة ٥٧ دقيقة وطول ٣٩ درجة ٥٩ دقيقة ، وانحراف درجة ٤٥ دقيقة تقريباً ، وانطبق ذلك قبلة المحراب أحسن الإنطباق وبدت بذلك كرامة =

استخرجت بعده قبلة أكثر بقاع الأرض (١) وأخيراً فيما يقرب من ألف بقعة من بقاع الأرض أدق منها (٢) شكر الله مساعيهم .

وترى ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولّى وجهه ـ عند تحول القبلة ـ شطر المسجد الحرام ، دون عينه أو عين الكعبة ، وجبريل (عليه السلام) هو الذي ولاه بأمر الله !.

إنه ـ بطبيعة الحال ـ ولّى وجهه الشطر الخاص الذي يوافي المسجد الحرام والكعبة ، لكن المسلمون لهم أمر عام « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » وأين شطر من شطر ؟ شطر يحوله الله إياه ، وشطر يتحول اليه مَن سواه ، كما

= باهرة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قبلته التي وجه وجهه اليها وهو في الصلاة ، وذكر ان جبرئيل اخذ بيده وحول وجهه إلى الكعبة ، صدق الله ورسوله .

(١) استخرجه المهندس الفاضل الزعيم عبدالرزاق البغائري رحمه الله ونشر فيها رسالة في معرفة القبلة ، وهي جداول يذكر فيها الف وخمسمائة بقعة من بقاع الارض وبذلك تمت النعمة في تشخيص القبلة .

ولان الجهة الثانية وهي الجهة المغناطيسية غير دقيقة ، فانهم وجدوا ان القطبين المغناطيسيين في الكرة الأرضية غير منطبقين على القطبين الجغرافيين منها ، فان القطب المغناطيسي الشمالي مثلاً ، على انه متغير بمرور الزمان ، بينه وبين القطب الجغرافيائي الشمالي ما يقرب من ألف ميل ، وعلى هذا فالحدُّ لا يشخص القطب الجنوبي الجغرافي بعينه ، بل ربما بلغ التفاوت إلى ما لا يتسامح فيه ، لذلك :

(٢) قد انهض هذا ، المهندس الرياضي الفاضل الزعيم حسين علي رزم آرا في سنة ١٣٣٢ هجرته شمسية على حل هذه المعضلة واستخراج مقدار التفاوت بين القطبين الجغرافي والمغناطيسي بحسب النقاط المختلفة ، وتشخيص انحراف القبلة من القطب المغناطيسي فيما يقرب من الف بقعة من بقاع الأرض ، واختراع حدٍّ يتضمن التقريب القريب من التحقيق في تشخيص القبلة ، وهو اليوم دائر معمول ـ شكرالله سعيه (الميزان لاستاذنا العلامة الطباطبائي قدس الله روحه (ج ١ : ٣٣٥ ـ ٣٣٧) .

ثبت بحساب العرض والطول الجغرافي أن محرابه (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة مواجه للقبلة بصورة دقيقة !.

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾(١٥١).

« وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة .. ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » ـ « كما أرسلنا فيكم رسولاً » من ولد باني القبلة ، فإن هذه الرسالة السامية أصل لتمام النعمة وكما الهداية ، كذلك فلتكن قبلتها أهدى قبلة ، وأنعم نعمة على الأمة الأخيرة ـ إذاً : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(١٥٢).

وذكر الله ثلاثة ، رأس الزاوية فيها هو الذكر الخفي بالقلب وبكلّ مراحل الروح ، ثم الجلي بالأعمال ، ثم الجلي بالأقوال ، إذاً فالذكر أحوالي وأعمالي وأقوالي : « وأذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين » (٦ : ٢٠٤). ولكلٍ درجات حتى تصل الى القمة العاصمة عن كل عصيان ونسيان وخطأٍ وهي تختص بالمخلَصين المعصومين ، وأفضل الذكر هو الجمع بين المراحل الثلاث ، ثم أفضله الأوليان ، ومن ثم الأولى ، وأعدله ما تساوى فيه الخفي والجلي ، اللهم إلا ذوداً عن رثاء الناس ، ثم و « أفضل الذكر لا إله إلا الله » (١) .

والذكر ـ أياًكان ـ قد يقابل الغفلة : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » (١٨ : ٢٨) وأخرى يقابل النسيان : « وأذكر ربك إذا نسيت » (١٨ : ٢٤) وقد

(١) الدر المنثور ١ : ١٥٤ ـ اخرج الخرائطي عن جابر بن عبدالله سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الشكر الحمد لله .

يشتركان في غائب العلم فالغفلة عنه والنسيان ، إذاً فأصل الذكر هو للقلب وأصحابه عقلاً وصدراً ولباً وفؤاداً ، ثم يتجلى في القالب أعمالاً وأقوالاً .

« .. أما إني لا أقول : سبحان الله والحمدلله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، وإن كان هذا من ذاك ، ولكن ذكر الله في كل موطن ، إذا هجمت على طاعته أو معصيته »(١) .

والعصيان أياً كان إنما هو من حصائل الغفلة والنسيان وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن ، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن »(٢) .

وفي حديث قدسي : « إذا علمت أن الغالب على عبدي الإشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي ، فإذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو حُلت بينه وبين أن يسهو ، أولئك أوليائي حقاً ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة ذويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال »(٣) .

وقد خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على أصحابه فقال : إرتعوا في رياض الجنة ، قالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما

---

(١) في المعاني عن الحسين البزاز قال قال لي ابو عبدالله (عليه السلام) : ألا أحدثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه ؟ قلت : بلى ـ قال : « انصاف الناس من نفسك ومواساتك لأخيك وذكر الله في كل موطن أما إني . . » .

(٢) الدر المنثور ١ : ١٤٩ ـ اخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الايمان عن خالد بن ابي عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

(٣) في عدة الداعي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال قال سبحانه : اذا علمت . . .

رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، أغدوا وروحوا وأذكروا ، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبدُ اللهَ من نفسه ، وإعلموا أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكرُ الله تعالى فانه تعالى أخبر عن نفسه فقال : أنا جليس من ذكرني . وقال تعالى : « فاذكروني أذكركم » بنعمتي ، أذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنِعم والإحسان والراحة والرضوان » (١) .

ثم الذكر في « فاذكروني » غيره في « أذكركم » فان الله لا يغفل ولا ينسى ، فإنما هو أثر الذكر ، ان يرحم عبده في مواقفه ومنها مغفرته ، دفعاً عن العصيان حين اقترابه ، ام رفعاً للعصيان بعد اقترافه ، وكما يروى عن رسول الذكر (صلى الله عليه وآله وسلم) تفسيراً لآية الذكر : « أذكروني يا معاشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي » (٢) ف « طاعتي » تعم فعل الواجب وترك الحرام ، و « مغفرتي » تعم الدفع والرفع ، والأوّل للأولين في ذكر الله وطاعته ، والثاني لمن بعدهم الآخرين ، ثم العصيان حالة الغفلة والنسيان ، هو أدنى من العصيان حالة الذكر فإنه طغيان « فحقٌ على الله ان يذكر صاحبه بمقت » (٣) .

(١) عدة الداعي قال : وروي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خرج على اصحابه فقال : . . .

(٢) الدر المنثور ١ : ١٤٨ ـ أخرج ابو الشيخ والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « فاذكروني اذكركم » يقول : . . .

(٣) وفيه أخرج ابن لال والديلمي وابن عساكر عن ابي هند الداري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مثله بزيادة : فمن ذكرني وهو مطيع فحق عليّ ان اذكره بمغفرتي ومن ذكرني وهو لي عاص فحق علي ان اذكره بمقت .

ثم ونسيان ذكر الله كفرٌ به وكفران ، وذكره شكر وشكران ، فقد قال موسى يا رب أخبرني كيف أشكرك ؟ قال : « تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني وإذا نسيتني فقد كفرتني » (١) « كفرتني » تعني سترتني عن نفسك ستراً لنفسك عني بُعداً معرفياً ، وهي تختلف عن « كفرت بي » فهذا كفر وذاك كفران .

« فاذكروني » الظاهر في ذكر الله الدافع الى طاعته تقوىً قد تشمل ذكره - أيضاً - حال معصيته طغوىً ، فهي هنا أمر تعجيز وتهديد ، كما الأوّل أمر تحجيز وتمديد ، وكما يروى « أوحي الله إلى داود قل للظلمة لا يذكروني فإن حقاً عليَّ أذكر من ذكرني وإن ذكري إياهم أن ألعنهم » (٢) .

إذاً « ولا تكفرون » كما تعني الكفران بالنسيان ، كذلك تعني الكفر بالذكر حالة الطغيان في العصيان ، ولأن « أذكركم » هي كجزاء لـ « فاذكروني » فلتكن أوسع من شرطها كما قال الله ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ فكذلك الله في مسرح الذكر حيث يقول : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملاءٍ ذكرته في ملاءٍ خير منهم وإن تقرّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وان أتاني يمشي أتيته هرولة » (٣) ويقول : « لا يذكرني أحد في نفسه إلاّ ذكرته في ملاءٍ

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٨ - اخرج ابن ابي الدنيا وابن ابي حاتم والبيهقي في شعب الايمان عن زيد بن اسلم ان موسى (عليه السلام) قال : . . .

(٢) المصدر أخرج ابن ابي شيبة في المصنف واحمد في الزهد والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس . . .

(٣) المصدر أخرج احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في شعب الايمان عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال الله : . . .

من ملائكتي ولا يذكرني في ملإٍ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى » (١) ف « أحب الأعمال الى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » (٢) ف « ليس يتحسر أهل الجنة إلاّ على ساعة مرت بهم لم يذكر الله تعالى فيها » (٣) .

« واشكروا لي ولا تكفرون » وأوّل معرفة النعمة أنها من الله ، ف « ما أنعم الله على عبده من نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب له شكرها قبل أن يحمده .. » (٤) .

ثم النظر الصالح في مسرح الحياة لمرضات الله تعالى ، ف « من نظر في الدين الى من فوقه وفي الدنيا الى من تحته كتبه الله صابراً شاكراً ، ومن نظر في الدين الى من تحته ونظر في الدنيا الى مَن فوقه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً » (٥) .

ثم أن يصرف كل ما أنعمه الله في مرضاته ، وبالتالي كأرفع الشكر ان يعترف بعجزه عن شكر ربه كما قال موسى (عليه السلام) يوم الطور : يا رب إن أنا صليت فمن قِبَلك وإن أنا تصدقت فمن قِبَلك وإن أنا

---

(١) المصدر أخرج الطبراني عن معاذ بن أنس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال الله عز وجل ذكره : ...

(٢) المصدر عن مالك بن يخامر ان معاذ بن جبل قال ان آخر كلام فارقت عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان قلت اي الاعمال احب الى الله ؟ قال : ان تموت ...

(٣) المصدر أخرج الطبراني والبيهقي عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٤) الدر المنثور ١ : ١٥٣ عن عائشة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ... « وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له ذلك قبل ان يستغفره ان الرجل ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له » .

(٥) المصدر اخرج البيهقي عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

بلّغت رسـالاتـك فمن قِبَلِك فـكيـف أشكـرك ؟ قـال : « يـا مـوسى الآن شكرتني » (١) .

ثم وترك كل مرتبة من الشكر كفرٌ حسبها بمعنى الكفران ، اللّهم إلا ذكراً لنعمته وكفراً بالمنعم فمكفرٌ بالله . وكما الذكر درجات كذلـك الشكر درجات ، والنسيان والكفران والكفر ـ أيضاً ـ دركات : ففي الشكر تبدأ بالإعتراف بفضل الله وان كـل النعم هي من الله ، وتنتهي بالتجـرُّد لشكره في كـل حقول المعـرفة والعمل والإعتراف بالعجز عن شكره ، في كل حركة بدن ، وكل لفـظة لسان ، وفي كل خفقة قلب ، وفي كل خطرة جنان ، وبينَ المبدء والمنتهى متوسطات .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم
بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ
أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

(١) المصدر اخرج الخرائطي عن ابي عمر الشيباني قال قال موسى . . .

ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ * إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا
وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ
أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ
ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ
اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ
وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ
عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(١٥٣).

الصبر كاستقامة سلبية حفاظاً على كيان الإيمان هو الناحية السلبية من كلمة التوحيد ، كما الصلاة قوامةٌ إيجابية ـ تداوُمَ التكامل لحاصل الإيمان ـ هو الناحية الإيجابية لكلمة التوحيد ، فالصبر ككلٍّ يعني الشطر الأوّل لهذه الكلمة ، والصلاة ككل للشطر الثاني ، و« إن الله مع الصابرين » تأكيد للمرحلة الأولى فإنها أهم من الثانية ، وهذه المعية الربانية للصابرين كافلة لصالح المرحلتين . هنا تُرجَّح ميزانية الصبر حيث المسرح يستقبل حكم الجهاد بملاقات الأهوال ومقارعة الأبطال فالإهتمام بالصبرفيه أهم ، وهناك في أخرى « وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين »(٢: ٤٥)ترجَّح ميزانية الصلاة لأنها كأصل وضابطة خير موضوع وهي عمود الدين ، ونظراً إلى احتمال ثان « إنها » تعني الإستعانة بكلا الصبر والصلاة ، فهما ـ إذاً ـ ردف بعض ولصق بعض في حظيرة الإيمان ، مهما

اختلفت مجالاته في تأثير أهم لأحدهما صبراً او صلاةً ، وقد فصلنا القول فيهما على ضوء آية الخاشعين ، وأن من الصبر ممدوح مأمور به ، ومنه مقبوح منهي عنه كالصبر على الظلم والضيم .

والإستعانة بالصبر والصلاة في كل المجالات لها دور عظيم عميم لإدارة الشؤون الحيوية الإيمانية ، فردية وجماعية في كل الحقول ، ولا سيما في حقل الجهاد ، فانه للمسلمين حياد ومهاد وسداد ، فعلى الأنفس المؤمنة أن تكون مشدودة الأعصاب ، شديدة الإعتصاب ، مجندة القوى ، يقظة للمداخل والمخارج ، وللداخل والدخيل والخارج ، والزاد الأوّل في كل ذلك هو الصبر ، صبراً عن المعاصي وعلى الطاعات ، وعلى جهاد المشاقين الله ، والكائدين بشرعة الله ، وصبراً على بُطء النصر ، وعلى بُعد الشقة وعلى كل مشقة في هذه السبيل الشاقة الطويلة ، وعلى انتفاش الباطل وقلة الناصر ، وعلى التواء النفوس وضلال القلوب وثقلة العناد ومضاضة الأغراض، ومن « استقبل البلايا بالرحب وصبر على سكينة ووقار فهو من الخاص ونصيبه » ما قال الله عز وجل : ﴿ ان الله مع الصابرين ﴾ [1] وحين يقل الصبر أو يكلُّ فالصلاة ، وإنها المعين الذي لا ينصب ، والزاد الذي لا ينفد ، تُجدِّد الطاقة الكليلة ، وتُزوِّد القلوب العليلة ، فيمتد - إذاً - حبلُ الصبر دونما انقطاع ، ف « استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين »، ومن الصبر في المقال بعد الصبر في الحال والفعال :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾(١٥٤).

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٤١ عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) : ... وفيه عن تفسير العياشي عن الفضيل عن ابي جعفر (عليهما السلام) قال : يا فضيل ! بلغ من لقيت من موالينا عنا السلام وقل لهم إني اقول : إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلا بورع فاحفظوا ألسنتكم وكفوا ايديكم عليكم بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين .

هذه من الآيات الدالات على الحياة البرزخية ، تختص هنا بمن يقتل في سبيل الله لمناسبة المسرح والموقف ، ف « أموات » هنا يعني موت الفوت الذي ليس فيه ولا بعده حياة ، فهو الموت المطلق ، لا مطلق الموت الذي قد تصاحبه حياة تعنيها « بل أحياء » فهم أحياء بعد موتهم « ولكن لا تشعرون » حسيّاً أنهم أحياء ، فاشعروا معرفياً بما يعرّفكم الله أنهم « أحياء ».

وإنها ليست ـ فقط ـ حياة الذكر بعد الموت، فما هي الفائدة للميت دون حياة أن تكون له حياة الذكر وهو لا يشعرها ، ثم الثانية النظيرة لها ، الشارحة لحياتها أكثر منها « عند ربهم يرزقون . فرحين. . ويستبشرون ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٣ : ١٩٦) تصريحات لا حِوَلَ عنها لواقع الحياة بعد الموت دون حياة التخيُّلات ، وسوف نأتي على تفصيل القول عند تفسيرها .

إنهم يعيشون بعد موتهم « في الجنة على صور أبدانهم » [١] « في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا » [٢] ، وفي صيغة ثالثة « إن الأرواح في صفة الأجساد » [٣] .

---

(١) المصدر في المجمع عن ابي بصير قال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن ارواح المؤمنين ؟ فقال : في الجنة على صور ابدانهم لو رأيته لقلت فلان .

(٢) المصدر عن المجمع عن يونس بن ظبيان قال كنت عند ابي عبدالله (عليه السلام) جالساً فقال : ما يقول الناس في ارواح المؤمنين ؟ قلت : يقولون : في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش ، فقال ابو عبدالله (عليه السلام) : سبحان الله ! المؤمن أكرم على الله من ان يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر ، يا يونس ! المؤمن اذا قبضه الله تعالى صير روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون . . . » .

(٣) في الكافي عن الصادق (عليه السلام) : . . . في شجر من الجنة تعارَفُ وتساءَلُ فاذا قدمت الروح على الارواح تقول دعوها فانها قد اقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان ، =

وما أقبحها فرية على رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) انهم « في صورة طير بيض تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش » (١) .

فلو أنها ـ فقط ـ حياة الذكر ، فكيف « لا يشعرون ؟» وحتى الماديين الناكرين للحشر يمشون وراءَ حياة الذكر ، رغم انها لهم خيال على خيال ، فان حياة الذكر إنما يشعرها ويعمل على تحصيلها من له حياة بعد الموت حتى يلتذ بحياة الذكر فيها .

وان حب حياة الذكر ـ الفطري ـ هو من الأدلة الفطرية على استمرارية الحياة بعد الموت ، وهو من الحجج الدامغة على ناكري الحياة بعد الموت ، إذاً لو لم تكن بعد الموت حياة ، فأي دافع لمن يُبطل حياته لبقاء آخرين ، وأن يَحرم نفسه لذّاتها ليتمتع آخرون ، حيث العاقل ـ أياً كان ـ لا يعطي إلا استعطاءً بديلَ ما يعطي ، إما هنا أم في الحياة الأخرى ، وليست حياة الذكر لها دور إلاّ لمن يحيى بعد موته حتى يشعر تلك الحياة ، وإذ لا حياة فلا شعور للذكر حتى يجهد في تحصيله ! .

وقيلة القائل : ان الخطاب في « لا تقولوا » موجه الى المؤمنين الذين يعتقدون في الحياة بعد الموت كأصل ثالث من الدين ، فكيف ينهاهم عن قالتهم هذه وهم مؤمنون ؟ فلتكن « بل أحياءٌ » حياة الذكر !.

إنها مردودة عليهم ، بان الحياة البرزخية لم تكن باهرة لهم كحياة القيامة ،

= فان قالت لهم : تركته حياً ارتجوه ، وان قالت لهم : قد هلك قالوا : قد هوى هوى .

(١) الدر المنثور ١ : ١٥٥ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) في صورة . . . ،
وفيه عن كعب بن مالك ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان ارواح الشهداء في اجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة او شجر الجنة .

وهـذه هي الثالثـة من أصول الـدين ، وأما البـرزخية التي يَشـك فيها حتى الآن جماعة من المسلمين ـ منهم قائل هذه القيلة ـ فلم تكن بـذلك الـظهور ، فلتـذكر لهم بمثل هذه الذكريات التي تحملها الآيات البرزخية الباهضة ، الناهضة لما فوق العشرين !.

ثم وحياة الذكر أيضاً ـ إضافة إلى أنها لائحة حتى للماديـين ـ هي كذلـك تتطلب حياةً بعد الموت تُدرك فيها كلذّة من مـلاذها ! وإذا لا تُـدرك إذ لا حياةَ بين الدنيا والأخرة فكيف يرغّب القرآنُ المؤمنينَ إلى حياة تخيلية لا واقع لها ؟!.

فالقول إن « بل هم أحياءٌ » قد تعني الحياة الأخـرى ، يرده ان الإعتقـاد فيهـا هو من اوّليات العقـائد الإسـلامية التي ابتـدأ الإسـلام بهـا ، ثم العبـارة الصالحة لخصوصها « بل هم يحيون » دون « أحياء » الدالة على استمرارية الحياة دون فـوت ، فلنستعن بـالله صبـراً ـ فيـما نستعين ـ بـالصبـر عـلى أمثـال هـذه الأقاويل ، والرد عليها بنصوص من القرآن كهذه وأضرابها .

وهنا احتمالات أخرى لا تحتملها هذه الآية وأضـرابها الصـريحة في الحيـاة البرزخية (٢) ... وترى الآية ـ بعدُ ـ مختصة بحياة الشهداء ، نـافية لحيـاة غيرهم من السعـداء والأشقياء ؟ كـلّا ! فان هـذه الحياة الخـاصة رزقـاً عند ربهم ، هي للنبيين أخص ، وليسوا كلهم ولا جُلُّهم من الشهـداء ، كما وفي غيـرهم من هو أفضل من بعض الشهداء ، فلماذا تختص هذه الكـرامة ـ فقط ـ بـالشهداء ! ثم وإثبات الحياة البرزخية للشهداء ، ليس لينفيها عن غـير الشهداء ، لا سيـما وأن المجـال هنـا مجـال الترغيب للقتـال في سبيـل الله ، وجبـر خـواطـر أهليهم أن افتقدوهم ، فلكل مجالٍ قالٌ ، كما لكل قالٍ مجالٌ .

---

(١) أخرجه مالك والشيخان عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٢) كالقول انها حياة الهدى ، الظاهرة في الأخرى ، ام استمرارية الحياة الدنيا بنفس هذا البدن ام حياة روحانية محضة دون اي جسم ، ام حياة ارواحهم في اجساد اخرى غير اجسادهم ، امّاذا مت تقولات زور لا سند لها إلا تطفلات ! . .

ومن ثم فعشرات من الآيات الدالة على الحياة البرزخية لكافة المكلفين ، مؤمنين وكافرين ، إنها تدلنا دلالة قاطعة لا محيد عنها على شمولية الحياة البرزخية دونما استثناء ! وسوف نوافيكم بقول فصل حول الحياة البرزخية على أضواءها في محالها حسب دلالاتها وأدلتها .

ثم وفي رجعة ثانية الى الآية « ولا تقولوا » نهي عن قولة الممات للشهداء ، وطبعاً في حقل « مات وفات » ثم لا حياة بعد ما مات أبداً ، ولا يقوله مسلم ، أم لا حياة في البرزخ بين حياتي الأولى والأخرى كما كان يظنه المسلمون فيمن سواهم ولمّا يبين لهم برزخ الحياة ، فهذا من البيان: « لا تقولوا ـ هم ـ أموات » « بل » قولوا « أحياءٌ » وان لم تشعروا تلك الحياة ، وقد يشعركم إياها حالة النوم : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها . . » (٣٩ : ٤٢) « هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه . . » (٦ : ٦٠) .

انهم قُتلوا في ظاهر الجسد الدنيوي ، وما يشعركم أنهم ـ كذلك ـ قتلوا في الروح وفي جسد آخر هما غير محسوسان ، فحين يخبرنا ربنا « بل هم أحياءٌ » نصدقه كما نصدق الحياة المحسوسة وأحرى ، حيث الوحي أحرى بالتصديق من الحسن وأقوى .

أجل ! « أحياء » أحيا من قسم كثير من الأحياء في البرزخ ، ولذلك لا يغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفّنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها ، فالغسل تطهير للجسد الميت وهم لا يُحكم عليهم ـ بقتلهم ـ حكم الميت ، فثيابهم بعد قتلهم هي ثيابهم قبله ! رمزاً الى حياة لهم قوية فائقة .

وقد وردت في شأن الشهداء آيات وروايات ، فتراهم يقرنون بالنبيين والصديقين قبل الصالحين : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » (٤ : ٦٩) ومن الشهداء هم القتلى في سبيل الله ، لا سواه .

وفي حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » [١] .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾(١٥٥).

في « لنبلونكم » تأكيدات ثلاث في تحقيق ذلك البلاء ، ثالثتها جمعية الصفات الربانية المستفادة من صيغة المتكلم مع الغير ، فلا بد في مسرح الإيمان من مصرع البلاء بشتى الألوان ، نفسياً : « من الخوف » وبدنياً : « والجوع » ومالياً : « ونقص من الأموال » ونفسياً لكم ومَن هو مثلكم : « والأنفس » وكضابطة تشمل كل نفس ونفيس من غال ورخيص : « والثمرات ».

ف « الثمرات » تعم ثمرات العقول والعلوم والقلوب ، ومن الثالثة الأولاد الصالحون الذين هم من أغلى ثمرات الحياة ، مهما شملت ثمرات الزرع والضرع ، حيث الثمرات النفسية أنفَسُ وأغلى من ثمرات الجسم .

« وبشر الصابرين» على هذه البلايا المحلقة على المؤمنين فيها لهم من حَيَويّا روحية ومادية : «الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فلَيَعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (٢٩ : ١-٣) .

أجل و « ان الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويتذكر متذكر » [١] ، ثم و « كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » (٧ : ١٦٣) كما يبتليهم وهم صالحون ، مخلِصون ومخلَصون : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات » (٢ : ١٢٤).

---

(١) عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) .

وكضابطة عامة : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » (٢١ : ٣٥) « وبلونا هم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » (٧ : ١٦٨).

لا فحسب ـ بل والشرعة الإلهية بتتابعها في مختلف طقوسها بأدوارها بلاء : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » (٥ : ٤٨) « ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (٦ : ١٦٥).

بل والموت والحياة كلٌّ بلاء : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (٦٧ : ٢).

ثم « إن أشد الناس بلاءً النبيون ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل ، وإنما يُبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة ، فمن صحَّ دينه وصحَّ عمله إشتد بلاؤه وذلك أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر ، ومن سخف دينه وضعف عمله فقد قل بلاؤه ، والبلاء أسرع إلى المؤمن المتقي من المطر إلى قرار الأرض » [1].

وحينما نرى أصحاب الغايات الدنيوية الدانية يتحملون مختلف ألوان البلاء من أجل الحصول عليها ، فبأحرى لأصحاب الغايات الأخروية أن يتحملوا خلفياتها وأعباءها .

كما ولا يدرك الأخرون قيمة الإيمان إلاّ حين يرون ابتلاء أهله وصبرهم على شديد بلاءه ، وعندئذٍ قد ينقلب المعارضون لعقيدة الإيمان باحثين عنها ، مقدرين لها ، مندفعين اليها .

فالشدائد تشجيش مكنونات القوى ، ومذ خورات الطاقات ، فاتحة في القلوب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد ، ف « عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال ».

« وبشر الصابرين » على البلايا والرزايا « فمن سترها ولم يشكُ إلى الخلق

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٤٣ في العلل باسناده الى سماعة بن مهران عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : ان في كتاب علي (عليه السلام) : . . .

ولم يجزع بهتك ستر فهو من العام ونصيبه » مما قال الله ﴿ وبشر الصابرين ﴾ (١) .

وإن أبلى البلاء للمؤمنين هو في الغيبة الكبرى لصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف ، وهو أصدق مصاديق آية البلاء (٢) .

ومَن هم الصابرون ـ ككل ـ حتى نعرفهم بأجمعهم في صيغة مختصرة ؟ :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾١٥٦ .

« مصيبة » هي صفة لـ « رمية » وأصلها « رمية مصيبة » فتشمل كل رمية من أيِّ رام تصيب الإنسان ، في نفسه او مالِه ، أمّا لَه على أية حال ، وهي تأتي لخير قليلاً ولشر كثيراً ، ومن مصيبة الخير إقبال الدنيا على المؤمن بماله ومناله ورئاسته ، فإنها بلاءٌ يصعب على المبتلى بها ان يتخلص عن أوزارها وأوضارها ، ولكن « اذا اصابهم مصيبته » قد تختصها بمصيبة الشر ، أو يقال إن الحياة العادية بين اقبال الدنيا وادبارها هي قليلة البلاء أو خفيفتها ، فإنما المهم « نبلوكم بالشر والخير فتنة . . » فالعوان بينهما خارج عن تلك البلية .

---

(١) مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) في كلام طويل : . . .

(٢) نور الثقلين ١ : ١٤٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن مسلم قال سمعت ابا عبدالله (عليه السلام) يقول : ان لقيام القائم (عليه السلام) علامات يكون من الله عز وجل للمؤمنين ، قلت : وما هي جعلني الله فداك ؟ قال : ذلك قول الله عز وجل ﴿ ولنبلونكم ﴾ يعني المؤمنين قبل خروج القائم (عليه السلام) ﴿ بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ قال : ﴿ نبلونكم بشيء من الخوف ﴾ من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم ﴿ والجوع ﴾ بغلاء اسعارهم ، ﴿ ونقص من الاموال ﴾ قال : كساد التجارات وقلة الفضل ﴿ ونقص من الانفس ﴾ قال : موت ذريع ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ لقلة ريع ، يزرع ﴿ وبشر الصابرين ﴾ عند ذلك بتعجيل الفرج ، ثم قال يا محمد ! هذا تأويله ، ان الله عز وجل يقول ﴿ وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم ﴾ .

والمصيبة ـ وهي ـ في الأكثر ـ التي توجع الإنسان قل أو كثر ـ قد تكون بما قدمت أيدي المصاب : « فكيف إذا أصابتكم مصيبته بما قدمت إيديهم » (٤ : ٦٢) ـ « فأصابهم سيئات ما عملوا » (١٦ : ٣٤) ـ وأخرى بما كسبت أيدي الناس ظلماً : « فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما أستكانوا » (٣ : ١٤٦)، حيث تجب فيها الدفاع حسب المستطاع : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » (٤٢ : ٣٩)، ويجمعها « ما كسبت أيديكم » أنفُسكم أو سواكم : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » (٤٢ : ٣٠).

والمصيبة ان كانت حسنة فمن الله وان كانت سيئة فمن نفسك وكلٌ من عند الله ، حيث يأذن له تكوينياً مهما كانت غير مأذونة تشريعياً : « ما أصاب من مصيبة إلاّ بأذن الله » « قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا هو مولانا » (٥ : ٤٩)، وهي تعم كتابة الجزاء هنا ، وكتابة تمشية الإختيار ممن يظلم بما يصيب سواه ، وكتابة الإمتحان لمن يرتقي بما يُصاب صابراً عليه ف « ما أصابكم من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فَخور » (٥٧ : ٢٣)، وعلى أية حال « قل كل من عند الله » صدوراً باذنه أياً كان : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلٌ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك . . » (٤ : ٧٩).

فإذا كانت المصيبة السيئَة من عند الله بما كسبت أيديكم أم بما كسبت أيدي الناس أم وابتلاءً من الله ، فقضيةُ الإيمان بالله أن تقول عندها « إنا لله وإنا إليه راجعون » مهما وجبت عليك الدفاع والإنتصار ، فإنها لا تطارد كلمة الإسترجاع .

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خَلَفاً صالحاً يرضاه » و « ما من نعمة وان تقادَم عهدها فيُجدِّد لها العبدُ الحمدَ إلا جدَّد الله له ثوابها ، وما من مصيبته وإن تقادم عهدها فيجدد لها العبدُ الإسترجاعَ إلا جدد الله له ثوابَها ». و « إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ـ فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمد واسترجع ، فيقول الله : إبنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد ».

و « ان للموت فزعاً فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فليقل : إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون . . . »وليس فحسب مصيبة الموت التي يحق لها الإسترجاع ، بل و « إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع فإنها من المصائب ». وقد « طفى سراج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون » فقيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمصيبته هي ؟ قال : نعم وكل ما يؤذي المؤمن فهو مصيبته له وأجر » وعلى الجملة « قسم الله العقل على ثلاثة أجزاء فمن كنَّ فيه فهو العاقل ومن لم يكنَّ فيه فلا عقل له ، حسن المعرفة بالله وحسن الطاعة لله وحسن الصبر لله » (١) .

هذا ! ثم و « قالوا » هنا تلك المهمة الكبرى التي يبشر الله فيها ، ليست

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٥٦ ـ ١٥٩ ـ أخرج كلاً جماعة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومنها ما اخرجه الديلمي عن عائشة قالت أقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد لدغته شوكة في إبهامه فجعل يسترجع منها ويمسحها فلما سمعت استرجاعه دنوت منه فنظرت فاذا أثر حقير فضحكت فقلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأبي أنت وأمي أكل هذا الإسترجاع من اجل هذه الشوكة ؟ فتبسم ثم ضرب على منكبي فقال : يا عائشة إن الله عز وجل إذا أراد أن يجعل الصغير كبيراً جعله واذا اراد ان يجعل الكبير صغيراً جعله .

هي ـ فقط ـ لفظة القول ، كما الصبر ـ أيضاً ـ ليس من هذه المقولة ، فإنما « قالوا » باللسان إخباراً عن حالة واقعة في الجنان ، فألسنتهم قائلة وأعمالهم ـ عند المصيبة ـ عما في القلب : « إنا لله وإنا إليه راجعون ».

أم « قالوا » بلسان قالهم وحالهم وأعمالهم ، فهم ـ إذاً ـ بكل كيانهم استرجاع لربهم عند مصائبهم . « إنا لله » ككلٍّ ـ في ذواتنا وصفاتنا وأفعالنا وإدراكاتنا ، فكلُّ مالنا ومنا وإلينا ، مماليك لله دون أية حرية طليقة عن مشيئة الله ، فحين تصيبنا مصيبته لسنا نتضايق أبداً ولا نتساءل ، لأنها ليست إلاّ باذن الله ، ثم « وإنا إليه راجعون » كيفما كنا وأين وأنّى .

ترى ما ذلك الرجوع ؟ أرجوع إليه عما كنا عنده ؟ « وهو معكم إينما كنتم » دون انفصال علمه وقدرته وإرادته ! .

أم رجوع إلى عالمه الأخير في الدار الآخرة ؟ ولم نكن فيها حتى نرجع إليها ! ثم الرجوع إليها ليس ـ بالتمام ـ رجوعاً إليه حتى وإن كنا من قبل فيها ! .

قد يعني « إنا إليه راجعون » رجوعنا الى ما كنا في « إنا لله » ولكن أين ؟ فهل رجوعاً الى ما نحن الآن من « إنا لله » وهو تحصيل للحاصل ؟! .

علّه رجوع الى « إنا لله » قبل الإختيار والتكليف إذ كنا أجنَّة في بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً حتى نعمل شيئاً فكنا « لله » لا لأنفسنا ، إذ لم نكن نسطع على شيء من أمرنا ، فكذلك نرجع إليه بنفس الحالة ، حيث الحياة البرزخية ثم الأخرى ، لا خيرة للأحياء فيها : « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » (٣٠ : ١١) . « وهو خلقكم أوّل مرة وإليه ترجعون » (٤١ : ٢١) . ف « إنا لله » اعتراف باختيار ما آختار الله لنا يوم الدنيا ، وكما كنا مسيَّرين فسوف نرجع إليه كما بدأنا .

أم « وإنا إليه راجعون » عن كلا المرحلتين من « إنا لله » حيث الرجوع

وان اقتضى البدء ، فالأولى بدءُه ، ثم الثانية تنتهي اليه مصيراً للمسير ، فقولنا : إنا لله، اقرار على أنفسنا بالملك وإنا اليه راجعون ، إقرار بالمُلك [1] ... فإذ نحن في البدء « لله » إختياراً ودون اختيار ، ثم في المصير ليس لنا اختيار ، فأحرى لنا ان نختار في عالم التكليف والإختيار ما هو يختار ، تصبُّراً على المصاب ، وقولاً بالصواب : « إنا لله وإنا إليه راجعون ». « والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » (٢ : ٢٤٥).

فعلى مَ تأسف وتجزع أيها الإنسان عند المصاب ولا يملكك إلّا رب الأرباب ، ثم وإليه المصير ! فلا حول لك ولا طَول في المصاب الذي ليس لك فيه ذهاب ولا إياب ، اللهم إلا الذي يأتيك جزاءً ليس لك عنه محيد .

ذلك ! ولكن الصبر على المصاب حيث أصاب ، لا يعني الصبر على كل ظلم وضيم ، فان واجب الدفاع عنده يحرِّض على كلِّ محاولة مستطاعة لدفع الظلم ، فإنما الصبر على ما وقع منه دون جزع او تساءُل على الله ، ثم العمل الجادُّ على دفع الإصابة المشرفة ، وإزالة البقية من الواقعة .

﴿ أولئكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأولئكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾١٥٧ .

وعلَّ هذه الثلاث - وأنعِم بها وأبشِر - هي المبشَّر بها في « وبشر الصابرين »:

ف « صلوات من ربهم » هي رحمات عدة ، يرفعهم الله بها إلى المشاركة في نصيب نبيِّه حيث يصلي عليه هو وملائكته ، فهي صلوات زيادة على عامة الصلوات في « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيماً » (٣٣ : ٤٣)، ثم « ورحمة » خاصة مع هذه

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٤٤ عن اصول الكافي ونهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام) .

الصلوات الرحمات « واولئك هم » وكأنه لا سواهم « المهتدون »، فهنالك صلوات تعم المؤمنين ، ثم خاصة تخص الشهداء منهم والصابرين ، ومن ثم أخص تخص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهله المعصومين (عليهم السلام)، وكما أمرنا ان نصلي عليهم لمّا نصلي عليه .

وقد تعني « صلوات » هنا لقَرنها بـ « رحمة » إنعطافات ربانية عليهم تخلّف رحمة عظيمةً تلمح لها التنكير في « رحمة » وقد يدل عليه « يصلي عليكم ليخرجكم » حيث الإخراج من الظلمات إلى النور هو الرحمة ، إذاً ف « يصلي عليكم » إنعطاف لذلك الإخراج عن ورطة الإحراج ، وكما أن « صلوات » تخلّف « رحمة » كذلك الرحمة تخلف الهداية ، ثلاثة ردف بعض ، كلٌّ تنتج الأخرى ، مهما كانت كلٌ صلاةً من الله ورحمةً وهدايةً ، إلاّ أن الإختلاف هو في الدرجة .

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ اَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾١٥٨ .

آية وحيدة في شعيره الصفا والمروة و : « التطوُّف بهما »، وهو فريضة في الحج والعمرة ، وركن فيهما ، فترى كيف يعبِّر عنه ب « لا جناح » سلباً لحرمته ، ثم « تطوَّع خيراً » إيجاباً لندبه ، والفريضة هي فوق الوجوب المتعوَّد ؟! .

« لاجناح »ـ بالنسبة لهذه الشعيرة الفريضة ـ تلمح أنه كان يخلد بخَلَد المسلمين يومذاك جناحٌ في التطوُّف بهما ، وكما تدل عليه أسباب نزول عدة : « أن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيءٌ صنعه المشركون » فانزل الله : ﴿ ان الصفا والمروة من شعائر الله . . ﴾ (١) ، ولأن أصناماً كانت

(١) في الكافي عن الصادق (عليه السلام) في حديث . . . وان المسلمين . . . وفي الدر المنثور عن ـ

على الصفا والمروة أو بينهما فكيف نسعى بينهما ؟ (١) فنزلت آية ٱللاجناح سلباً

ــ انس انه سئل عن الصفا والمروة ـ قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام امسكنا عنهما فأنزل الله الآية ، وفيه عن عمرو بن حبيش قال سألت ابن عمر عن قوله : ان الصفا . . . فقال : انطلق الى ابن عباس فاسأله فانه أعلم من بقي بما أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فأتيته فسألته فقال : انه كان عندهما اصنام فلما أسلموا امسكوا عن الطواف بينهما حتى نزلت الآية .

وفيه عن ابي بكر بن عبدالرحمن بن الحرث بن هشام لقد سمعت رجالاً من اهل العلم يقولون لما انزل الله الطواف بالبيت ولم ينزل الطواف بين الصفا والمروة قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وان الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من حرج ان لا نطوف بهما فانزل الله : ﴿ ان الصفا . . ﴾ قال ابو بكر فأسمع هذه الآية في الفريقين كلاهما فيمن طاف وفيمن لم يطف .

(١) في الدر المنثور ١ : ١٦٠ عن عامر الشعبي قال : وثن بالصفا يدعى إساف ووثن بالمروة يدعى نائلة فكان اهل الجاهلية اذا طافوا بالبيت يسعون بينهما ويمسحون الوثنين فلما قدم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الصفا والمروة انما كان يطاف بهما من اجل الوثنين وليس الطواف بهما من شعائر الله فانزل الله الآية . . . وفيه عن عائشة ان عروة قال لها : أرايت قول الله تعالى : ان الصفا والمروة . . . فما أرى على أحدٍ جناحاً ان لا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن اختي إنها لو كانت على ما أوّلتها كانت فلا جناح عليه الّا يطوف بهما ولكنها انما نزلت ان الأنصار قبل ان يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها وكان من أهلّ لها يتحرج ان يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا يا رسول الله إن كنا نتحرج ان نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله : ان الصفا والمروة . . . قالت عائشة ثم قدسن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الطواف بهما فليس لأحد ان يدع الطواف بهما .

وفي تفسير البرهان ١ : ١٧٠ عن تفسير العياشي في خبر حماد بن عثمان قال ابو عبدالله (عليه السلام) : انه كان على الصفا والمروة اصنام فلما ان حج الناس لم يدروا كيف يصنعون فأنزل الله هذه الآية فكان الناس يسعون والاصنام على حالها فلما حج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رمى بها .

لذلك الجناح المزعوم ، ثم « من شعائر الله » تثبت فرض السعي فإنها ـ ككلٍ ـ مفروضة على المسلمين في مجالاتها : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » (٢٢ : ٣٢) ومن تعظيمها تطبيقها بعد تعظيمها معرفياً وعقيدياً وقولياً ، ومن أعظمها إذاعتها بين الجماهير ، إذاً فترك تعظيمها هو من طغوى القلوب أم خلاف تقواها ، والتقوى بصورة عامة ولا سيما « تقوى القلوب » المستطاعة واجبة على أصحاب القلوب : ف « اتقوا الله حق تقاته » (٣ : ١٠٢)ـ « فاتقوا الله ما استطعتم » (٦٤ : ١٦) (١) .

وقد تقتضي طبيعة الحال نزول آية اللّاجناح عند أوّل فرضٍ لعمرة أو حج ، وهو عمرة القضاء ـ سابع الهجرة ـ، ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شرط عليهم ـ فيها ـ أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة فسئل عن رجلٍ ترك السعي حتى انقضت الأيام وأعيدت الأصنام فجاءوا إليه فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إن فلاناً لم يسع بين الصفا والمروة وقد أعيدت الأصنام فأنزل الله ﴿ .. فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ أي : « وعليهما الأصنام » (٢) .

---

(١) في فرض السعي احاديث عدة منها ما في الدر المنثور ١ : ١٦٠ ـ اخرج الشافعي وابن سعد واحمد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن خبيئة بنت أبي بحران قالت : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : واسعوا فان الله عز وجل كتب عليكم السعي ، وفيه اخرج الطبراني عن ابن عباس قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ان الله كتب عليكم السعي فاسعوا .

(٢) نور الثقلين ١ : ١٤٨ عن الكافي سئل ابو عبدالله (عليه السلام) عن السعي بين الصفا والمروة فريضة ام سنة ؟ فقال : فريضة ، قلت : او ليس قال الله عز وجل ﴿ فلا جناح عليه ان يطوف بهما ﴾ ؟ قال : كان ذلك في عمرة القضاء ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .

ومن ثم حجة الوداع حين حج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمون أجمع من استطاع إليه سبيلاً كما يروى عن الإمام الصادق (عليه السلام).

ام انها نزلت قبلهما حيث كان يتفلّت بعض المسلمين لأداء حج أو عمرة فرادى وفي خفية قبل عمرة القضاء وحجة الوداع ، ممن كانوا ـ بعدُ ـ في مكة المكرمة ، أم يقصدونها دونها ، وعلّها نزلت مرات ، أم تُليت على المسلمين مرة بعد أخرى ولا سيما في حجة الوداع وكانت أحرى بها ، ولأن الطواف بهما ـ بعدُ ـ بسوء السابقة لهما لوجود الأصنام ، كان تكلُّفا للموحدين الجُدد ، الباغضين الأصنام ، لذلك يلحّق ألّلاجناح هنا ب « ومن تطوع خيراً فان الله شاكرٌ عليم » حيث التطوع هو تكلف في الطوع لكراهية قلبية أماميه سواءً أكان في ندب لعدم فرضه ، فالآتي به يتكلف زيادة على واجب التكليف ، كما في تطوع الصوم على الذين يطيقونه : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون » (٢ : ١٨٤) فالصوم لمن يطيقه هو من تطوع الخير لصعوبته في نفسه ، كما ان قسماً من المندوب من تطوع الخير صعوبة نفسية لأنه زيادة على الفرض .

ام هو تطوع في فرض كما هنا إذ كانوا يتحرجون من الطواف بهما ظناً أنه سنة جاهلية ، وعلماً أنهما كانا محل الأصنام ومطافها ، فهنا الله يشكر الطائفين بهما ، علماً بهذه الكراهية ، وعلماً بأنه من الشعائر التي لا تترك بحال ، وعلماً بان في ذلك صلاح الجماعة المسلمة .

وهذه ضابطة سارية المفعول في كل الحقول أن تطوّع الخير خيرٌ عند الله ، وعلى ضوءها الحديث « أفضل الأعمال أحزها ».

فقد يكون تكلف الطوع ـ فقط ـ بدنياً كصوم المطيق له ، لإزالته الطاقة

البدنية ، ام ـ فقط ـ نفسياً ، كالآتي بالمندوب او المفروض ، مستهل التطبيق ، ولكنه مستصعب في وجه الحكمة .

أم هو متكلَّفٌ فيه نفسياً وبدنياً كالتطوف بالصفا والمروة ، فاجتياز تلك المسافة البعيدة مرات سبع ، بزحام بالغ ، وحرّ حارق ، وصدام في الجمع حانق ، ذلك تكلف بدني ! ثم هو تكلف نفسي في بعدين اثنين ثانيهما خفاء وجه الحكمة في ذلك الفرض الركن ، إضافة الى أوّلها ، تحرجاً عن موقف الأصنام وسنة كأنها جاهلية .

فليس التطوع ـ إذاً ـ ليدل على ندب المتطوع فيه كما لا يدل على فرضه ، فقد يكون ندباً ولا تطوع فيه كالسواك والنكاح أمّا شابه ، أو يكون فرضاً فيه تكلف كفرض الحج بكل مناسكه ، فالتطوع في صيغة واحدة هو تكلف الطوع ، سواءً أكان في فرض أو ندب . ولقد كانت الدعوة الجادة الجديدة الحادة ضد الشرك وطقوسه ، هزت أرواحهم هزاً ، وتغلغلت فيها إلى الأعماق ، فأحدثت انقلاباً نفسياً حتى لينظرون بجفوة وتحرّز الى ماضيهم الجاهلي ، حيث انفصلوا عنه انفصالاً تاماً طاماً كلّ كيانهم ، فلم يعُد منهم في شيء ، ولم تعد دوامته في شيء ، فكيف يطوفون بالصفاء والمروة وهو من طقوس الجاهلية ـ بزعمهم ـ وهو موقف الأصنام في الواقع الماضي ، ومدفنها بعد الماضي !.

هذا ـ ولكن شرعة الحق تريد الإبقاء على بعض تلك الشعائر لأنها من شعائر الله ، مهما اتخذتها الجاهلية الجهلاء من شعائرها ، واستغلتها لحرمة الأصنام إذ كانوا يلمسونها في طواف البيت والسعي ، نزعاً لها عن أصلها الجاهلي ، وعوداً بها الى أصلها الإلهي ، فليست الشعيرة الجاهلية المتَّخذة لتمحو الشعيرة الإلهية الأصيلة قبلها ف : «إن الصفا والمروة من شعائر الله . . »!.
وترى ما هي شعائر الله بوجه عام ؟.

لقد جاءت شعائر الله في ثلاث أخرى، كما «البدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير» (٢٢ : ٣٦) بل والحج بمناسكه ككل من شعائر الله: «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» (٢٢ : ٣٢) إذ هي تأتي بعد آية الحج بمناسك له: «وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوّفوا بالبيت العتيق. ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور. حنفاءلله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق. ذلك ومن يعظم شعائر الله...(٣٢). فالحج ككل هي شعائر الله: «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام...» (٥ : ٢). فلأن تعظيم شعائر الله هو من تقوى القلوب، وهي مفروضة قدَرَ المستطاع، ثم إحلالها ـ ومنه تركها ـ منهي عنه هنا، إذاً نتأكد أن التطوُّف بالصفا والمروة هو من تقوى القلوب الواجبة، لا يجوز إحلاله، وإنما «لاجناح» سلب لجناح مزعوم.

ثم الشعائر ـ لغوياً ـ هي جمع الشعيرة، وهي ما تُشعر وتعلن بدقة على كونها محسوسة باهرة ظاهرة، كما الشعار هو ما يشعر به الإنسان نفسَه أي يُعلم، فالمشاعر والشعائر هي المعالم الظاهرة المتظاهرة الإلهَية التي تُعلِم وتُعلِن للناس حقائق جمة بدقة وهمامة، فقد يكون شعار بلا شعور، أم شعور بلا شعار، ولكن شعائر الله تجمع إلى الشعار الشعور، وإلى الشعور الشعار، فهي مذياعات صوتية وصورية إلهَية للإسلام تعريفاً به ككلٍّ، وتشريفاً له ككلٍّ، في مناسك هي في الأكثرية الساحقة أو المطلقة أعمال أم تروك بلا ألفاظ إلاّ قلة

قليلة هي التلبيات والصلاة ، إذاً فليست الأعمال الجوانحية من شعائر الله ، ولا كل الواجبات أو الفرائض الجوارحية هي من شعائر الله ، وإنما هي مذياعات الشرعة الإلَهية بطقوسها الجماعية المعلَنة ، التي تدل بدقة ولطافة على حقائق رقائق في شرعة الحق .

وكما ان « الشهر الحرام » في المائدة مصداق محوري للشعائر لأنه مسرح زمني لشعائر الحج ، كذلك « إن الصفا والمروة من شعائر الله » هما مسرح مكاني لشعيرة السعي ، فليس الزمان والمكان أياً كان شعيرة إلَهية إلاّ بما يحل فيهما من شعائر الله .

ولأن كونهما من شعائر الله يتفرع عليه هنا « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » نعرف كضابطة سارية ان الشعائر الإلَهية لا يصد عنها أي صاد ، فإنها ماضية على أية حال ، قاضية على أي جناح مزعوم حين يُفسح لها مجال .

والجناح بمعنى الميل ، ميلاً عنه وهو الأكثر استعمالاً كما هنا ميلاً بفاعله عن الحق ، أم ميلاً إليه وهو الأقل استعمالاً وعلّه أيضاً ميل الى الباطل ، أم هي معرَّبة عن « گُناه » الفارسية ، وعلى أية حال فهي عصيان ، والسعي فريضة في حج البيت وعمرته « فمن حج البيت أو اعتمر » سواءً أكان حج التمتع أو القران أو الإفراد ، أو العمرة مفردة وسواها ، فرضاً وسواه ، فانها يُفرضان بالإحرام ، والطواف هو الدّوران حول الشيء إذا كان له حول كالكعبة المباركة ، وهو ـ ككل ـ السير الذي ينتهي آخره إلى أوّله ، فهو يعم السعي والطواف ، فالواجب فيه ـ ككل ـ الإنتهاء الى حيث بدء .

وواجب البدءة في السعي هو من الصفا ، وكما ينتهي السير إليها ثم الى المروة ، ف « إبدأ بما بدء الله به » [1] كضابطة عامة هنا وفي غيره .

(١) حديث مستفيض عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وائمة اهل بيته (عليهم السلام) في ـ

والسعي من أهم المناسك وأحبّها إلى الله ، بل و « ليس لله منسك أحب إليه من السعي وذلك أنه يُذل فيه الجبارين » (١) بل و « جُعِل السعي بين الصفا والمروة مَذَلَّةً للجبارين » (٢) هذا ـ ولكنه لا يؤتى به إلّا ضمن حج أو عمرة كما قال الله « فمن حج البيت أو أعتمر . . » فالإتيان به دونهما جُناح وبدعة ، واما الطواف بالبيت فجائز في غيرهما لثابت السنة وعدم الحظر عنه في آيته ، وهنا « فلا جناح » قد يعتبره في غير حج أو عمرة جناحاً ! .

ترى ومتى فرضت فريضة السعي بين الصفا والمروة ، وما هي الصفا وما هي المروة ؟ قد يكون « سمي الصفا صفا لأن المصطفى آدم هبط عليه فقطع الجبل اسم من اسم آدم (عليه السلام) يقول الله عز وجل : « ان الله اصطفى آدم ونوحاً . . » وقد هبطت حواء على المروة ، وإنما سميت المروة مروة لأن المرأة هبطت عليها فقطع للجبل اسم من إسم المرأة (٣) .

كما وان الصفيّة هاجر قامت على الصفا ـ حين عطش إسماعيل ـ فقالت : هل بالوادي من أنيس ؟ فلم يجبها أحد فمضت حتى انتهت إلى المروة فقالت :

= مجالات عدة ، منها ما في الكافي عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال في حديث طويل : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ابدء بما بدأ الله به فأتى الصفا فبدأ بها . وفي الدر المنثور ١ : ١٦٠ ـ اخرج مسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في سننه عن جابر قال : لما دنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الصفا في حجته قال : ان الصفا والمروة من شعائر الله ، ابدؤا بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه . وعن الصادق (عليه السلام) ما من بقعة أحب إلى الله من السعي لانه يذل فيها كل جبار رعنيد.

(١) نور الثقلين ١ : ١٤٧ في الكافي عدة من اصحابنا عن سهل رفعه قال : ليس لله . . .

(٢) فيه عنه عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : جعل السعي . . .

(٣) نور الثقلين ١ : ١٤٥ في علل الشرايع باسناده الى عبدالحميد بن ابي الديلم عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : . .

هل بالوادي من أنيس ؟ فلم تُجَب ، ثم رجعت إلى الصفا فقالت كذلك حتى صنعت ذلك سبعاً فأجرى الله ذلك سنة . . . » [(١)] .

و« لأن الشيطان ترايا لإبراهيم (عليه السلام) في الوادي فسعى وهو منازل الشياطين » [(٢)] : منازل الشياطين ـ تحت الأرضية ـ الأوثان ، التي دفنت في الصفا والمروة ، والشياطين فوق الأرضية الملاحِقين الطائفينَ بالبيت ، فقد نطأ الأوثان بسعينا عليها ، ونفرُ عن الشياطين الذين يلاحقوننا بعد الطواف ، ليستلبوا عنا الروحية التوحيدية المخلَّفة عنه، فليس هو العدْو كيفما كان ، فقد يعدو الساعي وقد يركض ، فكم من عاد غير ساع ، أو ساع غير عاد ، إنما هو الجد الهادف في العمل الجادّ ، والهرولة فيه هي سعي في سعي ، كذلك والشياطين الداخليين ، حيث السعي بهرولته تسقطهم عن قلبك ، كما اسقطتهم عن قالبك ، إذاً فثالوث الشيطنات تسقط بسعيك لو سعيت فيه كما أمرت . والسعي هو الجِد الهادف ، تفتيشاً دائباً عما يهمه ، ام فراراً عما ينعمه ، والساعي في السعي بين الصفا والمروة يفر عن الشيطنات الثلاث ، وليجد ضالة التوحيد عقبئ ، وضالة العيشة دنياً ؛ كما ونلاحقهم سعياً وراءهم .

فآدم (عليه السلام) يسعى من الصفا الى المروة ـ بعد طواف البيت ـ إنشاداً لضالته:المرأة ، فقد ضل عنها وضلت عنه في الطواف ، إنقطاعاً كاملاً إلى الله ، وهنا ينشدها بأمر الله ، فإن كلاًّ من الأمرين هو في مجالته وحالته من أمر

---

(١) المصدر عن العلل باسناده إلى معاوية بن عمار عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : إن ابراهيم (عليه السلام) لما خلف اسماعيل بمكة عطش الصبي وكان فيما بين الصفا والمروة شجر فخرجت امه حتى قامت على الصفا . . .

(٢) المصدر عن العلل باسناده الى حماد عن الحلبي قال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) لم جعل السعي بين الصفا والمروة ؟ قال : لان الشيطان . . .

الله ، رمزاً للجمع بين الدين والدنيا ، الدين كأصل والدنيا كهامش لا تضربه بل وقد تؤيده ، وهذا درس أوّل في السعي من آدم .

ودرس ثان من الصفيّة هاجر حيث حلّت محل الصفي على الصفا تفتّش عن ماءٍ وأنيس لإسماعيلها العطشان الوحيد ، فلا يُؤيسها رَمضاء الهواء وفاقد الماء ، او الإتكالية الفوضى-الفاضية-على الله دون سعي ، بل تسعى سعيها مرات سبع ، متكلة على الله بسعيها ، فتفور فائرة الماء من آرتزية زمزم .

فليسعَ الساعون للحصول على بغية الحياة الرامز إليها الماء ، دون أن يصدُّهم صادٌ ، متكلين على الله بسعيهم « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى » .

ودرس ثالث من السعي ان تطأ مخابىء الأوثان « إساف ونائلة » أمّا شابه ، وذلك من شعائر التوحيد السلبية بعد إيجابية الطواف ، فلأنّ السلب في كلمة التوحيد أطول من الإيجاب وأعضل ، فليكن الإيجاب بين سلبين ـ فإنه أسهل ـ: أوّلها سلبيات الإحرام أما شابه ، وثانيهما سلبيات السعي ، البادئة بوطىء الأوثان الدفينة تحت الأرض ، ثم الظاهرة عليها ، ومن ثم الدفينة في النفس ، فان حركات السعي ، ولا سيما الهرولة كما الأبال ، تُسقط عنك ما علّقته بنفسك ما هو أجنبي عنها من إنيات وأنانيات .

وكل ذلك ـ كما الطواف ـ في سبعة أشواط ، سلباً لأبواب الجحيم السبع ، التي هي من شيطنات سبع ، المنقسمة من أصولها الثلاثة : « الشيطان ـ البقر ـ النمر » وحْذَويات ثلاث ، وأثنينيات ثلاث ، وجمعية واحدة هي كلُّ الثلاث .

أوَليس الصفا والمروة ـ بعد ـ من شعائر الله ، حيث يشعرنا برموز كهذه ، وهو من إذاعات إلٰهية بارزة لدحر الشياطين والشيطنات ، وإثبات حق الحياة ، والسعي في كلا النفي والإثبات في حيوية التوحيد الحق ؟ .

ثم بعد كل ذلك « ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم » ربنا يشكرنا أن تطوعنا خيراً وهو خير لنا لاله : « فمن تطوع خيراً فهو خير له » (٢ : ١٨٤)!، لأن تطوع الخير هو خير الخير ، تكلفاً نفسياً وبدنياً في السعي أما شابهه مما يُتكلف فيه... ومن صِلات آية الصفا بما سبقها من آيات ، أن السعي هو من الشعائر الإبراهيمية ، ثم ل « بشر الصابرين » موضع من صبره على إسماعيله الرضيع حيث وضعه وأمّه بواد غير ذي زرع ، وصبرُهاجر عليه حتى سعت لتجد له أنيساً أو ماءً ، ثم وموضع من الصبر على تطوع السعي ، نفسياً وبدنياً « فان الله شاكر عليم »!

ولنقف حائرين مختجلين أمام ذلك التعبير العبير « فان الله شاكر » وكأنه أهديت إليه بهدية يشكر لها ، والمُهدي في كل مجالات الهدايا هو الله !.

وإذا كان الرب يشكر عبده على واجب عبوديته الصالحة له دون ربه ، فماذا على العبد في شكره لربه وهو غريق في خِضَمّ نعمه !.

مسائل فقهية أخرى في السعي :

١ السعي ركن في الحج بأقسامه الثلاثة وفي العمرة مفردة وتمتعاً، يبطل كلٌّ من الحج والعمرة بتركه عمداً ، فان تركه ناسياً يعيده حيثما ذكر ان أمكن ، وإلاّ فيطاف عنه (١) ، وهو بعد الطواف ، ثم بعده التقصير ـ فقط ـ في عمرة

---

(١) الكافي ٤ : ٤٣٦ والتهذيب ١ : ٤٨٩ صحيحة معاوية بن عمار عن الصادق (عليه السلام) : « من ترك السعي متعمداً فعليه الحج من قابل » واما الناسي ففي الحسن عن معاوية بن عمار عن الصادق (عليه السلام) قال قلت له : رجل نسي السعي بين الصفا والمروة ؟ قال : يعيد ذلك ، قلت : « فانه خرج ؟ قال : يرجع فيعيد السعي » (التهذيب ١ : ٤٨٩ والاستبصار ٣ : ٢٣٨) وفي صحيح ابن مسلم عن احدهما (عليهما السلام) سألته عن رجل نسي ان يطوف بين الصفا والمروة حتى رجع الى أهله ؟ قال : يطاف عنه .

التمتع ، وفي المفردة بين الحلق والتقصير ، وفي الحج ليس بعده حلقٌ ولا تقصير .

٢ واجب السعي هو الأشواط السبعة ، ابتداء من الصفا ، واختتاماً الى المروة بنيَّة السعي للحج أو العمرة .

٣ واجب الأشواط أن تكون بين الجبلين حيث النص « أن يطوف بهما » دون « عليهما ـ أو ـ فوقهما » وكما في الأثر الصحيح « السعي بين الصفا والمروة فريضة » فلو انحرف عن الحد بين الجبلين أجبره .

٤ يبطل السعي بالزيادة عمداً كما « الطواف المفروض إذا زدت عليه مثل الصلاة إذا زدت عليها فعليك الإعادة وكذلك السعي » (١) وسائر التفاصيل الخارجة عن مدلول آية السعي راجعة الى فقه المناسك (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ أولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾(١٥٩)

الكتمان هو الستر على ما يجب إفشاءه أم هو فاش ، سئل عنه أم لم يسأل ، فانما هو هنا الأمر المنزل لكافة المكلفين ، فانه لغوياً : ستر الحديث،وهو يعم الحديث الفاشي المستور بعد الظهور او الذي لا يُظهر ، وهو بصيغة أخرى : ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه وحصول الداعي إلى اظهاره ، وهذا أخف مراحل الكتمان ، ثم « ما أنزلنا » يعم نازل الوحي من كتاب وسنة ، و « البينات » هي الحجج الباهرة ، سواءٌ أكانت بينات التوحيد او الرسالة

---

(١) التهذيب ١ : ٤٨٩ والاستبصار ٣ : ٢١٧ و ٤٣٩ عبدالله بن محمد عن ابي الحسن (عليه السلام) .

(٢) راجع كتابنا (اسرار ـ مناسك ـ ادلة الحج) باللغة الفارسية .

والمعاد ، ام بينات لمادة الرسالة ، فهي على أية حال بينات للهدى فانها مادة الرسالة ، حيث الشرعة مركبة - ككل - من بينات وهدىً ، والثانية ناتجة عن الأولى ، فقد تُكتم البينات كإخفاء لآيات الهدى تكوينية أو تشريعية ، أم تُكتم الهدى الناتجة عن تلكم البينات كتماناً لدلالتها على هداها ، تأويلاً لها إلى غير معناها .

ثم « من بعدما بيناه للناس » لها مرحلتان ، من بينات وهدى بينت لناسٍ أم لكل الناس ثم تُكتم بتدجيل وتجديف ، وتلك هي الدركة السفلى من الكتمان .

ومن بينات وهدىً بينت لغرض أن تبيَّنَ للناس ، فانها ليست - ككل - مبيَّنةً دون وسيط لكل الناس ، لأنَّ منهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أماني فكيف بيِّنت لهم ؟ ومنهم دارسون لا يقرؤن الكتاب فكيف بينت لهم ؟ ومنهم من يتلون الكتاب ولا يعرفون كل بيناته وهداه ، وهم كلهم من ضمن الناس الذين يقول الله عنهم « من بعد ما بيناه للناس » ، فسواءً بيِّنَ لناسٍ دون وسيط ، أم بيِّنَ بوسيط يحمِّل تبيينَه لسائر الناس ، وكما تُقسِّم الأرزاق قسمين ثانيهما ان يُرزق المرزوق بما يُنفق عليه المنفقون بإذن الله تكويناً وتشريعاً ، فانه أيضاً من رزق الله ، فقد تشمل الآية الكتمانين ، كما تشمل الكاتمين كتابياً ومسلماً ، كتماناً لأصول من الدين أم فروع منه (١) .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٤٩ في احتجاج الطبرسي عن ابي محمد العسكري (عليهما السلام) حديث طويل وفيه : قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) من خير خلق الله بعد ائمة الهدى ومصابيح الدجى ؟ قال : العلماء إذا صلحوا ، قيل : فمن شر خلق الله بعد ابليس وفرعون وثمود وبعد المسمِّين بأسمائكم وبعد المتلقبين بألقابكم والآخذين لأمكنتكم والمتأمرين في ممالككم ؟ قال : العلماء اذا فسدوا ، هم المظهرون للأباطيل . . .

فالله يبين ما أنزل من البينات والهدى للرسول بياناً للناس ، والرسول يبينه لمن يأهل تعلماً لكلّ ما أنزل وهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وهم يعلّمون العلماء على مراتبهم ، ثم يعلمون سائر الناس ، لأن النازل من الله ليس - فقط - للرسول او الائمة أو العلماء ، إنما « من بعد ما بيناه للناس »: « وأنزلنا إليك الكتاب لتبين للناس ما نزل إليهم » (١٦ : ٤٤) و« هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين » (٣ : ١٣٨).

ف« شر خلق الله العلماء إذا فسدوا وهم المظهرون للأباطيل ، الكاتمون للحقائق وفيهم قال الله « اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » [1] .

وكما يحرم على علماء الكتاب كتمان ما أنزل الله ، كذلك يحرم على الجهال كتمان انفسهم عن تعلُّم ماأنزل الله ، والحق الأوّل هو على العلماء ، فان من الجهال من يجهل انه يجهل ، أم يعلم جهله ولكنه لا يجد سبيلاً الى التعلم ، فعلم الدين كالماء يجب إرساله الى كل مكان ليتنج نتاجه أيّاً كان وفي أيِّ كان .

وليس يجب تعليم الدين - فقط - لمن يسأل ، بل ومن لا يسأل أم لا يعرف كيف يسأل ، بل هما أحرى ممن يسأل ، والكتمان يشمل موارد السؤال وسواها ، ف« من سئل من علم عنده فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » [2] ، و« من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ألجمه الله

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٦٢ عن ابي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : . . .

وفي تفسير البرهان ١ : ١٧٠ العياشي عن زيد الشحام قال : سئل ابو عبدالله (عليه السلام) عن عذاب القبر قال : ان ابا جعفر حدثنا ان رجلاً اتى سلمان الفارسي فقال : حدثني فسكت عنه ثم عاد فسكت فأدبر الرجل وهو يقول ويتلو هذه الآية ﴿ إن الذين يكتمون . . . ﴾ فقال له : أقبل - إنا لو وجدنا أميناً لحدثناه ولكن أعد لمنكر ونكير إذا أتياك في القبر فسألاك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن شككت او التويت ضرباك على رأسك بمطرقة معهما تصير منه رماداً ، فقلت =

بلجام من نار »[1] ، و« مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدِّث به كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه »[2] .

وقد تعني « ما أنزلنا » - فيما عنت - : فطرتَ الله التي فطر الناس عليها ، والعقلَ ، فانها مما أنزل الله من البينات والهدى ، مشمولة ل « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هوى » .

فمن الناس من يكتم فطرته وعقليته ، صداً على نفسه منافذ الهدى ، وآخرون يصدون على آخرين ، وثالثة تجمع في الكتمان بين بينات نفسه وهداها ، وما للآخرين فطرياً وعقلياً ، ثم يكتم البينات الأخرى وهداها ، فهو في ثالوث اللعنة العصيان ! .

إذاً ف « ما أنزلنا » تشمل المنزل تكويناً وتشريعاً ، انفسياً كالفطرة والعقلية الإنسانية وآفاقياً ككل البينات الكونية والشرعية ، والفرق بين البينات وهي الآيات الربانية الباهرة - والهدى ، ان الثانية هي نتيجة الأولى فالآيات البينات هي دالات على الهدى في كل حقول الدلالات ، فمن يكتم البينات عن دلالاتها ، أو الهدى بعد واقعها بتلك البينات « اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » فكلّ ذلك كتمان مهما اختلفت دركاته حسب مختلف درجات البينات

= له : ثم مه ؟ قال : تعود ثم تعذب ، قلت : وما منكر ونكير ؟ قال : هما قعيدا القبر ، قلت : أملكان يعذبان الناس في قبورهم ؟ قال : نعم .

(١) المصدر عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... وفيه أخرج ابن ماجة عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا لعن آخر هذه الامة أولها فمن كتم حديثاً فقد كتم ما انزل الله .

(٢) المصدر أخرج الطبراني في الاوسط عن ابي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

والهدى ، ومختلف دركات الكتمان قبل البيان وبعد البيان وصداً عن التبيان . ف « اولئك » الكاتمون « يلعنهم الله » إبعاداً عن رحمته يوم الدنيا ويوم الدين « ويلعنهم اللاعنون » استبعاداً لهم من الله عن رحمتيه ، وقد يشمل « اللاعنون »ـ إلى جنب الملائكة والجنة والناس ـ الدوابُّ [1] .

وطبعاً هم « اللاعنون » بحق ، فان هناك لاعنين بغير حق ، وغيرُ لاعنين الكاتمين ، ف « اللاعنون » هنا هم الذين يلعنون مع الله وبحكم الله وكما يلعن الله . فلأن اللعنة الناتجة عن كتمان ما أنزل الله تشمل المحرومين عنه ، وتخلق جوَّ البعد عن رحمة الله ، فكأن الكاتمين تحولوا بذلك الكتمان الى ملعنة ينصبُّ عليها اللعن من مصادره ، ويتوجه إليها بعد الله من كل لاعن ! .

ثم « ويلعنهم » ليس ـ فقط ـ إخباراً عن واسع اللعن ، بل وهو انشاءٌ أمراً لمن يأتمر أن يلعن الكاتمين ، في مثلث الجنان والقال والفعال ، خلقاً لجوّ اللعنة عليهم حتى يحيدوا عن غيهم أم يذبلوا بغيِّهم ، فانهم ألعن الناس وأظلم الناس ، قلوبهم آثمة وفي بطونهم نار ، فما أنزل الله للناس هو شهادة لله عند العالمين به : « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » (٣ : ١٤٠) وهو من إثم القلب الذي هو قلب الإثم : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (٢ : ٢٨٣) وقد أخذ الله ميثاق العلماء على التبيين « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّننَّه للناس ولا تكتمونه » (٣ : ١٨٧) « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً اولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ

(١) الدر المنثور ١ : ١٦٢ ـ أخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن ابي حاتم عن البراء بن عازب قال : كنا في جنازة مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ان الكافر يضرب ضربتين بين عينيه فيسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعن كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله ﴿ ويلعنهم اللاعنون ﴾ .

النار » (٢ : ١٧٤) « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » (٤ : ٣٧).

وبيان ما أنزل الله واجب كفائي ليس على أعيان العلماء ككلٍّ ، ويكفيه برهاناً أن ليس بعد بيان من فيه الكفاية أيّ خفاء فلا كتمان ، ولكنها الكفاية قلّما تتفق أم لا تكون إمّا لعدم قيام مَن فيهم الكفاية ، أم عدم الكفاية في العلماء الحضور ، فيجب التعلم قدر الكفاية حتى يمكن التعليم ممن فيه الكفاية ، فما دام في العالم جهّال فالعلماء الساكتون ـ غير المعذورين ـ لا يُعذرون ، وكذا الذين بإمكانهم التعلُّم حتى يعلموا ولا يتعلمون .

ثم البيان في كل عصر ومصر يتطور حسب الحاجة والإمكان ، دون جمود على سنّة خاصة متعوّدة ، فلكل حالٍ مقالٌ ، ولكل مجالٍ حالٌ ، كما الأدواء تختلف حسب مختلف الحال .

فمن المجاهيل مَن هم بحاجة إلى كلتا البينات والهدى ، ومنهم من تنقصه البينات وهو منجذب إلى الهدى ، ومنهم من تنقصه الهدى دون البينات ، ف « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل بمن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (١٦ : ١٢٥) .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١٦٠).

هنا استثناء عن اللعنة الناتجة عن الكتمان بتوبة عنه ، ولا فقط قلبيةٍ بينه وبين ربه ، بل « وأصلحوا » ما افسدوا بكتمانهم « وبيَّنوا » ما كتموا، ومنه كتمانُهم كتمانَهم ، إذ كانوا كاتمين أنهم كانوا كاتمين ، فكل من فسد وأفسد بكتمانهم لابد وأن يصلحوه معرفياً وعملياً ، فمن كان حياً فأصلحه وبين له فله ، ومن مات على فساد الكتمان فعليه ، وتوبة الله عليه تختص بما أصلح

وبين دون سواه ، قاصراً عنها بموته أم مقصراً بتكاسله ، فانه على أية حال مقصر في كتمانه ولا عفو كلياً إلّا إصلاحه .

فحين يتوب ويستطيع الإصلاح عما كتم والبيان لحدٍّ يرجع المضلَّل عما ضل بكتمانه ، « فاولئك أتوب عليهم » وحين لا يتوب إطلاقاً ف « اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » في الأولى والأخرى ، وحين يتوب ولا يصلح او يبين على مكنته مقصراً ، أم لا يتمكن لصمود المضلَّل على ضلاله أم موته ، فهو عوان بينهما ، فالتوبة درجات كما الكتمان دركات و « كل امرىءٍ بما كسب رهين »، ولأن قبولَ التوبة رحمة من الله وحنان ، فهي غير مفروضة على الله إلا كما كتب على نفسه ، فهنا يسقط السؤال انه حين لا يقدر على اصلاح ما افسد ولا البيان فما هو ذنبه في قصور ، حيث الجواب انه معاقب على ما قصر اللهم إلا فيما جُبر ، فهو بالنسبة لما لم يجبر من كتمانه مستحق اللعنة قصُر ام قصَّر مهما بان البون بينهما .

وإذا لم يستطع هو على الإصلاح بنفسه والبيان فليحاول فيهما بعلماء ربانيين بامكانهم ما هو عنه قاصر ، حيث إن واجب الإصلاح لا يختص بنفسه دون وسيط .

فهؤلاء المصلحون الذين بيّنوا بعد ما أفسدوا بما كتموا ، يفتح لهم القرآن هذه المنافذ المضيئة الثلاث ، ذريعةَ الخلاص ، يفتحها لهم فتنسم لهم نسمة الأمل على ضوء جادِّ العمل ، في إعلان صارخ لكل التائبين المصلحين : « وأنا التواب الرحيم ».

فأما المصرون على كتمانهم فلا يزدادون إلّا لعنات على لعنات :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾١٦١ .

« الذين كفروا » اياً كان كفرهم ، ولا سيما كفر الجحود بالله أم برسالات الله ، أم وكفر الكتمان لما أنزل الله من البينات والهدى « وماتوا وهم كفار » دون توبة وإصلاح « اولئك عليهم لعنة الله » إبعاداً عن رحمته « والملائكة » إمساكاً عن إنزالها باذن الله ، واستمساكاً بالله في ذلك الإبعاد « والناس أجمعين » قد تعني جمع الناس الى الملائكة ، ثم جمعهم في لعنتهم الى الله استدعاءً منه ، مهما خرج ناس عن كونهم لاعنين كالملعونين انفسهم وأضرابهم ، أم وهم أنفسهم يلعنون أنفسهم بما حرموها عن رحمة الله ، كلعنة تكوينية الى تشريعية لمكلفي المؤمنين « من الجنة والناس أجمعين »، وهل « الذين كفروا » هنا تعم المرتدين عن إيمان ؟ طبعاً نعم ، مهما كان منهم الذين لم يؤمنوا وأمامهم دلائل صدق الإيمان ، وكذلك الذين كفروا لا عن إيمان ولا عن دلائل الإيمان الحاضر ، وإنما لم يفتشوا عن صالح الإيمان ، فقد تشمل « الذين كفروا » ثالوثه مهما كانوا دركات كما الإيمان درجات.وهل إن الموت هنا ـ فقط ـ هو حتف الأنف ، فإن جن على كفره ثم مات بعد ردح لم يمت كافراً حيث المجنون لا مؤمن ولا كافر ؟.

القصد من الموت هو إنقطاع التكليف دونه ، أن لم يكن يفيق في حياة التكليف عن جِنّة كفره ، وليست النجاة عن وصمة الكفر إلّا بالتوبة الصالحة وهذا لم يتب حتى جن ومات على جِنته ، فقد مات وهو كافر ، ام مات عن حياة التكليف على حاله ، ام ولأقل تقدير لم يتب ، والمستثنى من اللعنة هو التائب المصلح المبين !.

صحيح ان المجنون لا هو مؤمن ولا كافر ، ولكن الذي كفر ثم جن ومات على جنونه لم يمت وهو مؤمن فما هو السبب لتكفير عن كفره ، بل مات وهو كافر حيث استمر كفره الى جنونه وهو مرحلة من موته ، مهما لم يكن مكلفاً حال جنونه .

وهـل إن أضـرابهم من الكفـار ـ أيضـاً ـ يلعنـونهم كـما المؤمنـون ؟ وهم يستحسنـون كفـرهم ! إنهم يلعنـونهم هنا إبعـاداً زائـداً عن رحمـة الله بمـا يستحسنـون : « ثم يوم القيـامـة يكفـر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » (٢٩:٢٥) كما وكل كافر يلعن الكفار والظالمين زعماً منه أنه مؤمن جهلاً مقصراً .

وقـد تلمح آيتنـا أن التـوبـة عن الكفـر قبـل المـوت ـ أيـاً كـان ـ مقبـولـة بشروطها ، والقول الفصل حول أحكام الكفر والإرتداد والتـوبة راجـع الى محله الأليق كـآل عمران : « كيف يهـدي الله قـومـاً كفـروا بعـد إيمـانهم وشهـدوا أن الرسول حق وجاء هم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين . اولئك جزاءهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العـذاب ولا هم يُنظرون . إلّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم . إن الـذين كفـروا بعـد إيمـانهم ثم ازدادوا كفـراً لن تقبـل تـوبتهم واولئـك هم الظالمون . إن الذين كفروا ومـاتوا هم كفـار فلن يقبل من أحـدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به اولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين » (٨٦ ـ ٩١).

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾[١٦٢] .

والخلود ـ كما لمّحناه في مختلف المجالات ـ هو البقاء مدة طويلة ، و« لا يخفف عنهم » وما أشبه لا تدل على لا نهائية العذاب ، بل هو دليل عدم تخفيفه ما داموا ودام العذاب قدر الإستحقاق ، وأما إذا فنوا بفناء النار فليس ذلك تخفيفاً في أيٍّ من الأعراف إلّا إذا فنت النار قبـل ذوقهم ما يستحقـون من العذاب ، أم خـرجوا عن النار قبل كمال العذاب الـذي يستحقون ، فـانها تخفيف عن مدة العـذاب ، ام خفف عنهم العذاب عِدّة لا مدّة ، ام خفف فيها ، فكل ذلك تخفيف ، وأما إذا ذاق مستحق العـذاب كمّاً وكيفـاً ثم فنى بفناء النـار ، أم أخرج قبـل فناءهـا باستحقاق ، فما ذلك بتخفيف في العذاب .

فأسطورة اللانهائية في العذاب كشريطة تدار بين من لا يحسبون لحق الله وخلقه حساباً ولا يرجون لله وقاراً أم هم غافلون ، إنه ظلم عظيم أن يقابَل العصيان المحدود بأثر محدود من عاص محدود ، بعذاب غير محدود ف « هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون »؟!.

وضمير التأنيث في « فيها » راجع إلى اللعنة ، فهم - إذاً - خالدون - ما هم أحياءً في النار - في لعنة مثلثة الزوايا ، فهي تجنح إليهم وهم في النار بما خلّفوا من سنة الكفر والكتمان ، كما ويعذّبون بهذه اللعنات في أمد الخلود أبدياً وسواه .

ثم « ولا هم يُنظرون » في خلود العذاب غير المخفّف عنهم ، حين يستنظرون ، بل يقال لهم « إخسئوا فيها ولا تكلمون » .

ذلك لأنهم أغلقوا على أنفسهم كل منافذ الرحمة يوم الدين ، فقد حملوا معهم لعنة مطبقة من كل لاعن لا ملجأ منها ولا صدر حنون ، وتلك اللعنة هي أم العذاب وأساسه ، والنار هي مؤلة ومساسه ، لعنة متسيطرة ما دام في حياة التكليف جِنة أو ناس ، حيث إن كفر الكتمان خلّف لعنة طولَ خط الحياة ، على المؤمنين خلقاً لجوّ اللاإيمان ، مما شكّل عليهم مصائب لتطبيق الإيمان ، فأشكل عليهم حياةَ الإيمان،وعلى سواهم من قاصرين إذ ابتعدوا عن الإيمان ، وعلى المقصرين إذ أوثق رباط كفرهم ضد كتلة الإيمان .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ١٦٣ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾١٦٤.

هنا وحدة الألوهية مزودة بآيات سبع « لقوم يعقلون » حقَّ العقل ، وهي : « ١ خلق السماوات والأرض ـ عبارة أخرى عن خالقيته ـ ككل ـ لكل كائن ـ ٢ واختلاف الليل والنهار ـ ٣ والفلك . . . ـ ٤ وما أنزل الله ـ ٥ وبث فيها . . . ـ ٦ وتصريف الرياح ـ ٧ والسحاب المسخر » .

و « إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال : وإلهكم إله واحد . . . » (١) .

فإن « وجود الأفاعيل دلت على أن صانعاً صنعها » (٢) وهذه الأفاعيل السبعة دالة بإتقان على خالق ومدبر واحد « لا إله إلّا هو الرحمٰن الرحيم » حيث الرحمة الرحمانية العامة والرحيمية الخاصة هنا وهناك نجدها بانتظام دون تفاوت واصطدام: « ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . . »؟! .

آيتنا تلك هي من أوسع الآيات التوحيدية دلالة على توحيده تعالى من جوانب شتى ، وفي أسباب النزول أنها نزلت بديلة عما اقترحته قريش عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) « ان يجعل لنا الصفا ذهباً . . . » (٣) .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٤٩ في اصول الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال قال لي ابو الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام) يا هشام . . .

(٢) المصدر عن كتاب التوحيد قال هشام فكان من سؤال الزنديق أن قال : فما الدليل عليه ؟ قال ابو عبدالله (عليه السلام) : وجود الافاعيل . . ألا ترى انك إذا نظرت الى بناء مشيد مبني علمت أن له بانياً وان كنت لم تر الباني ولم تشاهده .

(٣) الدر المنثور ١ : ١٦٣ ـ أخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أدع الله ان يجعل لنا الصفا ذهباً نتقوى به على عدونا فأوحى الله إليه إني معطيهم فاجعل لهم الصفا ذهباً ولكن ان كفروا بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فقال رب دعني وقومي فأدعوهم يوماً بيوم فأنزل الله هذه الآية .

الآية الأولى من السبع : [١] « إن في خلق السماوات والأرض » وترى أنه « خلْقُه السماوات . . »؟ والناكر لربوبيته ناكر لخلقه واحداً أو كثيراً ، مهما اعترف المشركون أنه خالق !.

فكأن « خلق » هنا بمعنى « مخلوق »: إن في مخلوقية السماوات والأرض ، أو أنه « خلق » دون فاعل مصرح ، يصرح به الكون المخلوق ، وعلى أية حال فحدوث الكون بسماواته وأرضه دليل أن له محدثاً ، وأصول الدلالة على حدوث الكون ككلٍّ هي : التركُّب ـ التغيُّر ـ الزمان والحركة ، فإنها أدلة قاطعة لا مرد لها على حدوث الكون بمادته الأولية الأم ، إذاً فله محدثٌ .

ولأن الخلق على شتات أجزاءه وخواصه منسجم كهيكل واحد ذي أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض ، ف « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » فذلك دليل وحدة الخالق ، فان من لزامات تعدد الخالق عديدُ الصنع المتفاوت ، إضافة إلى إستحالة التعدد في الكمال المطلق اللامحدود ، حيث العدد بحاجة الى مايز بين أصحاب العدد مزيجاً بجهة الإشتراك وذلك تركُّب وعجز ونقص في كيان الخالق .

[٢] « واختلاف الليل والنهار » ولنأخذ مثالاً ماثلاً بين أيدينا ليلَ نهار ، الليلَ والنهارَ الأرضيين ، والإختلاف افتعال من الخَلف ان يتكلف الإتيان خلف الآخر ، او الخُلف ان يختلف عن الآخر تخلفاً عن مسيره أو مصيره ،

= وفيه عن ابي الضحى قال : لما نزلت : وإلهكم إله واحد عجب المشركون وقالوا إن محمداً يقول : وإلهكم إله واحد فليأتنا بآية ان كان من الصادقين فأنزل الله . . .

وفيه عن عطاء قال : نزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة : وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ـ فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد ؟ فأنزل الله : ان في خلق . . . ﴾ .

فالإختلاف ـ إذاً ـ منه رحمة ومنه زحمة ، والأوّل هو المعني من إختلاف الليل والنهار ، أن يأتي كلّ خلف صاحبه وفق نظام التدبير من الخلاق العظيم . فالليل والنهار كلّ مختلفٌ صاحبَه ، وليس مختلفاً عن صاحبه متخلفاً عن مسيره ، ولا مختلفاً « في » مع صاحبه ، وذلك الإختلاف يأتي في أبعاد هي ـ إضافة الى اختلاف كلٍّ صاحبه في الظهور ـ إختلافٌ في البعد الزماني والمكاني ، فاننا نجد في كرتنا الأرضية على كل حال ليلاً ونهاراً مع بعض في أفقين متقابلين اختلافاً مكانياً ، ونجد كلاً من الليل والنهار تختلف ساعاته ، فأقصر الأيام هو نصف ساعة كما في السويسرا ، وأطولها ستة أشهر كما في القطبين ، وبينهما عوانٌ من ١٢ ـ الى ـ ٢٠ ـ الى ٢٤ ساعة ، فالحركة اليومية الأرضية على محورها ترسم لها الليل والنهار بمواجهة نصف الكرة أو يزيد مع الشمس ، إكتساباً من نورها وحرارتها فيسمى النهار ، واستتار الشمس عن النصف الآخر أم يقل ، فتدخل تحت الظل المخروطي وتبقى مظلمةً فتسمى الليل ، اختلافٌ دائب لكلٍ من الفرقدين وراء بعضهما البعض حول الأرض .

وعامل ثان هو ميل سطح الدائرة الإستوائية او المعدل عن سطح المدار الأرضي في الحركة الإنتقالية شمالاً وجنوباً ، وقضيتهُ ميل الشمس من المعدَّل شمالاً أو جنوباً راسياً للفصول . وهو سبب استواء الليل والنهار في خط الإستواء في القطبين .

أما القطبان أنفسهما فلهما في كل سنة شمسية تامة يوم واحد وليلة واحدة كل منهما نصف سنة ، والليل في قطب الشمال نهار في قطب الجنوب وبالعكس .

فالسنة في المنطقتين القطبيتين نصفها ليل ونصفها نهار على التساوي ، ثم بينهما وخط الإستواء يختلف كلٌ من الليل والنهار عن الآخرين من ١٢ ساعة

الى ٢٤ ، ف ١٢ عند خط الإستواء ، و٢٤ عند الدائرة القطبية ، ثم تأخذ في الزيادة في الدائرة القطبية من ١٢ ساعة الى ٢٤ وإلى شهر فشهرين إلى ستة أشهر ، وأعجِب باختلاف زمنيّ بين نصف ساعة وستة أشهر ! .

كما والسنة كلها حاضرة الفصول الأربعة في مختلف أيامها ، فالصيف في الشمال كمصر وأوروبّاشتاءٌ عند أهل الجنوب كـ « ناتال » .

وكل ساعات الليل والنهار كائنة حاضرة في كل الساعات حسب مختلف الآفاق في كرتنا الأرضية ، فالصباح عندنا مساءٌ عند آخرين وليلٌ عند ثالث وفجرٌ عند رابع وهكذا سائر الأوقات ، قضيةُ الكروية لأرضنا ، واختلاف أنحاء الأرض قرباً وبعداً .

اختلافات ثلاث منضَّدة منتظَمة ، فأصل حدوث كلٍّ بعد الآخر دليل على محدثها ، ونضدُ المحدَث دون تفاوت وتهافت دليل وحدة المحدِث ، سبحان الخلاق العظيم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ذلك ! وإن توالي الإشراق والعتمة ـ فذلك الفجر وذلك الغروب ـ يهتز له المشاعر الحيَّة ، والقلوب النابهة ، مهما فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار ، ولكن القلب المؤمن تتجدد في حسِّه هذه المشاهد ، ويظل دائباً في ذكر الله بهذه الآيات المكرورة .

٣ « والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس » فان جريانها هو برياح مسخَّرة بين الأرض والسماء ، ام وبطاقات أخرى كشف عنها العلم وكلُّ ذلك من نعم الرحمن « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان » (٥٥ : ٢٤). ولو أن هناك آلهةً دون الله لكانت هناك رياح متضاربة متطاحنة كلٌّ تحمِل إلى جانب ، لكن « هو الذي يسيِّركم في البحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج

من كل مكان وظنوا أنه أحيط بهم دعوُا الله مخلصين لـه الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » (١٠ : ٢٤).

فجريُ الفلك في البحر آية ، واتجاه القلب في أعماق الفطرة الى ربوبية وحيدة في خِضِمِّ البحر الملتطم ـ شئت أم أبيت ـ آية « لقوم يعقلون »: « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » (١٧ : ٦٨).

٤ « وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها » ففي ضم ميْت الماء بميْت الأرض بما فيها من ميْت الحبوب ، نرى في مثلث الميتات حياةً ، سبحان الخلاق العظيم .

٥ « وبثَّ فيها من كلِّ دابة » ومهما كان ضمير التأنيث في « فيها » راجعاً إلى الأرض مبدئياً كظاهر التعبير لتقدم الأرض ، ولكنه راجع ـ أيضاً ـ إلى السماوات لسبق ذكرها ، ولأن « من آياته خلق السماوات والأرض وما بثَّ فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » (٤٢ : ٢٩).

فخلق الدواب وبثُّها دون تهافت وتفاوت آية لقوم يعقلون أنهما من إلّه واحد .

٦ « وتصريف الرياح . . » و« الرياح » جمعاً هي في سائر القرآن رياح الرحمة ، والريح-إلاّ الموصوفة بالطيبة ـ هي ريح العذاب ، و« ما هبت ريح قط إلاّ جثا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على ركبتيه وقال : « اللّهم إجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ، اللّهم إجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » [1] .

(١) الدر المنثور ١ : ١٦٥ ـ اخرج الشافعي وابو الشيخ والبيهقي في المعرفة عن ابن عباس قال : . . قال ابن عباس : والله ان تفسير ذلك في كتاب الله : ارسلنا عليهم ريحاً صرصراً . . .

فهناك أرياح خبيثة يعبّر عنها بصيغة الإفراد « ريح فيها صِرٌّ » (٣ : ١٢٧) « ريح عاصف » (١٠ : ٢٢) « ريح قاصف » (١٧ : ٦٩) « الريح العقيم » (٥١ : ٤٢) « ريح صرصر عاتية » (٦٩ : ٦) « ريح مصفرة » (٣٠ : ٥١) اللّهم إلاّ « ريح طيبة » (١٠ : ٢٤) لولا وصفها لكانت خبيثة ، فهذه ستة .

ثم رياح بصيغة الجمع كلها طيبة كما هنا « وتصريف الرياح » و « هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته » (٧ : ٥٧) « وارسلنا الرياح لواقح » (١٥ : ٢٢) « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً » (٣٥ : ٩) وهذه أربعة .

وتلك ـ اذاً ـ عشرة كاملة من الرياح بين خبيثة وطيبة ، كلها ـ فيما أراد الله ـ طيبة ، ف « الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبُّوها وسئلوا الله من خيرها وعوذوا بالله من شرها »[1] .

ولو أن هناك مصرِّفين للريح والرياح لتفاوت التدبير والتقدير ، و « ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

ومن عجائب الرياح انها تحصل وتفعل ما تفعل بين الأرض و/ ١٦٠٠٠ ذراعاً فوقها ، والأغلب في تحصُّلها أن الأشعة الضوئية الواقعة من الشمس على

= فارسلنا عليهم الريح العقيم . . . ارسلنا الرياح لواقح ، وارسلنا الرياح مبشرات .

اقول : وهكذا نجد في القرآن كما في آيات الرياح العشر .

(١) المصدر ـ أخرج الشافعي وابن ابي شيبة واحمد وابو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي في سننه عن ابي هريرة قال : أخذت لنا الريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بلغكم في الريح ؟ فقلت : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . . وفيه عن ابن عباس ان رجلاً لعن الريح فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تلعن الريح فانها مأمورة وانه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه .

الهواء تتبدل حرارة ، فتعرضها خفة قضية الحرارة ، فلا يستطيع الهواء على حمل ما يعلوها أو يجاورها من بارد الهواء الثقيل ، فيتساقط على الحار الخفيف ، فيجري الخفيف ـ إذاً ـ إلى خلاف سمت الدفع ، وهذه هي الأغلب في ظاهرة الرياح .

٧ « والسحاب المسخرين السماء والأرض » والسحاب هو المسحوب من أبخرة الأرض ، حيث تُركم وتُمطِر « فترى الودق يخرج من خلاله » وقد يعبَّر عنه بالمُزن والمُعصِر ، ولكن الغمام ما ليس فيه ماءٌ ويحسبه الناظر سحاباً .

ففي خلق السحاب بين السماء والأرض ، وإرسالها بصورة منظمة دون فوضى أم تهافت دليلٌ أن صاحبها الساحب لها الممطر بها إلّه واحد ، سبحان الخلاق العظيم .

فترى هذه السبع مؤتلفة متآلفة غير متخالفة وأن فيها « لآيات لقوم يعقلون » عقلَ فطرة وفكرة ، وعقلَ إحساس وعلم لو كانوا يعقلون .

فلو أن الإنسان ألقى إلى عقله عقليته ، وألغى عنه بلادة الغفلة وكرور الألفة ، فاستقبل مشاهد الكون بإحساسات متجددة جادّة ، ونظرات مستطلِعة مستعلية على نزوات ، كالرائد الذي يهبط إلى الكون أوّل مرة ، فتلفت عينه كل ومضة ، وسمعُه كلُّ نامة ، وحسُّه كلُّ حركة ، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التي تتوالى كدائرة الشريطات على الأسماع والأبصار فالقلوب ، سبحان الله مقلب القلوب .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذابِ ﴾١٦٥ .

الأنداد هم الأمثال الأضداد ، أمثال في الألوهية بعضاً أو كلاً فأضداد في شؤون الألوهية كلاً أو بعضاً ، و« يتخذ » هنا ، لا سيما بعد « إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » لمحة صارحة أن لا أنداد لله ذاتياً أو مُتَخذة من عند الله ، وإنما « من الناس من يتخذ من دون الله أنداداً » كما وان تنوين التنكير تهوين لمكانة هؤلاء الأنداد .

وقد يخرج من الأنداد الأولياء المعبودون من دون الله إذ هم ليسوا بأضداد لله ، مهما اتخذوا انداداً .

وهنا تنديد شديد بمن يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله « فماذا تعني كحب الله ؟ » هل هو كحبهم الله ؟ ونراهم يحبون أندادهم أكثر مما يحبون الله ، بل وقد لا يحبون الله ! أم هو كحب المؤمنين الله ؟ « والذين آمنوا أشد حباً لله » تلمح بأشدها أن هؤلاء الأنداد يحبون الله كما يحبون أندادهم ! أم كحب يليق بالله وهو توحيد الحب إلهَياً ، وقد تعني « كحب الله » ككلّ المحتملات الثلاث ، أنهم يحبون أندادهم كحبهم الله ، أو كحب المؤمنين الله ، أو كحب يليق بالله ، وكل هؤلاء على دركاتهم تشملهم « يحبونهم كحب الله » .

ثم « والذين آمنوا أشد حباً لله » تعني انهم اشد حباً له منهم لله أو لآلهتهم ، لأنهم يوحدون حبهم لله وهؤلاء يقتسمونه بين أندادهم ، وقد يحبون معهم الله ، مهما كان الأشد لا يشمل الملحدين الذين لا يحبون الله حتى يكون حب المؤمنين أشد منهم ، أو يحبونهم كحبهم لله في أصل الحب إلهَياً حيث يحبونهم كآلهة كما المؤمنون يحبون الله لأنه الله ، مهما اختلفت درجات الحب عندهم تسوية بين الله والأنداد ، أم ترجيحاً لها عليه ، ولكن « الذين آمنوا أشد حباً لله » إذ لا يشركون في حبهم بالله أحداً كما لا يشركون بالله .

فكما يجب توحيد الله في كافة ميِّزات الألوهية والربوبية ، كذلك توحيده في حبه ، ألّا يساوى ولا يُسامى في الحب بسواه ، لا كإلّه وان في ذرة مثقال ، ولا كمحبوب سواه اللّهم إلّا حباً في الله فانه قضية حب الله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله . . . » (٣ : ٣١).

والحب الأشد من حبهم ـ للمؤمنين ـ ذو بعدين اثنين : أشد من حبهم لله ، وأشد من حبهم لأندادهم ، فان ذلك حب موحَّد خالص دون أيِّ شريك وهذا حب فيه شركاء أو شريك ، فقضية الإيمان الموحَّد هي الحب الأشد الموحَّد لله ، لحدٍّ لا يبقي مجالاً لحب غير الله كإلّه ولا سواه .

وحين يندِّد بمؤمنين ساقطين يحبون غير الله أحب من الله ، فليس القصد منه هو الحبُّ الإيماني ، بل حباً عملياً أنهم يعاملون غير الله كأحب من الله ، غفلة أو تغافلاً عن حب الله : « قل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال أقرفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبُّ اليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » (٩ : ٢٤).

فانهم لا يحبون هؤلاء ـ إذ يحبونهم ـ كأندادٍ لله فانه إشراكٌ بالله ، بل كأحباء إعتياديين قضيةَ العواطف والمصلحيات البشرية الحاضرة ، التي قد يغيب معها حب الله المتفوق عليها ، وذلك فسق في الحب وليس كفراً فيه .

وحب من سوى الله بين ممنوع وممنوح ، فالأوّل هو حب الأنداد وهو إشراك بالله ، ويعده حب أهل الله كما تحب الله ـ على سواه ـ دون إشراك لهم بالله ولا تأليه،وهو يتلو الإشراك بالله ، ومن ثم حب من لا يحبه الله لا كإلّه ولا كأهل الله ، وهو تخلُّف عن شرعة الحب في الله .

والثاني هو حب الله والحب في الله ، ثم التسوية في حب أهل الله على

اختلاف درجاتهم ضلال ، كأن تحب سلمان كما تحب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في درجة واحدة ، إفراطاً بحق سلمان وتفريطاً بحق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكما الذين « اتخذوهم ائمة من دون الإمام الذي جعله الله للناس اماماً » [(١)] قد اتخذوا لهم أنداداً يحبونهم كما هم ، فكفر الحب والحاده أن تحب غير الله ولا تحب الله ، وإشراكه تأليهاً أن تحب من دون الله أنداداً كحب الله ، وفسقه - دون تأكيد - أن تسوي في الحب بين الله وأهل الله ، أم أن تحبهم أقل منه استقلالاً بجنبه ، وإيمان الحب أن توحد حبك لله كإله مهما تحب سواه ، وأعلى منه ألاّ تحب سواه إلاّ في الله ، وقمته أن تصبح بكل كيانك حباً لله .

إن دوافع الحب الموحد الأصيل لله حاضرة حاصرة ، وهي في حب غير الله كما الله غائبة خاسرة حاسرة ، فبصيغة واحدة حب غير الله لا في الله إشراك في شرعة الحب بالله مهما اختلفت دركاته ، فمطلق الكمال - أياً كان - محبوب فطرياً وعقلياً ، فضلاً عن الكمال المطلق وهو الله تعالى شأنه فكيف نحب مَن سواه كما نحبه ؟.

ومطلَق المُنعِم - أياً كان - محبوب كذلك ، فضلاً عن المِنعم المطلَق وهو الله تعالى شأنه ، ومطلق العلم والقدرة أما شابه من كمال محبوبٌ ، فضلاً عن العالم القدير اللانهائي في كل كمال مرغوب وهو الله تعالى شأنه .

وقد خرف وهرف وانحرف من تقوّل ألاّ يمكن حب الله ، اللّهم إلاّ حباً

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٥١ في اصول الكافي بسند عن جابر قال : سألت ابا جعفر (عليهما السلام) عن هذه الآية قال : « هم والله فلان وفلان اتخذوهم . . . هم والله يا جابر ائمة الظلمة واشياعهم » اقول : هذا من باب الجرى والتأويل الى مصداق ادنى ، فان حرمة التسوية بين غير المتساوين جارية على كل حال .

لنعمه وإكرامه ومن عباد الله مَن يحبونه لأنه الله ، لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره .

والحب هو اول تعلق فطري بين المنعَم ومنعِمه ، وله درجات حسب درجات النعمة والمنعِم والمعرفة به « والذين آمنوا أشد حباً لله » هم درجات في ذلك الأشد لحد الشغف ، ألّا يبقى في قلبه وفي كلّ كيانه الّا حب الله أمّن يحب الله طُولَ حب الله وطَولِهِ ، بحوله تعالى وقوله ، وإنهم تجسّدٌ لحب الله وكأنهم هم حب الله ، لا كونَ لهم ولا كيان إلا حب الله وطاعته ، وأفضلهم رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فانه أوّل العابدين والعارفين بالله ، ومن أسماءِه الجبيته « حبيب الله » وهو أفضل أسماءه وسماته كما « الله » أفضل أسماء الله .

وترى « أنداداً » هنا هي كل ما سوى الله من أوثان وطواغيت ؟ ولا مرجع لضمير العاقل في « يحبونهم » إلّا ذووا العقول الذين قد اتخذ وامن دون الله أنداداً ! ولا يُعقل حب الأصنام كحب الله ! ولا أن الأصنام متبَّعون مهما هم معبودون ، وهنا تبرُّءُ « الذين اتُّبعوا من الذين اتّبعوا » إذاً فهم كل من يُعبد من دون الله اللهم إلّا الصالحين إذ ليسوا اضداداً لله مهما اتُّخذ واله شركاء ، ولا هم متَّبعون إذ لا يدعون إلى أنفسهم .

ومن أندُّ الأنداد وألَدُّها الهوى : « افرأيت من اتخذه إلَهه هواه » وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أبغض إلَه عبد في الأرض الهوى »! فمن يحب هواه كما يحب الله ، حباً لها كإلَه أم سواه ، فقد ضل عن شرعة الحب مهما اختلفت دركاته إشراكاً بالله وفسقاً عن شرعة الله .

وقضية حب الإنسان نفسه أن يحب ربه المستكمل لها الخالق إياها ، فليحب نفسه إذا أحبها الله حباً في الله ، وليبغضها إذا ابغضها الله بغضاً في

الله ، وليقدِّر نفسه متعلقة ـ ككل ـ بالله يروضها بتقوى الله ، ويمحور الله بمرضاته في حياته كلها دون سواه ، وهذا هو من حق توحيد الله .

حب كل شيء راجع الى حب النفس ، وليرجع حب النفس الى حب الله ، لا ان يحب الله لأنه من حب النفس، بل يحب نفسه لأنه من حب الله ، موحداً في الحب دون إشراكٍ بالله حتى نفسه على إيمانه، فضلاً عنها على كفره وإشراكه !.

كلٌ منا يجول في كل حياته حول نفسه في كل حركاته الآفاقية والأنفسية ، ولتكن نفسه طائفة حول ربه ، فهو في كل حركاته و سكناته الحائرة فيها حورَ نفسه ، حائر في العمق حور ربُه ، لا يبتغي إلا مرضاته ، تطوافاً على طول خط الحياة بخطوطها وخيوطها حول ربه ، حولاً معرفياً وحُبّياً وعملياً ، مبتعداً عن كل محور سوى الله حتى نفسه المؤمنة بالله ، وذلك هو التوحيد الحق .

وللحب مراحل خمس هي الود والعشق والهَيَمان والخلة والشَغف والخامسة هي البالغة مبالغ الحق ومراحلها إذ بلغت شغاف القلب ولبه وفؤاده .

إن حب الشغف والخلة هما المعتمد عليهما في شرعة الحب ، أن ليس معلّلا بما يرجع الى منتفعات النفس أو الابتعاد عن مضارها فانها حب العبيد والتجار ، وذلك الحب غير المعلَّل هو حب الأحرار ، أن تحب الله لأنه الله ، لا ـ فقط ـ لأنه الرحمن الرحيم ، بل لأنه الكمال والجمال والجلال اللانهائي ، وهو المحبوب فطرياً دون سبب إلاّ هو ، فانه هو حظه ذاتياً ، فكما الإنسان يحب نفسه لأنه هو ، فليحب ربه لأنه أكمل مما هو ، بل وهو بكل ما له ومنه ، يكون منه ، فلا محبوبَ له ـ إذاً ـ إلاّ هو .

إذاً فذات الله عين حظه ، ثم ذوات أخرى محبوبة لله هي على الهامش ، حباً في الله ولله لا سواه ، وذلك الحب لا يتغير إلاّ تقدماً كما الله لا يتغير ، وأما

الحب المعلّل فهو متغير بتغير أسبابه أمام صفات الجمال والجلال للحق المتعال .

﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾١٦٥ .

« لو » هنا في موقف التحسر ومسرح التاثر التكسُّر للذين ظلموا في شِرعة الحب ، فـ « لو » مدوا بأبصارهم الى مسرح العذاب ومصرح القوة لله جميعاً ، و « لو » تطلعوا ببصائرهم إلى حين يرون العذاب ، لرأوا حينذاك « أن القوة لله جميعاً » دون سواه ، ورأوا « أن الله شديد العذاب » .

لو يرون ذلك المسرح المصرح ، الحاسم الموقف ، القاصم الظهر ، لانتبهوا عن غفوتهم ولكن لا حياة لمن تنادي ! . لو يرون . .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾١٦٦ .

اجل « ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » (٢٩ : ٢٥) « كلما دخلت أمة لعنت أختها » (٧ : ٣٨ « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (٤٣ : ٦٧)، بل ورأس الأنداد ورئيسهم إبليس يتبرأ من تابعيه : « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » (١٤ : ٢٢)! فهناك ويلات الحسرات للذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله .

فهنالك الأسباب بينهم كلها متقطعة بهم ، إذ ينشغل كلٌّ بنفسه عن سواه ، وتسقط كافة الصِّلات غير الأصيلات ، اللّهم إلاّ صلة التقوى ، وظهرت أكذوبات الأنداد وكل القيادات الضالة وخوت ، وهنالك يتحسر التابعون :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ

الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾١٦٧.

أتراهم ليس لهم ان يتبرأوا منهم هناك كما تبرأوا منهم حتى هم ناظرون «لو أن لناكرة . . »؟ نعم ! ولكن لا يفيدهم ـ فقط ـ التبرء منهم هناك ، وإنما هو التبرُّءُ في حياة التكليف : «ربنا اخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل . . ».

«كذلك» البعيد المدى ، العميقة الأسى «يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم» رؤية لملكوت أعمالهم ، التي هي جزاءُهم يوم الحساب ف «هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون» :ـ «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . . ».

«وما هم بخارجين من النار» ما دامت النار ، وأما إذ لا نار ولا أهل نار ، فما هو ـ إذاً ـ بخروج عن النار ، وإنما خروج عن الحياة بخروج النار عن حياتها ! ، فلا تدل ـ إذاً ـ على البقاء اللامحدود في النار ، وإنما الخلود الأبدي فيها ، انهم في النار ما دامت النار .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟

مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ

كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ
صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ
وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ
ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ
فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ
بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

بعد ما بيّن الله حق وحدة الألوهية ووحدة الحب إلهياً لنفسه ، هنا يقرر حق التشريع له وحده ، مناحراً لما كان يفعله المشركون من تحليل او تحريم لا يرجع الى دليل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾١٦٨ .

الحلال فَعال من الحِلِّ والحَلِّ مقابل العقد ، فالشيء غير المعقود ولا المحظور حلال ، سواءٌ سبقه عقد الحظر ام لم يسبقه ، وليس للمأكول مما في الأرض سابق حظر كأصل ، إلّا انه لله ، فلا يحل اكله إلّا بمرضات الله ، وهو يحِلّه في أمثال هذه الآية كأصل وضابطة عامة تُحِلُّ الحظر عما يؤكل .

والطيب ـ هنا ـ هو كل ما تستطيبه النفس أكلاً ، وطبعاً النفس الباقية على الطبع الإنساني الأولى ، دون المنحرف عنه ، المنجرف الى دركات الحيونة الوحشية التي تستطيب أكل كل ما يمكن ابتلاعه ، مهما كان حشرة ، كما في الطباع الأوروبية المنحرفة عن إنسانيتها .

ثم هي النفوس ككل ، دون كل نفس ، فقد يستطاب أكل شيء عند أشخاص خصوص متخلفة عن الجماهير ، ام يُستقذر كذلك ، والمعيار هو الإستطابة الجماهيرية بالطباع الأوّلية ، حيث الأحكام الشرعية يراعى في تشريعها جمهرة الناس دون الخواص .

أترى « مما في الأرض » تبعيض لمأكولات الأرض ، أن : كلوا بعض المأكولات ، ثم « حلالاً طيباً » بيان لذلك البعض ؟ فهما ـ إذاً ـ حالان ل « مما في الأرض » ام مفعولان ل « كلوا »؟ فالآية ـ إذاً ـ مجملة بالنسبة لـ« حلالاً » إذ لم يبين الحلال مهما عرف « طيباً » بما تعرفناه !.

فلنعرف خصوص الحلال مما في الأرض ، الطيب ، حتى يُسمح لنا أكله ، فحين نشك في حلّه الخاص لا يحل أكله ، وهذه هي أصالة الحظر ، المطرودة بنصوص كقوله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » (٢ : ٢٩) وقد تنافي ـ ايضاً ـ سماحة هذه الشرعة وسهولتها !.

أم إن « مما في الأرض » تبعيض لما في الأرض ، فان منه مأكولاً ومنه غير مأكول ، ولم يقيد النص « ما في الأرض » بالمأكول ، حتى يبعّض بأداته ، فمطلق النص « ما في الأرض » يشمل كل ما في الأرض ، ثم « من » تبعّضه بالبعض المأكول .

إذاً ف « كلوا مما في الأرض » سماح عام لأكل كلّ ما يؤكل ، فهل إن « حلالاً طيباً » هما مفعولان ل « كلوا مما في الأرض » تقييداً لسماح الأكل ؟ فكذلك الأمر ! حيث الآية ـ إذاً ـ مجملة في الحلّ ، ثم « كلوا من طيبات ما رزقناكم » دون قيد الحل ، و « انما حرم . . » الحاصرة الحرمة فيما حصرت مهما كان نسبياً هما لا تساعدان على أصالة الحظر ، أم إجمال الآية في الحِلّ !.

أم انهما حالان ل « مما في الأرض » كما ل « كلوا » كلوا أكلاً حلالاً طيباً ، مما في الأرض حلالاً طيباً ، حلاً عاماً كضابطة لأصل الجواز ، وطيباً تقييد لذلك الحل كأوّل ما يقيد الأكل والمأكول ، وكما تؤيده « كلوا من طيبات ما رزقناكم . . » إذاً ف « حلالاً » حال لواقع الأكل والمأكول على أية حال ، ثم « طيباً » حال ثان او وصف تقييدي ل « حلالاً » يخرجه عن إطلاق الحلّ ، ام إن « طيباً » لها دور « حلالاً » بياناً لأصالة الطيب ، الّا يسمح باستقذار مأكول مما في الأرض إلّا ما ترفضه الطباع الإنسانية ، فتصبح « طيباً » أوسع مجالاً مما كان تقييداً ، إذاً فيكفي في حلّ المأكول عدم استقذاره نوعياً واقعياً ، لا واستطابته كذلك .

وقد يقيد الأكل عن حلّه العام بعد طيباً ب « ما رزقناكم » و « مما غنمتم »: « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » (٨ : ٦٩) « فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً » (١٦ : ١١٤) تقييداً للحل بكونه مما ملكته من مشروعه : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكون تجارةً عن تراض منكم » (٤ : ٢٩). إذاً فكل ماكول طيِّبٍ يحل أكله بغير باطل ، كضابطة عامة ، إلاّ ما استثني من حل الأكل مادة او مدة ، كماً او كيفاً ، فالمشكوك جواز أكله داخل في ضابطة الحل إلاّ ما ثبت الحظر عنه بدليل من كتاب أو سنة .

ومن القيود العامة لحل الأكل في آيتنا « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » وكخطوة الإسراف والتبذير فانها من الشيطان ، وخطوة التحريم لغير المحظور أكله والتحليل للمحظور أكله ، وكخطوة أصالة الحظر ، مهما اختلفت هذه الدركات في الخطوات ، وعلى أية حال فاتباع خطوات الشيطان هو الإنجذاب في قياده ، ان تكونوا سيّقةً للشيطان فيما يخطوه .

ولأن الخطوة هي ما بين القدمين من المسافة حالة المشي ، فقد تعني خطواتُ الشيطان وسائله وذرائعه الى بغيته الأخيرة وهي الإشراك بالله والإلحاد في الله ، فليس الشيطان ليورد الإنسان إلى أخيرة المهالك إلاّ بخطوات من صغيرة الى كبيرة الى كبرى ، فعند ذلك الطامة الكبرى وكما قال الله :

﴿ إنّما يَأمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٦٩ .

فالسوء هنا هو ما دون الفحشاء ، كما الفحشاء هنا هي دون « أن تقولوا على الله ما لا تعلمون » وبصيغة أخرى الفحشاء هي أقبح انواع السوء ، « وأن تقولوا » هي أقبح انواع الفحشاء ، فالفحشاء هي المعصية المتجاوزة حدَّها إما في نفسها ام الى غير العاصي ، ام تجمعهما ، ثم العقيدة السيئة ، والفاحشة هي أفحش من عملية السوء والفحشاء .

فاتباع خطوات الشيطان محظور في كل الحقول ، أكلاً كما هنا ، أمّا سواه من أفعال وتروكٍ كما : « يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » (٢ : ٢٠٨)- « ومن الأنعام حَمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . ثمانية ازواج . . قل ءآلذكرين حرم أم . . » (٦ : ١٤٣)- وعلى أية حال :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر . . » (٢٤ : ٢١): « انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، هنا « وان تقولوا . . » هي قولة الفرية على الله في تحريم او تحليل مالم يأذن به الله ، وأفحش منه المشاقة الصريحة لحكم الله ، أنني أحرم مهما أحل الله ، أم أحلّل مهما حرم الله .

وقبلهما سوء وفحشاء عملي وعقيدي ، فمن سوء عملي أكل الحرام الخفيف مادة وحرمة ، ومنه عقيدياً تحليله افتراءً على الله ، ومن فحشاء عملي الحرام المغلظ والعقيدي منه فريته على الله،والسوء والفحشاء العقيديان هما أسوء وأفحش منهما عملياً ، فلذلك يفرد العقيدي بالذكر بعد مطلق السوء والفحشاء : « وان تقولوا . . ».

فقد يعصي العاصي معترفاً انه عاصٍ ، وأخرى محللاً له تقصيراً في التفتيش عن دليل ، فتوى بغير علم ، ام افتراءً على الله بمعارضة الدليل ، ام مشاقة لله بمصارحة أنني أحلل وأحرم ، رغم ما حكم الله ، وذلك ثالوث منحوس بدركاته الثلاث قد تعمه « وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » ام قد يفلت الأخير من نصها داخلاً في الأولوية .

فالقول على الله بغير علم - بدركاته - هو أسوء من السوء وأفحش من الفحشاء العمليين ، مهما كان القسم الأوّل من الثالوث سوءً أمام الثاني ، وهذا

فحشاء أمام الثالث من الناحية العقيدية .

فمن السوء عملياً في ظلال آيتنا ترك أكل ما لم تثبت حرمته ، اللّهم إلاّ حائطة ثابتة بدليل ، ومنه عقيدياً أصالة الحظر .

كما من الفحشاء عملياً أكل الثابت حرمته ، ومنها عقيدياً القول بحليته دون علم ، ثم بعلم ، ثم فوقهما عملياً التورط في المحرمات الكثيرة الكبيرة ، وعقيدياً تحليلها افتراءً على الله ، ام مشاقة علنية لحكم الله ، وكما منه الإستناد الى القياس والإستحسان أما شابه مما ليس دليلاً شرعياً ، بل الأدلة الشرعية تعارضه ، كل هذه قد تشمله ثالوث خطوات الشيطان بمختلف دركاتها .

فحذارَ حذار من ويلات خطوات الشيطان ، فانه لا يحمل المؤمن المتقي على ثالثة الدركات إلا أن يخطو به أولاها ثم ثانيتها ، عملياً او عقيدياً،حتى يورده في مسيره الى مصير الهلاك الأخير « جهنم يصلونها وبئس المصير » .

وإنها ثالوث الخطوات في حصر « إنما » وليست وراءها خطوة ، وهي بين آفاقية عملية « السوء والفحشاء » وأخرى انفسية « وان تقولوا » قولاً بغير علم ! .

أترى الشيطان يأمر ـ فقط ـ بالسوء و . . ؟ ونراه قد يأمر ـ فيما يأمر ـ بالخير ! إنَّ أمره بغير السوء هو في الحق أمر بالسوء فأمر سوءٌ ، إذ يتذرعه إغراءً إلى سوءٍ ، كمن يأمره بقراءة القرآن ، ثم يجمده على حروفه ويصرفه عن أحكامه فيصبح صاحبه تالياً للقرآن والقرآن يلعنه .

ففي الحق لا يأتي من الشيطان إلاّ عملية الشيطنة وعقيدتها مهما أمر في ظاهر الحال بخير ، ثم لا يتمكن الشيطان ـ ام أيٌّ كان ـ أن يأمر بسوء وفحشاء بمقدمات كلها شريرة ، وإنما يخلط حقاً بباطل وباطلاً بحق وهو بدء وقوع الفتن كما يروى عن قاطع الفتن علي (عليه السلام): « إنما بدء وقوع الفتن أهواء

تُتبع وأحكام تُبتدع يُخالَف فيها كتاب الله ويتولّى عليها رجالٌ رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضِغثٌ فيُمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على اولياءه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى ».

فخير الشيطان شرٌّ إذ يبوء الى شر ، وشر الرحمٰن خير إذ يبوء الى خير « ونبلوكم بالخير والشر فتنة والينا ترجعون » (٢١ : ٣٥).

وقد يجرّ الشيطانُ الإنسانَ من الأفضل إلى الفاضل ليتذرع به لإخراجه الى غير الفاضل وإلى الشر ، أم يجره من الفاضل الأسهل الى الأفضل الأشق ليشق عليه فيترك الفضل عن بكرته !.

﴿ وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ ١٧٠.

وذلك هو الدرك الأسفل من الخطوات العقيدية الإبليسية ، مشاقّةُ الله في حكمه بحكم الأباء القدامى التقليديين ، معارضة الدليل بالتقليد الخاوي عن الدليل ، وقبله خطوة الحكم غير التقليدي خلاف حكم الله ، وقبله القول على الله بغير علم دون أية حجة من كتاب أو اثارة من علم قياساً او استحساناً أما شابه ، وقبله الفتوى دون تفتيش صالح عن دليل ، دركات اربع عقائدية في خطوات الشيطان ، وقبلها او معها خطوات عملية من سوء إلى فحشاء .

هنا « قالوا بل » رفض لاتّباع ما أنزل الله إلى « ما ألفينا عليه آباءنا » إتباعاً عملياً وعقيدياً ، في تقليد جاهل قاحل « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ».

ف « لو » الإمتناعية هنا تنازلٌ الى سماح التقليد لو أنهم عقلوا شيئاً

واهتـدوا ، ثم مماشـاة معهم في استحالـة « لا يعقلون ولا يهتـدون » ولكن عـلى فرضه ـ وكما هو الواقع الملموس ـ افتتبعون آبـاءكم ضد مـا أنزل الله حتى إذا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، تقليداً جاهلاً في أصله وفصله ونسله ، بعيداً عن كل الأعراف في التقليد محبوراً ومحظوراً (١) .

فقد يجوز تقليد من يعلم ويهتدي ، وترك اتباع ما أنزل الله خلافٌ صارح صـارخ للعلم والهدى ، فـانه تعـالى مصدر العلم والهدى، فكيف يعارَض فيهـما بتقليد أعمى !.

وتـرى كيف بالإمكـان لـلآبـاء ـ أيـاً كـانـوا ـ انهم « لا يعقلون شيئـاً ولا يهتدون » وهم يعقلون أشياء ويهتدون إلى أشياء يحتاجونها في حياتهم ؟.

« شيئاً » هنا هـو شيءُ الحق ، فمن عرف شيئـاً من الحق اتبـع مـا أنـزل الله ، وكذلك شيءُ الهدى ، ثم « لو » قد تلمح إلى أن ذلـك فرض أخـير لحالـة الآباء ، وبه تلحق سائر فروض التقليد الجاهل في مسرح اللّايعقـل واللّايهتـدي وإن قليلاً ، حيث التقليد العاقل بحاجة إلى عقل كامل عن شرعـة الله ، وهدىً شاملة إليها ، والتقليد الجاهل هو نفسه من خطوات الشيطان .

وفي تعقيب « لا يعقلون شيئاً » ب « ولا يهتدون » عطفاً بعد رَدف ، لمحة بـارعة أن الاهتـداء هو من خلفيـات العقل ، مقـدراً بقدره ، فحـين لا يعقلون شيئاً من الحق ، فهم لا يهتدون إليه بطبيعـة الحال ، فـالعقل ذريعـة الهدى كـما الهدى حصيلة العقل وكما يروى « العقل ما عُبد به الرحمٰن واكتسب به الجنان ».

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٦٧ عن ابن عباس قال دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليهود الى الاسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عـوف : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيراً منا فأنزل الله : واذا قيل لهم . . .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾١٧١ .

علّ ذلك مَثَل للذين كفروا في ثالوث تقليد الآباء ، وعبادة الأصنام ، وترك قبول الدعوة الإلهية ، فالذي ينعق بما لا يسمع-هو في الأخير-الدعوةَ الرسالية ، فإنهم لا يسمعونها إلاّ دعاءً ونداءً كما الأنعام ، وفي الأولين هو الأوّلان ، في نعقهم بآباءهم القدامى وهم أموات ، بل وهم عند حياتهم ايضاً أموات عن إجابة صالحة لأبناءهم إذ لا يسمعون إلاّ دعاءً ونداءً ، وفي نعقهم بأصنامهم أم وطواغيتهم هم بين اللاإجابة أصلاً اذ لا يسمعون حتى دعاءً ونداءً ، او اللاإجابة حيث إجابتهم لا يحمل سؤالاً لعابديهم .

ولأن « لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً » تتضمن السمع ، فدعاء الأصنام - إذاً - هو ضمن المعني من الدعاء ، والأصل هو دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إياهم ودعوتهم آباءهم ، ولأن الآباء القدامى أموات لا يسمعون حتى دعاءً ونداءً ، فالأصل هو - فقط - دعوة الرسول إياهم ، كما وتؤيده « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » صمٌّ عن سماع كلمة الحق إذْ أصمهم الله بما صمّوا ، بكمٌ عن الإفصاح بالحق إذ أبكمهم الله بما خرسوا عن الحق ويكموا ، عميٌ عن مشاهدة الحق إذ أعماهم الله بما عموا ، وبالنتيجة « فهم لا يعقلون » فان عقل الحقائق بحاجة الى سمعها والإفصاح بها والإبصار إليها ، وهم صدوا عن انفسهم منافذ العقل « فهم لا يعقلون » بما صموا وابكموا وعموا .

فمن أهم منافذ العقل عن الحقائق السمع والبصر واللسان الإنسانية ، فالصمُّ البكم العُمي لا يعقلون فلا يهتدون ، فهم في ثالوث الضلال بما ضلوا والزيغ بما زاغوا « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

إذاً فمثلك في دعاء الذين كفروا ، ام ومثل الذين كفروا في دعـاءك اياهم « كمثل الذي . . » [١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾١٧٢ .

فلما لم يؤثر « يا ايها الناس . . » أثره إلّا في الـذين آمنـوا ، فليكـرر لهم الخطاب تشريفاً بلقب الإيمان ، « كلوا من طيبـات ما رزقنـاكم » وهنـا تـركُـه « حـلالاً » يؤيّد حِلّ « حـلالاً » في آيـة النـاس عن تقيُّد « مما في الأرض » إلى ضـابطة الحـل ، مهما زاد قيـداً بعد « طيبات » هو « مـا رزقنـاكم » وليس رزق غيرك رزقَك كما ليس رزقُك رزقَ غيـرك ، فقد تقيَّدت أصالـة الحل بمـا رزقك الله ، وليس رزقك إلّا ما حصلت عليه من حِلِّه ، ام هو رزق جمـاعي لا مالـكَ له شخصياً كالأملاك المشتركة قبل خروجها عن الإشتراك، مثل الغابات والبحار والأنهار حسب الضوابط المقررة في الشرع .

وترى ان الله يرزقنا مع الطيبات غيرها ثم ينهاها عن غيرها ، فلمـاذا - إذاً - يرزقنا ؟ إنه قد يرزقنا من غير الطيبات أكلاً ولكنها من الطيبات لغير الأكـل كالأصباغ أما شابه ! ثم ومن الطيبات ما يُصنع منها غير الطيبات وهي رزق غير حسن بما أساء الإنسـان : « ومن ثمرات النخيـل والأعناب تتخـذون منه سكـراً ورزقاً حسناً » (١٦ : ٦٧) فثمرات النخيل والأعناب هي كأصلها رزق حسن ،

---

(١) نـور الثقلين ١ : ١٥٢ عن أبي جعفر (عليهـا السلام) في الآيـة: ﴿مثل الـذين كفروا ﴾ في دعائك إياهم، أي مثل الداعي لهم إلى الايمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهـائم التي لا تفهم وانما تسمع الصوت ، فكما أن الانعام لا يحصل لهم من دعاء الداعي إلّا السماع دون تفهم المعنى فكذلك الكفار لا يحصل لهم من دعائك إياهم إلى الايمـان إلّا السماع دون تفهم المعنى . لانهم يعرضون عن قبول قولك وينصرفون عن تأمله فيكونون بمنزلة من لم يعقله ولم يفهمه . . .

وقد يتخذ منها سَكَرٌ وهو غير حسن .

وقد تعني « طيبات ما رزقناكم » فيما عنت ، أن ما رزقناكم للأكل هي كلها طيبات ، إضافةَ الصفة الى الموصوف : كلوا من الطيبات التي رزقناكم ، ولكنه كمعنى خاص يخرج الرزق عن عمومه ، الشامل لغير الطيبات التي نصنعها من الطيبات .

« كلوا . . وأشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » فمن يحرم نفسه أكل الطيبات المرزوقة فقد عبد هواه دون الله ، ومن لم يشكر الله على الطيبات ، فقد عبد هواه دون الله : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٧ : ٣٢) .

أجل - وإن تحريم ما احلّه الله عملياً او عقيدياً او جميعاً ، هو من الإشراك بالله وكفر به ، كما وترك شكر الله فيما أنعم من الطيبات هو كفران ، أم كفر وإشراك بالله .

يقول الله في حديث قدسي يرويه عنه الرسول القدسي (صلى الله عليه وآله وسلم): « إني والجن والإنس في نبإ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري »[1] .

و« إن الله طيِّبٌ لا يقبل إلاّ طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » وقال : « يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم . . »[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٥ : ١٠ عن انس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .

(٢) الدر المنثور ١ : ١٦٨ - أخرج احمد ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر يمد

وقد تكفي « طيبات ما رزقناكم » معونة تقييدات وتحديدات ، حيث المؤمن لا يستطيب بطبيعة الإيمان مال غيره ، او محاصيل الظلم ، او الإسراف والتبذير،وهناك بجنبه وفي مرآه ومنظره بطون غرثي لا عهد لها بالشبع ولا طمع لها في القُرَص .

ف « طيبات » هنا هي ما تستطيبها الأنفس المؤمنة نفسياً بجنب ما تستطيبها جسدياً ، كما انها هناك ما تستطيبها الأنفس الإنسانية ، وهنا « طيبات » في ميزان الإقتصاد الإسلامي ، والأخلاق والعواطف الإسلامية السامية ، فهذه أضيق دائرة من « طيبات » في خطاب الناس ، قضية أن الإيمان قيد الفتك ، فالمؤمن يفتش عن طيب أُكُلِه وحِلّه وأن يكون بمرضات ربه ، فيحتاط عن المخلوط او المشتبه بالحرام .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾١٧٣ .

حصر نسبي في نطاق الأنعام التي حرّم المشركون أقساماً منها افتراءً على الله كما قال الله : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » (٥ : ١٠٣) .

وقد تحمل ذلك الحصرَ ثلاثُ أخرى ، فاثنتان من الأربع مدنيتان ، هذه وآية المائدة (٣) وأخريان مكيتان هما آية الأنعام (١٤٥) والنحل (١١٥) وتجد القول الفصل فيها في آية النحل والمائدة .

ومجمل القول فيها لا سيما آية الأنعام ـ وهي نص في الحصر ـ انها تنفي

= يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك !.

الحرمة في نطاق الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم ، اللّهم إلاّ لحم الخنزير خارجاً عن الأنعام لتعودُ أكله بين المشركين .

ثم « فمن اضطر » ضابطة لحل المحرمات ، شرطَ أنه «غير باغ ولا عاد » والباغي هو الطالب لا عن اعتدال ، فهو الظالم في هذه الورطة ، ان يكون في معصية الله فاضطر الى أكل شيء من ذلك ، والعادي يشمل المتجاوز عن حد الاضطرار إذاً فلا اضطرار ، والعدْو إلى حالة الإضطرار ، فهو إذاً اضطرار باختيار ، فمن كان له صنع لخلق جوّ الإضطرار ، ام كان ظالماً فيه،فهو آثم رغم اضطراره ، مهما وجب عليه اقتراف الحرام حفاظاً على الأهم وهو نفسه (١) وعلّ « غير باغ ولا عاد » حالان عن الإضطرار والأكل معاً ، ألا يكون الإضطرار ببغي او عدو ، ام في حالها ، والاّ يأكل بغياً وعدواً ، بغياً على صاحب المال ، وعدواً عن قدر الإضطرار .

والقول الفصل في كل اطراف الآية وزيادة شاملة تأتي في آية المائدة انشاء الله تعالى .

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٥٥ في الفقيه في رواية محمد بن عمرو بن سعيد رفعه ان امرأة اتت عمر فقالت يا امير المؤمنين إني فجرت فأقم علي الحد فأمر برجمها وكان امير المؤمنين (عليه السلام) حاضراً فقال : سلها كيف فجرت فسألها فقالت : كنت في فلاة من الأرض فأصابني عطش شديد فرفعت لي خيمة فأتيتها فأصبت فيها رجلاً اعرابياً فسألته ماءً فأبى أن يسقيني إلاّ ان اكون أمكنه من نفسي فوليت منه هاربة فاشتد بي العطش حتى غارت عيناي وذهب لساني فلما بلغ مني العطش أتيته فسقاني ووقع علي فقال علي (عليه السلام) : هذه التي قال الله : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ هذه غير باغية ولا عادية فخل سبيلها فقال عمر : لولا علي لهلك عمر ، وفيه عن التهذيب عن سماعة قال سألته عن الرجل يكون في عينه الماء ـ الى قوله ـ فقال : وليس شيءٌ مما حرّم الله آلا وقد أحله لمن اضطر اليه .

نور الثقلين ١ : ١٥٦ عن الكافي عن ابي عبدالله (عليه السلام) في الآية قال (عليه السلام) : . . .

﴿ إِنَّ الَّـذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَـابِ وَيَشْتَرُونَ بِـهِ ثَمَناً قَلِيـلاً أُولئكَ ما يـأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّـارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيـامَةِ وَلا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾١٧٤ .

قدمنا شطراً من الكلام حـول الكتمان في آيته الأولى ، ثم « ويشترون بـه ثمناً قليلاً » هو تطلُّب ثمن عما يكتمون ، وكـل ثمن بديـلَ ذلك الكتمـان قليلٌ مهما كان مِـلءَ الأرض ذهباً ، فكـما أن كل شيء أمـام الله ضئيل ، كـذلك كـل ثمن قبال ما أنزل الله قليل .

« اولئك » البعيدون عن كل هدىً ، المتورطون في كـل ردى « ما يـأكلون في بطونهم إلاّ النار » حيث الأكُل المحرم هو يوم الدنيا نار ولكنها اليوم خامـدة ، ثم يـوم القيامـة تضطرم : « لقـد كنت في غفلة من هذا فكشـفنا عنك غـطاءك فبصرك اليوم حديد » ـ « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بـطونهم نـاراً وسيصلون سعيـراً » ولمـاذا « في بـطونهم » وليس الأكـل إلاّ بـالأفـواه الى البطون ؟ علّه لأن فاعلية البطون للمأكول هي أصل الأكل وغايته ، فقـد يأكـل بفمه ثم يرجع دون ان ينتقل الى بطنه ، او ينتقل ولكنه يرجع كـما أكل من فمـه ام سواه ، إذاً فـ « في بطونهم » تحديد للأكل والمأكول استقراراً في بطونهم ، مع انه أفظع سماعاً واشد ايقاعاً !.

« ولا يكلمهم الله يوم القيامة » حين يكلم المؤمنين ، والمعني هنا هو تكليم الـرأفة والعنـاية : « ولا يكلمهم الله ولا يـنظر اليهم يوم القيـامـة ولا يـزكيهم » (٣ : ٧٧) دون تكليم التنديد والنكاية كما « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

وأما « ما كـان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحيـاً أو من وراء حجاب او يـرسل رسـولاً فيوحي بـاذنه مـا يشاء » (٤٢:٥١) فخـاصة بيـوم الدنيـا ، فقد يكلِّم عبـاده

المؤمنين دون وسيط يوم القيامة نظراً اليهم ، ويكلم غيرهم تنديداً بهم دون سماح لهم أن يكلموه .

ثم « ولا يزكيهم » قد تعم النشأتين ، وهي في الأخرى تزكية الشفاعة والغفران ، وفي الأولى تزكية العقائد والأعمال « ولهم عذاب أليم » في الأخرى ، وقد حملوه معهم من الأولى .

﴿ أولئكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةِ بِالْهُدىَ وَالْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾١٧٥ .

وهل كانت لهم هدى ومغفرة حتى يشتروا بها الضلالة والعذاب ؟ أجل وهي هدى الفطرة والعقلية الإنسانية ، ثم وهدى الرسالات الإلهية الحاضرة لديهم ، وبالنتيجة كانت لهم اسباب المغفرة حاضرة ، ولكنهم « اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة » تجاهلاً وتغافلاً عن الهدى والمغفرة « فما أصبرهم على النار » هنا وهي أرواحهم النارية ، وبأحرى يوم القرار .

وَيْكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة ، ويؤدون المغفرة ويأخذون بديلها العذاب ، فما أخسرها من صفقة وأغباها ، فقد كانت الهدى لهم مبذولة في الآفاق وفي أنفسهم فتركوها واعتاضوا بها الضلالة ، وكانت المغفرة لهم متاحة فتركوها إلى النار « فما أصبرهم على النار »: « ما أصبرهم على فعل ما يعلمون أنه يصيِّرهم إلى النار » . .

﴿ ذلِكَ بِأنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ ﴾١٧٦ .

« ذلك » العظيم العظيم من اللعنة والعذاب على هؤلاء « بأن الله نزل الكتاب بالحق »: بسبب الحق وغايته ومصاحباً للحق الناصع الدال على وحيه

دون أية ريبة ، وحاملاً لكل حق يحق نزوله للعالمين ، وب « ان الذين اختلفوا في » ذلك « الكتاب لفي شقاق » مع الله «بعيد» في الأعماق ، وبعيد عن كل آفاق الشقاق ، فإنه شقاق مع الله الذي نزل الكتاب ، وشقاق مع الرسول الذي أنزل عليه الكتاب ، وشقاق ـ ككل ـ مع الحق الذي لا يشتهونه، فهم ـ إذاً ـ في ثالوث الشقاق ، بعيداً بهذه الأبعاد .

وقد يعني « الكتاب » هنا بجنب القرآن سائر كتابات السماء ، وقد اختلف الكاتمون ما أنزل الله في كل كتاب ، لا سيما في البشارات الخاصة بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كما اختلف فيه المشركون و « ان الذين اختلفوا . . » تشملها جميعاً .

هنا صلة بين هذا البيان وبين تحويل القبلة وما أثاروا حوله من جدل ، بياناً للحقيقة الكبرى ، الحقيقة بالجدل حولها ، دون شكليات الشعائر من تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب ، كشعارات فاضية عن شعورات ، وإنما فائضة بشعورات وواقعيات ايمانية .

فالإيمان الصالح هو نقطة التحول في حياة الإنسان أياً كان وإلى أية قبلة اتجه ، إنه ـ فقط ـ هو نقطة التحول من الفوضى إلى النظام ، ومن التيه الى البلد الأمين ، ومن التفكك الى وحدة الإتجاه .

لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ
ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ

وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ
فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ
فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ
بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ
حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ
بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

فقد تلمح أولى الآيات هنا ان هناك وجوهاً من الناس كانوا يولون وجوههم قبل المشرق والمغرب صلاةً ودعاءً ويحسبون أنه البرُّ - فقط - في حظيرة الإيمان، فتبادر بتعريف البرّ ابتداءً بالإيمان ثم أهم اعمال الإيمان، دون طقوس جافة خاوية عن الإيمان الحق وحق الإيمان في عشرة كاملة من بنود الإيمان .

١ « ولكن البرَّ من آمن بالله ٢ واليوم الآخر ٣ والملائكة ، ٤ والكتاب ٥ والنبيين ٦ وآتى المال . . ٧ وأقام الصلاة ٨ وآتى الزكاة ٩ والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ١٠ والصابرين . . » « اولئك الذين صدقوا » في دعوى الإيمان « واولئك هم المتقون » دون المولِّين وجوههم قبل المشرق والمغرب ، بل المولون وجوههم - ككل - الظاهرة مع الباطنة ، وجاه مرضات الله ، ومنها وجوه الأبدان قِبَل القبلة التي يوليهم الله إياها ، رمزاً الى الإتجاه - ككل - إلى الله .

وفي « ليس البر . . » تعريض عريض على اليهود المولِّين وجوههم قبل المغرب والنصارى المولين وجوههم قبل المشرق ، وهم خاوون عن الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر العشرة كما يجب ، كما وهو تعريض هامشي على المسلمين من الذين يشابهونهم في تلك التولية القاحلة عن حق الإيمان .

أجل وليست « وجوهكم » في ذلك الخطاب - فقط - وجوه أهل الكتاب ، بل والأصل هنا هو وجوه المخاطبين - أصالة - بالقرآن ، وهم المؤمنون ، مهما كان التنديد الأكثر اتجاهاً إلى أهل الكتاب ، فالخطاب إذاً - كأصل - من باب : إياك أعني واسمعي يا جارة ، ثم و « إياك » مندَّد به على هامش الخطاب ، وعلى أية حال « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يُجزَ به . . » .

هذا ، وكما سئل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الإيمان فتلاها ثم ثانية فتلاها ثم ثالثة فتلاها وقال : « وإذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا

عملت سيئة أبغضها قلبك »[1] وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان»..وفي هذه العشرة الكاملة من زوايا البر نجد كل الأصول الإيمانية وفروعها الأصيلة ، إيماناً بالمبدء:« الله » وباليوم الآخر: « المعاد » وما بين المبدء والمعاد من وسائط الرسالات:« والملائكة » وموادها: « والكتاب » وحملة الرسالات:« النبيين » وهذه خمس تتبقّ الأصول الإيمانية ، ثم

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٦٩ ـ اخرج ابن ابي حاتم وصححه عن ابي ذر انه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الايمان . . وفيه عن القاسم بن عبدالرحمن قال : جاء رجل إلى أبي ذر فقال : ما الايمان فتلا عليه هذه الآية فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال ابو ذر جاء رجل الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسأله عما سألتني فقرء عليه هذه الآية فأبى ان يرضى كما ابيت فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أدن فدناه فقال : المؤمن اذا عمل الحسنة سرته رجاء ثوابها واذا عمل السيئة أحزنته وخاف عقابها .

وفيه اخرج جماعة عن عمر بن الخطاب انهم بيناهم جلوس عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء رجل يمشي حسن الشعر عليه ثياب بياض فنظر القوم بعضهم إلى بعض ما نعرف هذا وما هذا بصاحب سفر ثم قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) آتيك ؟ قال : نعم ، فجاء فوضع ركبتيه عند ركبتيه ويديه على فخذيه فقال : ما الاسلام ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، قال : فما الايمان ؟ قال : ان تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والجنة والنار والبعث بعد الموت والقدر كله ، قال : فما الاحسان ؟ قال : ان تعمل لله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ، قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن ؟ قال : نعم ، قال : صدقت ، قال يا محمد ! متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال : فما اشراطها ؟ قال : اذا العراة الحفاة العالة رعاء الشاة تطاولوا في البنيان وولدت الاماء اربابهن ، ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليّ بالرجل فطلبوه فلم يروا شيئاً فمكث يومين او ثلاثة ايام ثم قال : يا ابن الخطاب اتدري من السائل عن كذا وكذا ! قال : الله ورسوله اعلم ، قال : ذاك جبرئيل جاءكم ليعلمكم دينكم اقول واخرج مثله البزار عن انس ، وابن مردويه عن ابي هريرة وابي ذر ، عنه (صلى الله عليه وآله) ولكن ليس فيها أشراط الساعة .

خمس اخرى تتبنّى فروعها العملية ، من صِلات جماعية اعتيادية بين الجماهير: « وآتى المال . . » « وآتى الزكاة » ومن صلة عبودية بالله تتوسطها: « وأقام الصلاة » ثم صلة ذات بعدين بالله ويخلق الله: « والموفون بعهدهم . . والصابرين . . » .

وترى كيف يكون « من آمن » برّاً مصدراً وهو بارٌ فاعلاً ؟ علّه لأن حامل هذه العشر يجسِّد البر نفسه ، إذاً فكأنه نفس البر وكما و « ليس البر بان تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى » (٢ : ١٨٩) .

فالبر عقيدياً وإيمانياً فعملياً يأتي بسائر البر كتولي الوجوه قبل القبلة التي يرضاها الله ولا عكس إلاّ لمن آمن حقاً .

إذاً فليس سلب البرّ عن تولية الوجوه سلباً مطلقاً لأنها أيضاً من طقوس البر ، وإنما هو سلب لأصالة البر عنها والتولية حسب الشرعة هي فرعه .

إذاً فالإقبال على القشور المصلحية تغافلاً عن الألباب ليس من البر ، كما الإقبال على الألباب تغافلاً عن القشور المأمور بها ليس كلَّ البر ، « ولكن البر من آمن . . » جامعاً بين اللباب والقشور قضيةَ بِرُ الإيمان والإيمان البِر .

هنا « آتى المال على حبه » تعني حب المال الى حب الله وحب إيتاء المال جمعاً بين المراجع الثلاثة ، مهما كان المال أقرب لفظاً ، فان الله هو أقرب معنى وبينهما الإتياء ف « على حبه » إذاً لها تعلقات ثلاث أدبياً ومعنوياً ، : « آتى المال على حب الله » و « آتى المال على حب المال وعلى حب إيتاءه » إذ « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٣ : ٩٢) وكما « قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما آتى المال على حبه ؟ فكلنا نحبه ! قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : تؤتيه حين تؤتيه ونفسك تحدثك بطول العمر والفقر »[1] .

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٧١ ـ أخرج البيهقي في شعب الايمان عن المطّلب انه قيل . . . وفيه اخرج =

ودرجة عليا من « على حبه » ان تكون عنده أموال يفضل بعضها على بعض ، كما « ويطعمون الطعام على حب مسكيناً ويتيماً وأسيراً » (٧٦ : ٨) إذ كان مفضلاً على سواه مما كان عندهم ، وأما الأنفاق من رذيل المال أم في رذيل الحال « كالذي ينفق او يتصدق عند الموت فمثله مثل الذي يهدي إذا شبع » (١) .

إذاً ف « على حبه » لها درجات ، ثم ما لا يحبه ، ثم ما يترذّله ، والآية تخص الإنفاق بدرجات الحب ، حب المال وحب إيتاء المال على حب الله .

ثم « الفقير هو هدية الله قِبل ذلك او ترك » (٢) ف « ردوا السائل ولو بظلف محترق » (٣) .

وهنا المؤتون المال على حبه ستة حسب ترتيب الإستحقاق والحاجة ، يتقدمهم « ذوي القربى » وهم الأقرب اليك نسباً فالأقرب ، من الوالدين

= احمد والبخاري ومسلم وابو داود والنسائي وابن حبان عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) افضل الصدقة ان تصدق وانت صحيح تامل البقاء وتخشى الفقر ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم ، قلت لفلان كذا لفلان كذا الا وقد كان لفلان .

(١) المصدر اخرج احمد وابو داود والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه عن ابي الدرداء قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : مثل الذي ينفق او يتصدق عند الموت مثل الذي يهدي إذا شبع .

(٢) المصدر اخرج ابن شاهين وابن النجار في تاريخه عن ابي بن كعب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ألا أدلكم على هدايا الله عز وجل إلى خلقه؟ قلنا : بلى ـ قال : الفقير . .

(٣) عن حواء قالت سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ يقول : . . .

والأولاد ، وطبقات القربى هنا هم كطبقات الميراث لأنها أصدق الطبقات إذ قررها الله تعالى (١) .

ثم « اليتامى » المنقطعين عمن يعولهم ، وادنى يتيم هو اللطيم المنقطع عن ابويه ، ثم اليتيم المنقطع عن أبيه ، ثم الفطيم المنقطع عن أمه ، وعلّ الأخير خارج عن اليتيم مهما كان له يُتم ، ام هو بعد الأولين ، فدوره هو الدور الأخير .

والمساكين هم من أسكنهم العدم ، وهي تعم الفقراء الذين أفقرهم العدم ، فانهم أسوء حالاً من المساكين، كما ويقدّمون عليهم حين يذكران معاً : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين . . » (٩ : ٦٠) وهو مسكين ذا متربة (٩٠ : ١٦) ومطلق المسكين يشمله وغيره المتوسطة حاله ، ثم « وابن السبيل » وبالطبع هو ابن سبيل الله ، المنقطع عن ماله وذويه في الله وكما جاء ابن السبيل بعد سبيل الله في آية التوبة « . . وفي سبيل الله وابن السبيل »، وأدناه من ليس في معصية الله وسبيل الشيطان .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم « السائلين » تعنيهم ككل : فقراء أو مساكين أم سواهم ، ف « للسائل حق وإن جاء على فرس » (٢) واما « في الرقاب » دون « الرقاب » فقد تعني صالح الرقاب ان يُشتروا من أصحابهم كلاً أو مبعضاً ، دون ان يؤتَوا هم أنفسهم مما يؤتى ، فان ذلك أصلح لهم ، إضافة إلى أن الرقاب ليسوا ـ بطبيعة الحال ـ في حاجات شخصية إذ يتحملهم اصحابهم بواجب النفقة وإنما هم

---

(١) الدر المنثور : ١٧١ ـ اخرج الخطيب في تالي التلخيص عن ابن عباس أن ميمونة استأذنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في جارية تعتقها فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أعطها اختك ترعى عليها وصِلي بها رحماً فانه خير لك .

(٢) الدر المنثور ١ : ١٧١ ـ اخرج ابن عدي عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : . . . وفيه أخرج ابن ابي شيبة عن سالم بن ابي الجعد قال قال عيسى بن مريم : للسائل حق وان جاء على فرس مطوق بالفضة .

بحاجة إلى تحرُّرهم ، إذاً ف « في الرقاب » تعني في سبيل تحررهم قدر المقدور كلّاً او مبعضاً .

ذلك الترتيب السداسي ـ بما في كلٍّ ترتيب ـ يُراعى في إتياء المال ، ثم يُقدَّم من يحمل عنوانين من الستة ام زاد وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنان صدقة وصلة » (١) .

وهنا « آتى » دون « أنفق ـ أو ـ أعطى » لأنها اعم من الإعطاء والإنفاق ، فكما الصدقة والهبة إيتاء ، كذلك القرض إيتاء ، فمثلاً ابن السبيل ليس إيتاءه المال لفقره ، إذ قد يملك أكثر منك في بلده ، فانت تؤتيه الآن قرضاً ثم تأخذه منه بعد الآن ، كما والهبة المعوضة والهدية إيتاء .

ذلك الإيتاء بمراتبه واجب كما الصلاة والزكوٰة ، فليس يعني الزكوٰة فانه هنا يقابلها متقدماً عليها ، فهو إذاً من الضرائب الواجبة قدَرَ المقدور ، إضافة الى ضريبة الزكوٰة .

« والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » الله أم خلقَه كما يصح أو يجب ، وقد تُحدِّد « إذا عاهدوا » مدى شمول « بعهدهم » ان ليس منه عهد الفطرة وعهد العقل وعهد الشرعة الإلهية ، فان ذلك المثلث من العهد لزام على المكلفين ، لا يقبل زماناً دون زمان حتى يحدد وجوب الوفاء به ب « إذا عاهدوا » .
« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » ولماذا « الصابرين »

(١) الدر المنثور ١ : ١٧١ ـ اخرج ابن ابي شيبة واحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي في سننه عن سلمان بن عامر الضبي قال قال رسول الله (صلى الله وآله وسلم) : ...
وفيه أخرج احمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اتجزي عني من الصدقة النفقة على زوجي وأيتام في حجري ؟ لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة .

نصباً ، وقضيتهُ عطفها على « الموفون » بمن قبلهم ، هي « الصابرون »؟

علّها منصوبة على الإختصاص لاختصاص الصبر في ذلك المراس قضيةَ الاحتراس على الإيمان ببنوده عقيدياً وعملياً ، فالصبر في البأساء والضراء وحين البأس ـ إنه في ذلك المثلث البارع ـ تربية للنفوس وإعداد لها ، كيلا تطير شَعاعاً مع كل نازلة ، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ، ولا تنهار جزعاً أمام الشدة ، تجملاً وتماسكاً وثباتاً حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ، رجاءً في الله ، وثقة بالله واعتماداً على الله .

فلا بد لأمة تناط بها القوامة على البشرية أن تتهيأ لِوَعثاء الطريق ومشاقِّ السفر على أية حال ، في كل حل وترحال ، في البأساء والضراء وحين البأس ، لكي تنهض بواجبها الضخم ، وتؤدي دورها المرسوم .

فالصبر في مثلثه رباط عن التفسخ في كل زوايا الإيمان وقضاياه ، ورزاياه من كتلة اللاإيمان ، ولذلك يختص هنا بتقدير الإختصاص ، وأخص « الصابرين » بين كل المؤمنين ، وأخص الصبر بين كل سمات الإيمان ، لإختصاصه في مراس الإيمان واحتراسه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾١٧٨ .

« القصاص » لغوياً هي المقاصة من القص : تتبع الأثر ، او القصة : محاكات الواقع كما هو ، فهي ـ إذاً ـ تتبع الأثر كما أثّر دون إفراط عليه ولا تفريط عنه ، نفساً بنفس كما هنا « في القتلى » أم جرحاً بجرح : « والجروح قصاص »

(٥ : ٤٥) ومالاً بمال ، ومماثلةً بين الأمرين على أية حال ، محلّقة كضابطة ثابتة على كافة الحرمات : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (٢ : ١٩٤).

فالقصاص بوجه عام هي ملاحقة المجرم كما أجرم وقَدَره أم تقل ، دون اعتداءٍ عليه ـ لأكثر تقدير ـ إلاّ كما اعتدى ، كماً وكيفاً ، عَدداً وعُدَداً ، تسوية عاقلة عادلة بين الجرم وقصاصه .

وهل « الذين آمنوا » هنا هم أولياء الدم ـ فقط ـ لأنه حقهم ؟ وحقه ـ إذاً ـ لكم ، لا عليكم ، حيث القصاص هي لصالح أولياء الدم وليس عليهم !.

أم هم القاتلون ، حيث القصاص عليهم هي كحق خاص لأولياء الدم ؟ـ و « فمن عفي له . . » يخرجه عن كونه حقاً ثابتاً عليهم !.

أم هم حكام الشرع ؟ فكذلك الأمر ، فان حكمهم تابع لما يختاره أولياء الدم ! اللهم إلا شذراً[1] .

علّهم هؤلاء أجمع ، مكتوب عليهم القصاص ، فعلى أولياء الدم لأنه حق لهم خاص كضابطة مهما جاز لهم التنازل عنه إلى دية ام لا إلى بدل ، كتبصرة على الضابطة ، وعلى القاتلين لأنه حق عليهم ، وعلى حكام الشرع ، لأن عليهم ملاحقة المجرمين حسب اقتراح اولياء الدم ، وملاحقة أخرى حفاظاً على الحياد العام للكتلة المؤمنة .

ف « عليكم » هي كأصل تعني القتلة ، وهي كواجب التطبيق بملاحقة ،

---

(١) كما في القاتل الساعي في الأرض فساداً ، فانه خارج عن خصوص الحق الى عمومه .

على حكام الشرع ، ثم كواجب الحق وثابتة على أولياء الدم ، لا سيما إذا كان العفو أم والإنتقال إلى الدية محظوراً جماعياً .

إذاً ف « الذين آمنوا » في هذا المثلث ، أم هم ككل ، مسئولون في القصاص ، ملاحقة فيه وراء المجرمين ، فان « لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » حياةً تعم الكتلة المؤمنة ككل ، وترى كيف تكون قصاص الدم ـ والدماء تختلف في قيمها ـ؟ إنها كما هنا : « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ».

فقد يستفاد من نص الآية في الجمل الثلاث شريطة المساوات الثلاثية في القصاص ، ف « الحر بالحر والعبد بالعبد » مساواةً في الذكورة ، وأخرى في الحرية والرقية ، ثم « والأنثى بالأنثى » مساوةً في الأنوثة ، وهذه الثلاث هي بصيغة أخرى مساواتٌ في الجنس وأخرى في القيم الاقتصادية ، بل والأولى أيضاً راجعة الى الثانية ، حيث الذكر أثمن من الأنثى ، كما الحر أثمن من العبد .

وذلك نص خلفي على رفض المساوات ـ في حقل القصاص ـ في سائر القيم روحية وسواها ، اللّهم إلاّ العددية فهي من أحق المساوات وأعمقها وأعدلها ، المستفادة من آية المائدة كضابطة « النفس بالنفس » (٤٥) وآية الإسراء « فلا يسرف في القتل . . » إضافة الى كل من هذه الثلاث حيث يقابل الواحد في كلٍ واحداً .

والمحور الأصيل في زماننا ومنذ أمد بعيد هو تساوي الجنس فيأتي السؤال ـ إذاً ـ عن « الأنثى بالذكر والذكر بالأنثى »؟.

فلأن الذكر أثمن من الأنثى فلا يُقتل بالأنثى كاصل وضابطة، إلاّ أن يجبر نقص الأنثى القتيلة ـ لقتل الذكر ـ برد نصف ديته إلى ورثته، كما يدل عليه صحيح الأثر ، ثم الأنثى الأرخص من الذكر تقتل بالذكر بأحرى أولوية قطعية

وليس بعد شريطة المساوات في الجنس شريطة أخرى في شرعة القصاص من ميِّزات معنوية أماهيه ، حيث النص مقتصر على ما اقتصر .

ولا تزال ضابطة « النفس بالنفس » مرعية عَدداً ، وعُدداً اقتصادية ، بجبر النقص في اختلافها في الثانية ـ فقط ـ رداً على ورثة الذكر قاتلين ومقتولين .

وترى آية القصاص هذه ناسخة لآية « النفس بالنفس » في المائدة ؟ والمائدة كآخر ما نزلت هي ناسخة غير منسوخة ! .

آية المائدة لا تتحدث عن شرعة قرآنية ـ ككل ـ بل هي حاكية عن شرعة القصاص التوراتية : « النفس بالنفس » كضابطة عامة ، وآية البقرة تنسخ عمومها بشريطة المساوات في الجنس والحرية ، فتبقى الباقية تحت عموم المائدة بلا ناقصة ولا زائدة ، اللّهم إلاّ نسخاً ثانياً في « فمن عفي . . » .

فآية البقرة ترسم حكماً عدلاً عواناً بين اليهودية في « النفس بالنفس » باختصاص القصاص في القتلى بالقتل ، ودون شريطة تساوى الجنسين ، وبين النصرانية القائلة بالعفو ، والهمجية المشركة المتعدية في القصاص كل أطوار العدالة والأعراف العاقلة الإنسانية ، فقد كانت تَقتل قبيلة عن بكرتها بقتيل واحد ، أم لا تَقتل واحداً قتل قبيلاً ، فالأشراف كانوا يقولون : لنقتلن بالعبد منا الحر منهم ، وبالمرأة الرجل منهم ، وبواحدٍ قبيلاً منهم ، ويجعلون جروحهم أضعاف خصومهم ، فقد يروى أن واحداً قتل واحداً فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل قائلين : ماذا تريد ؟ فقال : إحدى ثلاث ، قالوا : وما هي ؟ قال : إما تُحيون ولدي ، أو تملأون داري من نجوم السماء ، أو تدفعوا إليَّ جملة قومكم حتى أقتلهم عن بكرتهم ، ثم لا أدري أني أخذت عوضاً ! وكانوا يظلمون في أمر الدية كما في القود ، فدية الشريف شريفة ودية الوضيع وضيعة ! .

وقد خالف الإسلام كلَّ هذه الثلاث المفرِطة والمفرِّطة في أمر القصاص ،

قصراً للتفاضل في القيم الإقتصادية جنسية وسواها ، ثم التفاضل بالتقوى وسواها من القيم ، مجاله غير هذا المجال ، والأثر المستفيض عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): « المسلمون تتكافأ دماءُهم » مخصص كآية المائدة بآية البقرة ، فقيمة الأنثى نصف الذكر ، إذاً ف « الأنثى بالأنثى » والذكر بالذكر ، أمّا يدل عليه ثابت الأثر .

وقيمة العبد أقل من الحر فـ « الحر بالحر والعبد بالعبد » فضابطة التفاضل محصورة في اختلاف الجنسين ، وفي الحرية والرقية ، دون سائر المِيْزات روحية وسواها .

فـ « الحر بالحر » ضابطة كما « العبد بالعبد » وكذلك « الأنثى بالأنثى » فقد تُقتل الأنثى بالأنثى ، والذكر بالذكر ، وبأحرى الأنثى بالذكر ، ثم لا يقتل الذكر بالأنثى إلا برد فاضل ديته الى أولياءه[1] إحرازاً للمساوات بين النفسين ، وتطبيقاً لضابطة « النفس بالنفس » عدلاً لأولياء الدم كيلاً يتصبروا على ضيم الدم ، وعدلاً إلى اولياء القاتل برد فائض ديته عليهم ، ففاضل الدية ـ إذاً ـ يجبر النقص ويحقق المساوات .

ثم وفي عكس القضية وهو الأنثى بالذكر ، قد يؤخذ ناقص الدية من اوليائها رداً على اوليائِه بنفس السند ، على تأمل فيه ، إذ هي لا تملك إلّا نفسها و « الجاني لا يجنى على أكثر من نفسه » وقد جنت عليها فلا فاضل ـ إذاً ـ يرد عنها ، ولكنها هدرت بقتلها اياه ضِعف نفسها ، فليجبر الناقص بما تركت ، فمَثَلها كمثل رقٍّ هدر ضعف ثمنه .

---

(١) كما في صحيحة الحلبي عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال في الرجل يقتل المرأة متعمداً فاراد أهل المرأة أن يقتلوه ؟ قال : « ذاك لهم إذا ادوا الى اهله نصف الدية » (الاستبصار ٤ : ٦٥ والكافي ٧ : ٢٩٨) .

ذلك حكم نفس بنفس ، فهل يقتص من جماعة قتلوا واحداً ؟ هنا روايات عدة[1] ودعاوى الإجماع تقول لأولياء الدم قتل الجميع برد دية الزائد عن الواحد إلى أوليائهم ! .

لكنه تطارده الضابطة العامة في آيتي البقرة والمائدة « النفس بالنفس » وهذه نفوس بنفس ، وكذلك « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » هذه أحرار بحر ، أم اناث بأنثى ، أم عبيد بعبد ، ولم تنسخ آية المائدة إلاّ في غير المتماثلين في الجنس والحرية .

ثم وذلك اعتداء بغير المثل ، إذ لا مماثلة بين واحد وجماعة ، وهو إسراف في القتل وقد منعته آية الأسرى « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في التقل إنه كان منصوراً » وقد يستدل بها الإمام المعصوم في معتبرة[2] .

ذلك ، اللّهم إلاّ فيما يقتل امرأتان رجلاً حيث تقتلان به بضابطة

---

(١) كما في خبر ابن يسار على المحكي قلت لأبي جعفر (عليهما السلام) في عشرة قتلوا رجلاً ؟ فقال : إن شاء اولياءه قتلوهم جميعاً وغرموا تسع ديات وان شاءوا تخيروا رجلاً فقتلوه وأدى التسعة الباقون الى اهل المقتول الأخير عشر الدية كل رجل منهم ، قال : ثم ان الوالي بعدُ يلي ادبهم وحبسهم (الكافي ٧ : ٢٨٣) وفي صحيحة عبدالله بن مسكان عن ابي عبدالله (عليه السلام) في رجلين قتلا رجلاً ؟ قال : ان اراد اولياء المقتول قتلهما ادوا دية كاملو وقتلوهما وتكون الدية بين اولياء المقتولين وان ارادوا قتل احدهما فقتلوه وأدى المتروك نصف الدية الى اهل المقتول وان لم يؤدوا احدهما ولم يقتل احدهما قبل دية صاحبه من كليهما وان قبل اولياءه الدية كانت عليهما . (التهذيب باب الاثنين اذا قتلا واحداً تحت رقم ٣ والكافي ٧ : ٢٨٣ تحت رقم ٢) .

(٢) هي ما رواه ابن أبي عمير في الحسن او الصحيح على الصحيح عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : اذا اجتمع العدة على قتل رجل واحد حكم الوالي ان يقتل ايهم شاءوا وليس لهم ان يقتلوا اكثر من واحد ان الله عز وجل يقول ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً ﴾ (الكافي ٧ : ٢٨٤ والاستبصار ٤ : ٢٨٢) .

المساوات في القيمة ، فليس إسرافاً في القتل ولا اعتداءً بأكثر مما اعتدى ، وكما يؤيده صحيح الأثر[1] .

فلا حجة في اجماعات تُدّعى أو روايات تروى ، هي معارضة بمثلها ومعارضة للكتاب ، فالقوي قولاً واحداً عدم جواز قتل الأكثر من واحد ، بل وفي الواحد منهم ايضاً تأمل لأنه لم يستقل في القتل ، فلا تصدق في قتله « النفس بالنفس » بل هو اعتداءٌ عليه أكثر مما اعتدى ! تأمل .

هذا ! وأما إن قتل نفس نفسين أو زاد ، فهل يقتص من القاتل لواحدة ثم ولا دية لسواها حيث الثابت في القتلى إنما هو القصاص ؟ و « النفس بالنفس » تقتضي هنا قود النفس عن واحد وبديله عن آخرين ، وكما في المعتبرة « لا يبطل دم امرءٍ مسلم »[2] . ام إنه بديل عنهما اقتساماً لقوده بينهما ، ثم اقتساماً في دية الفائض بينهما وهذا هو الأشبه الأصح ، ثم ان عفي عن القود فدية كاملة كبديل ، إلاّ أن يعفى عنها فلا شيءَ على الجاني ، وترى إن عفى بعض أولياء الدم عن نصيبه من القود فهل للباقين رفضه بدفع نصيبه من الدية ثم المطالبة بالقود ؟ الروايات هنا متضاربة[3] فتعرض على الآية وتضرب

---

(١) هي صحيحة محمد بن مسلم على المحكي قال : سألت ابا جعفر (عليهما السلام) عن امرأتين قتلنا رجلاً عمداً ؟ قال : « تقتلان به ما يختلف فيه احد » (التهذيب في باب القود بين الرجال والنساء رقم ١٣) .

(٥) الكافي ٧ : ٣٦٥ معتبرة ابي بصير قال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن رجل قتل رجلاً متعمداً ثم هرب القاتل فلم يُقدر عليه ؟ قال : « إن كان له مال اخذت الدية من ماله وإلا فمن الاقرب فالأقرب وانلم يكن قرابة أداه إلى الامامفانه لا يبطل دم امرءٍ مسلم » .

(٣) الرواية المعارضة هي رواية جميل بن دراج عن بعض اصحابه يرفعه الى أمير المؤمنين (عليه السلام) في رجل قتل وله وليان فعفا احدهما وابي الأخر ان يعفو ؟ فقال : ان الذي لم يعف إذا اراد ان يقتله قتل ورد نصف الدية على اولياء المقتول المقاد منه (الكافي ٧ : ٣٥٦ رقم ١) .

المعارضة لها عرض الحائط .

فنص الآية « فمن عفي له من أخيه شيءٌ فاتباع بالمعروف واداءٌ اليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » .

فاطلاق « شيءٌ » يشمل بعض القود كبعض الدية ، ثم « فاتباع بالمعروف » تفرض - فيما تفرض على الباقين-إتباعَه ، عفواً عن نصيبهم من القود انتقالاً - ككل - إلى الدية حيث القود لا يتبعض في واقعه ، اللهم إلّا عفواً يظهر في تبعُّض الدية ، ثم « أداءٌ إليه بإحسان » و « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » ولا راد لرحمته وتخفيفه « فمن اعتدى بعد ذلك » ومنه مطالبة القود مع العفو عن بعضه « فله عذاب أليم »!

فـ « أخيه » هنا استثارة لحنان الأخوة الإسلامية في أولياء الدم كما تدل على بقاء الأخوة الإيمانية بين القاتل وولي الدم رغم قتله ، و « مَن » هم القاتلون ، و « عفي له » عفوٌ عن مكتوب القصاص قوداً او دية ، و « له » دون عنه لأن الثانية عفو مطلق لا يبقى معه شيءٌ،والأولى هي مطلق العفو الذي يبقى معه شيء ، فـ « شيءٌ » تعم أي حق في هذا البين ، سواء أكان كل القود من مستقل في ولاية الدم أم شركاء فيها ، أم يعفو واحد منهم عن نصيبه ، أم أياً كان من أيٍّ كان ، دون العفو المطلق المعبر عنه ب « عفي عنه » إذ لا مجالَ - إذاً - لـ « شيءٌ »!

= وتعارضها وفقاً للآية روايات منها صحيحة ابي ولاد قال سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن رجل قتل وله اولاد صغار أرايت ان عفا الاولاد الكبار ؟ قال فقال : لا يقتل ويجوز عفو الاولاد الكبار في حصصهم فإذا كبر الصغار كان لهم أن يطلبوا حصصهم من الدية (الوسائل ب ٥٣ من القصاص ح ١) ومنها قول امير المؤمنين (عليه السلام) في خبر اسحاق « من عفا عن الدم من ذي سهم له فيه فعفوه جائز ويسقط الدم وتصير دية وترفع عنه حصة الذي عفى » ، وفي الفقيه روى انه اذا عفا واحد من الاولياء ارتفع القود .

فهنا إتّباع بالمعروف ضابطةً صارمة في حقل العفو، إتباع العافي عفوه دون نكول عن كمه أو كيفه أو أصله، واتباع المعفو له في أداءِ ما عليه حين ينتقل القود الى الدية، مادة ومدة وكيفية، واتباع شركاء الدم-غير العافين-عفوَ العافي، واتباع حكام الشرع ذلك العفو.

ف « ينبغي للذي له الحق أن لا يعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية، وينبغي للذي عليه الحق أن لا يمطل أخاه إذا قدر على ما يعطيه ويؤدي إليه بإحسان »(١).

ثم وحين الإنتقال، « أداءٌ إليه بإحسان » كما عفي له من أخيه بإحسان، إحساناً في أصل الأداء، وإحساناً فيما قرّر من الأداء مادة ومدة.

« ذلك » البعيد الغور من أصل القصاص العدل خروجاً عن قسوة الفوضى، ومن سماح العفو والإحسان في الأداء،ومن واجب الإتباع « تخفيف من ربكم » عما كان في الجاهلية من قسوة، وفي شرعة التوراة من عدم السماح عن القود وفي شرعة الإنجيل - خلافاً لشرعة الله- سماحاً واجباً عن القصاص، فانه عِبثٌ ثقيل كزميليه: الجاهلي واليهودي.

ففي سفر الخروج (٢١ : ١٢) « من ضرب انساناً فمات يُقتل قتلاً »(٢)

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٥٧ في الكافي في الصحيح عن ابي عبدالله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل « فمن عفي . . . » قال : . . .

(٢) وفيه « ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً[١٥] ومن سرق انساناً وباعه او وُجد في يده يقتل قتلاً[١٦] ومن شتم اباه او امه يقتل قتلاً[١٧] وان حصلت اذية تعطي نفساً بنفس[٢٣] وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل[٢٤] وكيًّا بكيٍّ وجرحاً بجرح ورض برضٍّ[٢٥] ».

وفي سفر الأعداد ٣٥ « ان ضربه باداة من حديد فمات فهو قاتل ان القاتل يقتل[١٦] وان ضربه بحجر يد مما يُقتل به فمات فهو قاتل ان القاتل يقتل[١٧] او ضربه باداة يد من خشب مما يقتل به فمات فهو -

« ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل أم ولا تأخذوا فدية ليهرب إلى مدينة ملجئه . . وعن الأرض ولا يكفر لأجل الدم الذي سفك فيها إلاّ بدم سافكه » سفر الأعداد ٣٥ : (٣١ ـ ٣٤).

وفي سفر التكوين (٩ : ٦) « سأسفك دم الإنسان بالإنسان اسفك دمه »

فآية المائدة ـ « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له . . » (٤٥)ـ إنها تتحدث عما في التوراة الحالية ، إلاّ في « من تصدق » ثم آية البقرة تنسخها في شيء من إطلاقها وعمومها .

ثم « ورحمة » هنا بعد « تخفيف من ربكم » علّها هي رحمة التخفيف ، في رحمة بين الإخوة ، رحمةً على المجرم النادم ، او الذي يتندّم بعفوه ، ورحمةً على القتيل حين يُعفى عن القاتل صدقةً على القتيل .

« فمن اعتدى بعد ذلك » إعتداءً على حكم الله ، واعتداءً على القاتل ، واعتداءً بعد العفو ، وعلى الجملة اعتداءً من العافي او المعفو أم شركاء ولي الدم ، أو اعتداءً من حكام الشرع ، تجاوزاً على أية حال عن حكم الله كما حكم « فله عذاب أليم » إما هنا ام وفي الآخرة .

اجل « ذلك » الحكم العدل في القصاص تخفيف عن ثقل الجاهلية واليهودية والنصرانية الى سهولة الإختيار قصاصاً بعدل ، او انتقالاً الى دية ، ام

= قاتل . ان القاتل يُقتل[١٨] ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه يقتله[١٩] وان دفعه ببغضة او ألقى عليه شيئاً بتعمد فمات[٢٠] او ضربه بيد بعداوة فمات فانه يقتل الضارب لأنه قاتل ، ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه . . . فتكون لكم هذه فريضة حكم إلى اجيالكم في جميع مساكنكم[٢٩] كل من قتل نفساً فعلى فم المشهود يقتل القاتل[٣٠] ـ ولا تأخذوا فدية . . . ـ

عفواً كاملاً ، كلٌ كما تقتضيه المصلحة اسلامياً ، فردياً وجماعياً ، « ورحمة » بين الجماعة المسلمة .

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾١٧٩ .

هذه كأصل وضابطة ، والعفو تبصرة صالحة في مواردها حيث تقتضي الحكمة والرحمة و « القصاص » معرفاً تعريف بها كما شرعت ، إيجابياً حين تقتضيه التقوى ، وسلبياً حين تقتضيه تقوى اخرى ، ف « لعلكم تتقون » تعم المرحلتين ، « ولكم »: الكتلة المؤمنة ككلٍّ « في القصاص » بكل حقولها في الأنفس والأطراف والأعراض والأموال « حياةً » صالحة في كل الحيويات النفسية والعِرضية والاقتصادية أماهيه « يا أولي الألباب » والعقول العميقة الخارجة عن قشورها الخاطئة « لعلكم تتقون » الممات في مختلف مسارحه المخلَّفة من ترك ملاحقة المجرمين .

فمهما كان في عفو المجرم وترك ملاحقته او التخفيف عنه « تخفيف ورحمة من ربكم » كأحوال جانبية مرهونة بمصالحها ، ولكنما القصاص ، كأصل وضابطة فيها حياة لأولي الألباب بل وسواهم : حياةً لأهل الحق كيلا يموت الحق وشفاءً لصدورهم من حقد فاتك ورغبة في الثأر الذي لم يكن يقف عند حدٍّ وكما نراه في واقعنا اليوم حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية في اجيال ولا تكف عن المسيل اذ لا تجد الى القصاص السبيل .

وحياة للمجرمين كيلا يكرروا إجرامهم حين لا يقتلون بقصاص، ففي القصاص تنبثق حياة من كف الجُناة عن الإعتداء ساعة الإبتداء ، فالذي يوقن انه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتله ، جدير به ان يتروى ويفكر ويتردد فيرتد الى عقله ولبه ، وحياةً لهم أخرى في الأخرى حين يُقتلون ان يُصدَّ عن إجرامهم ، وحياةً لسائر المسلمين كيلا يجرموا ام يتخاذلوا أمام المجرم ، وحياة لحكام الشرع

إزالة للفوضى واحياءً لروح الأمن والطمأنينة، وعلى الجملة حياة للمسلمين ككل[1] اللّهم إلاّ فيما كان في ترك القصاص او التخفيف عنه حياةً ف « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . . ».

فالقشريون الذين لا ألباب لهم يفضلون ترك القصاص زعَم أنه رحمة وعاطفة إنسانية وذلك تفريط بحق القصاص ، وآخرون مُفْرِطون يعملون الفوضى في القصاص ، أم يجعلون عدل القصاص أصلاً لا يستثنى ، وشريعة القصاص القرآنية عوان بين الإفراط والتفريط بشأنها ، أصلاً كقانون حقوقي عام « وفي القصاص حياة » وفرعاً كتبصرة حين تقتضيها المصلحة فوق مصلحة القصاص : « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة »! وهذه شرعة أولى الألباب ، الذين يراعون كل جوانب المصلحة ، فردية وجماعية .

فاين هذه البلاغة الأدبية والمعنوية البارعة على اختصار الآية وسائر تعبيرات البلغاء ك : قتل البعض إحياءً للجميع ـ أكثروا القتل ليقل القتل ، ومن ابلغها عندهم وافصحها : القتل أنفى للقتل !

ف « القصاص » هي أعَم من القتل ، و« حياة » تعم كل مراحلها ، و« لكم » تعم كل المسلمين ، و« اولي الألباب » تربط تلك الحياة العظيمة كحصيلة للقصاص بحكم الألباب ، خارجاً عن قشرية الرحمة وهمجية الهجمة غير العادلة ، ولا تجد عبارة كهذه البالغة المدى ، البليغة المعنى على إيجازها طول

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٥٨ في الاحتجاج للطبرسي باسناده الى علي بن الحسين (عليهما السلام) في تفسير الآية : ولكم يا امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في القصاص حيوٰة لأن من هم بالقتل يعرف انه يقتص منه فكف لذلك عن القتل الذي كان حيوٰة للذي كان هم بقتله ، وحياةً لهذا الجاني الذي اراد ان يقتل وحياة لغيرهما من الناس إذ علموا ان القصاص واجب لا يجسرون على القتل مخافة القصاص « يا اولى الالباب » اولي العقول « لعلكم تتقون » .

تاريخ الحقوق وعَرضه ، مما يجمع بين جمال التعبير وجلال المعنى وشموله لكافة المتطلَّبات العادلة في حقل القصاص.. وهنا « في » تعني ظرف القصاص وجوُه لا نفسه ، فان نفسها ليس حياتاً وإنما فيها حياةً ، ثم وتنكير حياة تفخيم لها وتوسعة لحقولها ، و « القصاص » المعرف تعريف بما يقصه القرآن من قصاص عادلة يسمح فيها بالعفو بعضاً او كلاًّ ، ولا ينبئك مثلُ خبير بهكذا التعبير العبير .

فليس القصاص في شرعة القرآن انتقاماً جافاً جافياً وإرواءً للأحقاد ، بل هي في سبيل الحياة ، واستحياءً للقلوب واستجاشة لتقوى الله .

فليست لتقوم شرعة ولا حكومة أخرى بغير القصاص الخاص المنتهي ب « لعلكم تتقون » ولا يفلح قانون ولا يتحرج متحرج ، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من روح التقوى صداً عن الطغوى .

فالتقوى هي التي تحمل القاتل على الإعتراف بالجريمة في محكمة الشرع كما حصل كراراً زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة (عليهم السلام)، فلقد كانت هنالك التقوى هي الحارسة اليقظة داخل الضمائر المؤمنة وفي حنايا قلوبهم ، الى جانب الشرعة النيرة البصيرة بخفايا القلوب .

فهل إن شرعة القصاص ـ بعدُ ـ همجية وجفاوة خلاف الحفاوة الإنسانية ، كما تقول الحضارة المادية المتفرنجة : إذا كان القتل الأول فقداً فالثاني فقد على فقد ، ثم وهو من القسوة وحب الإنتقام ، البعيدة عن ساحة الإنسان العطوف الرؤوف ، وبالإمكان تأديب القاتل بما دون قتله .

ثم إن جريمة القتل ليست إلاّ خلفية أوتوماتيكية لإنحراف الروح ومرض النفس ، فقضية الرحمة والحكمة ـ إذاً ـ أن يحوَّل القاتل إلى مستشفيات الأمراض النفسية .

والجواب عن كل هذه الأقاويل الزور الغرور نجده في آيات القصاص « وفي القصاص حياة . . .» ـ ف « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكانما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكانما أحيا الناس جميعاً » (٥ : ٣٥).

وهل إن فقداً واحداً على فقد أفقد ، ام فقد جماعةٍ إبقاءً للمجرم سَجيناً أم سواه ، ولا سيما إذا اختلق له عذر المرض النفسي ، مما يسمح لأي أحد ان يخوض في هذه الجريمة لغايات رديئة ثم يؤخذ في كل مرة الى رياحة المستشفى النفسي ؟.

وهل إن في قصاص القاتل المتعمدجفاوة وخلاف رحمة ، وليس في ابقاءِه يخوض في قتل آخرين جفاوة وخلاف رحمة ؟.

إن في شرعة القصاص حفاظاً على حقوق الناس فرادى وجماعات ، ثم في العفو بموارده الصالحة تربية لنفوس مستهترة تقبل التربية والرجوع الى عقلية صالحة ، ولكن لا يجبر أولياء الدم على العفو فانه سماح عن الحق الثابت لهم ، مهما ينصح القرآن بالعفو في مصالحه .

ثم وهؤلاء المتحضرون الناقدون شرعةَ القصاص هل يتوقفون عن حروب مستأصِلة لجماهير دفاعاً عن كيانهم في صالح الحيوية المادية ، فهم أولاء يفتون بعدم سماح القصاص حفاظاً على أصل الحياة بمختلف حقولها ، التي هي ام النواميس الواجب الحفاظ عليها بكل الطاقات والإمكانيات .

أم هل يتوقفون عن إباده جمع ظنوا أنهم يعزمون الثورة على الحكم ؟ حتى يفتوا بحرمة قتل القاتل الفاتك حُرَم حياة الإنسانية !.

أم إنهم ـ على حيادهم المدَّعى المزعوم لحياة الإنسان ، بسنّ مختلف القوانين ـ هل استطاعوا القضاء على جريمة القتل ، وهي تزداد يومياً بينهم

بمختلف الأساليب الخبيثة الوحشية اللاإنسانية ! أفهم رحماء على حياة الإنسان والإسلام من الأشداء عليها ، الألدّاءِ لها ، لأنه يسمح ان يُعتدى على المعتدي بمثل ما اعتدى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٤٢ : ٤٠) فكما العفو مسموح بغيةَ الإصلاح ، كذلك الجزاء لا يعني إلا الإصلاح ، أم ولأقل تقدير عدم إماتة الحق .

وهنا « لعلكم تتقون » لمحةٌ إلى حكمة الوقاية عن الجرائم المتوقَّعة لولا القصاص ، حصراً لها بحالة الوقاية عن تكرر الإجرام ، وهذه طبيعة الحال في المجرم أنه حين يأمن الملاحقة بالمثل يتجرءُ على متابعة الإجرام ، فلولا شرعة القصاص كضابطة لأصبحت الحياة بكل شؤونها متأرجفة ، ولولا رحمة العفو كهامش على هذه الشرعة لما ظهرت التقوى في النفوس الأبيَّة السمحة ، ولا استفاد المجرمون التائبون الآئبون من تلك السماحة الإيمانية ، ففي القصاص اصلاً وفرعاً حياةٌ للجماعة المؤمنة ، لعلهم يتقون محاظير تركها ، او السماح فيها ، حيث « القصاص » المعرّف هنا هي التي تقبل العفو والسماح في مصالحه .

إذاً « ففي القصاص » ايجابياً كأصل وسلبياً كهامش وفرع « حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون » .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلوالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ١٨٠ .

الوصية هي التوكيل فيما لا يستطيع عليه الموكِّل ، أم لا يناسب محتده وكيانه كوصايا الله سبحانه « يوصيكم الله في أولادكم . . » - « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين » (٤٢ : ١٣) فالوحي إلى كل مكلف لا يناسب محتد الربوبية

كما لا يليق به كل مكلف ، فهنا الوصية إلى المرسلين ليبلغوا رسالات ربهم إلى كل المرسل إليهم .

وهي في غير الله ظاهرة في وصية الموت حيث الحي لا يحتاج إليها في حياته لإمكانية تصرفه بنفسه إلّا شذراً ، أم فيما يختص بآخرين كالوصية بالتقوى وما شابهها ، ثم وهنا « إذا حضر احدكم الموت » تجعلها صريحة في وصية الموت .

وللوصية رباطات ثلاث بالموصي والموصىٰ له والموصىٰ إليه ، ففي ذلك المثلث تتحقق الوصية على شروطها ، و « كتب » هنا مما تفرض هذه الوصية فانها صريحة في فرضها ، متأبية عما يحوِّلها عنه الى ندب أمّا شابه ، من غير الفرض ، ثم « حقاً على المتقين » تؤكد فرضها ، وليست التقوى راجحة حتى تلمح برجحان الوصية دون فرض، بل هي واجبة على أية حال ، ف « اتقوا الله ما استطعتم » و « اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلّا وانتم مسلمون » .

ثم وآيات الفرائض تعبِّر عن الوصية بما يؤكِّد فرضها ثالثة ، فقد تتكرر « من بعد وصية يوصي بها أو دين » « يوصىٰ بها أو دين» « توصون بها او دين » بعد أصول الفرائض ، ف « يوصي بها » دون « إن أوصى بها » مما تلمح كصراح « ان الوصية حق على كل مسلم »[1] فكيف تُنسخ آية الوصية بآيات

---

(١) وسائل الشيعة ١٣ : ٣٥١ ح ٢ صحيحة ابي الصباح الكناني عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : سألته عن الوصية فقال : هي حق على كل مسلم ، وعن احدهما (عليهما السلام) انه قال : . . . ومثله ما عن زيد الشحام عن ابي عبدالله (عليه السلام) وح ٦ محمد بن محمد بن النعمان المفيد في المقنعة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . قال صاحب الوسائل والاحاديث الواردة في ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى وأن الأئمة (عليهما السلام) اوصوا كثيرة متواترة من طريق العامة والخاصة .

وفيه ٣٥٥ ح ٣ عن جعفر بن محمد عن ابيه (عليهما السلام) قال : من لم يوصي عند موته لذوي =

الفرائض ؟ و « نَسَختها »[1] في بعض الروايات لا تعني إلاّ نسخ الإطلاق ، وكما نسخت « فمن خاف من موصٍ جنفاً » آيةَ الوصية [2] ، اي استثنت عنها الوصية المجانفة ، فالنسخ وهو الإزالة قد تحلّق على المنسوخ ككل كما هو

= قرابته ممن لا يرثه فقد ختم عمله بمعصيته ، أقول : اختصاص من لا يرثه بالذكر لأنهم أحوج حيث يحرمون الإرث .

وفيه عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصاً في مروته وعقله ، قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكيف يوصي الميت ؟ قال : اذا حضرته وفاته واجتمع الناس إليه قال : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمٰن الرحيم ، اللهم إني أعهد اليك في دار الدنيا أني اشهد أن لا إله إلاّ انت وحدك لا شريك لك وان محمداً عبدك ورسولك ، وان الجنة حق وان النار حق وان البعث حق والحساب حق والقدر والميزان حق وان الدين كما وصفت وأن الإسلام كما شرعت وان القول كما حدثت وان القرآن كما أنزلت وأنك أنت الله الحق المبين ، جزى الله محمداً وآل محمد بالسلام ، اللهم يا عدتي عند كربتي وصاحبي عند شدتي ويا ولي نعمتي إلٰهي وإلٰه آبائي لا تكلني الى نفسي طرفة عين أبداً فانك ان تكلني إلى نفسي أقرب من الشر وأبعد من الخير ، فآنس في القبر وحشتي واجعل لي عهداً يوم القاك منشوراً ؛ ثم يوصي بحاجته وتصديق هذه الوصية في السورة التي يذكر فيها مريم في قوله عز وجل ﴿ لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمٰن عهداً ﴾ فهذا عهد الميت ، والوصية حق على كل مسلم أن يحفظ هذه الوصية ويعلمها ، قال امير المؤمنين (عليه السلام) علمنيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علمنيها جبرئيل .

(١) نور الثقلين ١ : ١٥٩ عن تفسير العياشي عن ابن مسكان عن ابي بصير عن احدهما (عليهما السلام) في الآية قال : هي منسوخة نسختها آية الفرائض التي هي المواريث . . . اقول وهذا نسخ لاطلاقها ألا تصح الوصية بكل ما ترك ام بما زاد عن ثلثه .

(٢) المصدر ٥٤٢ عن الكافي بسند متصل عن محمد بن سوقة قال : سألت ابا جعفر (عليهما السلام) عن قول الله عز وجل « فمن بدله . . . قال : نسختها الآية التي بعدها قوله : « فمن خاف من موصٍ جنفاً » فيما اوصى به اليه فيما لا يرضي الله به من خلاف الحق فلا اثم على الموصى إليه ان يرده الى الحق والى ما يرضى الله به من سبيل الخير .

المصطلح ، ام يقيِّد إطلاقه او يخصِّص عمومه وهذا هو الأكثر استعمالاً في الأحاديث التي تحويه ، والرواية اليتيمة المروية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان « لا وصية لوارث » [١] مختلقَة او مؤولة بالوصية بما زاد على الثلث [٢] ، ولكنه لا يختص بوارث ! فهي لا توافق القرآن ، وتعارضها المروية عن ائمة أهل البيت (عليهم السلام) وهم رواة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الصادرون عنه دون خطأٍ ولا تجديف [٣] .

ولقد احتجت بآية الوصية ـ فيمن احتج ـ الصديقة الطاهرة جمعاً بينها وبين آيات الإرث ، فهل هي بعدُ منسوخة وبعد ارتحال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)! دون أية حجة إلاّ اجماعاً يدَّعى وروايات يتيمة تروى لا حجة فيها أمام القرآن الناطق بفرض الوصية ؟

فحتى لو تواترت الرواية على غير فرضها كانت مضروبة عرض الحائط ،

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٧٥ ـ أخرج احمد وعبد بن حميد والبيهقي في سننه عن ابي امامة الكابلي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع في خطبته يقول : ان الله قد اعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث ، وفيه عن عمرو بن خارجة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبهم على راحلته فقال : ان الله قد قسم لكل انسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية ، وفيه أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا وصية لوارث إلا ان تجيزه الورثة .

(٢) الوسائل ٣٥٦ عن ابي حمزة عن بعض الائمة (عليهما السلام) قال : ان الله تبارك وتعالى يقول : ابن آدم تطولت عليك بثلاثة : سترت عليك ما لو يعلم به أهلك ما واروك واوسعت عليك فاستقرضت منك فلم تقدك لي تقدم، وجعلت لك نظرة عند موتك في ثلثك فلم تقدم خيراً .

(٣) كما في صحيحة محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليهما السلام) قال : سألته عن الوصية للوارث فقال : تجوز ، قال : ثم تلى هذه الآية ، وصحيحته الاخرى عنه (عليه السلام) قال : « الوصية للوارث لا بأس بها » ورواه صحيح ابي ولاد الحناط قال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن الميت يوصي للوارث بشيء ؟ قال : نعم ـ او قال : جائز له . (الكافي ٧ : ٩) .

فضلاً عن آحاد معارَضة بأكثر منها وأصح سنداً ! وجواز الوصية في بعض الأحاديث يعني عدم الحظر عنه لأنها بوجود الوراث في مظان الحظر ، او يعني مضيَّها جوازاً وضعياً يضم جوازه تكليفياً ، ام يعني رجحانها قبل حضور الموت ، فان فرضها حسب الآية خاص بما إذا حضر أحدكم الموت .

وبعد كل ذلك فآية المائدة في إشهاد الوصية ـ وهي آخر ما نزلت ـ تثبت الوصية بشهود لكي لا تفلت ، وهل الوصية هذه المهمة إلاّ للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين .

فقبل نزول آيات المواريث بفرائضها كانت الوصية في كل ما ترك من خير ، ثم اختصت بقسم قدر في السنة بالثلث ، وكما تصرح آيات الفرائض « من بعد وصية يوصي بها او دين » .

فحقاً إنها تفرض الوصية كما آيات الفرائض تفرض الفرائض وتلمح ـ أيضاً ـ إلى فرض الوصية ، والجمع بين الفرضين أن الأولى لا تعدو الثلث والثانية تخص الثلثين عند الأولى ، امّا زاد حين تنقص الوصية عن الثلث ، أم الأثلاث الثلاثة إذ لا وصية وكل ذلك من بعد دَين .

وترى « عليكم » تعم قبيلي النساء والرجال ؟ اجل وبطبيعة الحال فان ترك خير وترك الوالدين والأقربين وأوامر الإنفاق ، لا تختص بقبيل الرجال ، إضافة الى عموم التكليف حتى لو اختص اللفظ بقبيل الرجال ، وأنّ « كتب عليكم » تخاطب الذين خاطبهم من ذي قبل وهم كل « الذين آمنوا » .

ثم « إذا حضر أحدكم الموت » لا تعني حالة الإحتضار لأنها حالة الغفوة والإستتار ، والميت فيها منهار لا يستطيع أمراً عاقلاً بإختيار ! إنها تعني الحالات التي تُعتبر في كل الأعراف أنها حالات حضور الموت، لّما قل الرجاء بالبقاء ، دون الموت اليقين لأنه مجهول حتى حالة الإحتضار ، فحين ينقطع الرجاء من

الحياة فالوصية ـ إذاً ـ مكتوبة .

ولماذا الوصية مكتوبة هي خاصة بما إذا حضر أحدكم الموت ؟ إذ إنه قبل حاضر الموت مسؤول شخصياً عن الوالدين والأقربين في نفقات واجبة وإنفاقات أخرى تحملها آيات ، فلما يحضر الموت فلا يقدر شخصياً ان يعمل بواجبه تجاه الوالدين والأقربين فليوصِ لهم بما يجبر واجبه في حياته ، ولا سيما إذا هم ليسوا ممن يرث لحجب من كفر او ارتداد أمّا شابه ! لمكان الأمر « وصاحبهما في الدنيا معروفاً » ومنه الوصية لهما ، وكذلك من يرث ولا يكفيه نصيبه ، او يوفّر عليه لمرجع آخر « بالمعروف حقاً على المتقين » .

وفرض الوصية هذه هو بطبيعة الحال خاص بما « إن ترك خيراً » من أموال وحقوق مالية أمّاهيه من خير كان يملكه وهي محسوبة من التركة ، وخير عبارة عن التركة الموصى فيها هو « خيراً » لشمولها الحقوق إلى جانب الأموال ، واختصاصها بما تحصل عليها من حِلّه ، وما تبقى عندك بعد إخراج الحقوق الواجبة فيه ، وبعد إخراج الديون منه ، فلا وصية ـ إذاً ـ في كل ما ترك اذ ليس له إلا خيره في نطاق الشرع ، فكيف يوصي بما لا يملكه ؟.

فهل إنه كل ما يتركه مما قل منه او كثر ؟ وقليل المال ليس شيئاً يُذكر ، كما وأن في الوصية به للأقربين ممن يرث فضلاً عمن لا يرث إضراراً بسائر أهل الفرائض ، أو تقليلاً لميراث من هو خارج عن الوصية من الورثة [1] ، إذاً ف « خيراً » هنا هو المال الواسع الذي لا يؤول بوصيته إلى شرٍّ وضرٍّ ، كما هو الحال في مطلق الإنفاق زائداً على الفرض حال الحياة ، أن ينفق على الوالدين

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٧٤ عن عروة ان علي بن ابي طالب دخل على مولى لهم في الموت وله سبعمائة درهم او ستمائة درهم فقال : ألا اوصي ؟ قال : لا ! انما قال الله : ان ترك خيراً وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك .

والأقربين بقدَر يقدِر بـه رزقَ عيالـه ويضيِّق عليهم ، إذاً ف « خيراً » تختلف من زمـان الى زمان ، ومن بيئـة الى بيئة ، ومن عـائلة وارثة إلى عـائلة ، ليس يحـدد بحـد خاص كضـابطة سـارية لمـا تصح فيـه الوصيـة ، فهو المـال الذي يتحمـل الوصية وهنالك وراث ، دون اي مال توصي به وتحرم الورثة المحاويج ، إكثـاراً على غيرهم او توفيراً لبعضهم على بعض في غير ما حق ولا رجحان .

ثم « الأقربين » بعـد الوالـدين هم بطبيعـة الحال الأولاد فنـازلاً الى سائـر طبقات الوارثين وسواهم ، و « بالمعروف » إخـراج عن حدّي الإفـراط والتفريط فلا تظلم فيها الورثـة ولا تُهمل ، وحـدُّه في متواتـر السنة الثلث ، يـوصي به أم اقل منه حسب العدل والنصفة ، رعاية للأقرب والأحـوج الأليق في ميزان الله ، فانها من الموازين الثابتة في كافة الإنفاقات واجبة وراجحة .

ومـا شرعـة الوصيـة بالثلث إلاّ رعـاية لأحـوال المحـاويـج من الـوالـدين والأقربين ، وارثين منهم وغير وارثين ، فان الورثة درجـات حسب الحاجيـات ، والموازنة الصالحة بينهم في قدر الحاجات مقدرة في الثلث ، والوصية بالمعروف هـو العدل فيها حسب القرابة والحـاجة ، فكـما الواجب عـلى من عنده خـير الإنفاق بـالعدل عـلى الوالـدين والأقربـين في حياتـه ، كذلـك عليـه الـوصيـة للوالـدين والأقربين بالمعروف ، تسهيماً بالعدل من ثلث ماله او مالَه من حق ، فان الـورثة وسواهم من الأقارب ضروب شتى في الحاجـة ، فيسد ثغـور الحاجـات بالـوصية الصالحة .

فقـد شاء الله بفـرض الوصيـة للوالـدين والأقـربـين ألاّ يُحـرمـوا النصيب العدل ، وليست سهام المواريث لهم ككلّ ، لموانع اصيلة او طـارئة تحـول دون الارث ، ثم وليست السهام المفروضـة تحلق على مختلف المحـاويج منهم ، اللّهم إلاّ ضـابطة ثـابتة روعي فيهـا الأحقيـة من حيث القـرابـة ، وأمـا هي من حيث

الحاجة فلا ضابطة فيها حيث الحاجات لا تنضبط تحت ضابط ، ولا بد للموصي النظر الثاقب إليها والوصية الصالحة بحقها .

إذاً فالتقسيم العادل هو بين وصية الله بسهام المواريث ووصية المكلفين كما أمر الله للوالدين والأقربين بالمعروف ، وهو صالح التقسيم سداً للثغور وتسويةً من حيث الحاجات ، إذاً فهذه الوصية واجبة كواجب سهام المواريث على سواء ، ثم عن الوصية المحرمة في شرعة الله ، ثم عن الوصية الفوضى غير المراعى فيها درجات القرابة والحاجة .

« حقاً على المتقين » حقاً على عواتقهم للوالدين والأقربين ، فرضاً واجباً ، كما « وإذا حضر القسمة اولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » (٤ : ٩).

وقد تلمح صارحة بوجوب الوصية لهم ، أنها إذا تركت أبدل عنها برزقهم إذا حضروا القسمة ، وهم غير الوارثين ، فضلاً عن الوالدين وأولي القربى الوارثين .

فهنا واجبات ثلاث : واجب تطبيق السهام كما فرض الله ، وواجب الوصية للوالدين والأقربين كما أمر الله بالمعروف ، ثم واجب الرزق من الميراث لمن يحضر من اولي القربى واليتامى والمساكين .

كل ذلك حفاظاً على حقوق المحاويج الذين كان لهم نصيب طول حياة الموصي ، ما أمكن له من إنفاق عليهم ، تقديماً لجانب الأقربين ثم سائر القرباء على مراتبهم ، ثم اليتامى والمساكين وابن السبيل .

ف « بالمعروف » في حقل الوصية هو نفسه المعروف في كل حقول الإنفاق .

وترى ان الأقربين هم فقط أقارب النسب ؟ والأزواج هم من أقرب الأقربين مهما كانت قرابتهم بالسبب ؟ إطلاق الأقربين يشملهم دون ريب حيث القرابة السببية قرابة كما النسبية ، فمهما كانت القرابة النسبية اثبت ، فان القرابة السببية أربط ، فهما اذاً قرابتان مهما أختلفتا في الثبت والربط .

ثم « اذا حضر أحدكم الموت » تحصر فرض الوصية بحضور الموت ، ولا تمنع عن رجحانها قبلَه كما تظافرت به الروايات ، كما ولا تحصر أصل الوصية بالوالدين والأقربين ، وإنما هم يقدُّمون على من سواهم ، ام انهم اعم من قرابتي النسب والسبت ، ان يشملوا قرابة الأخوة الإسلامية ، مع رعاية الأقرب والأحوج ، ثم الإشهاد على الوصية واجب في واجب : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذو اعدل منكم وآخران من غيركم إن انتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين . فإن عُثر على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين . ذلك أدنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُردَّ أيمانٌ بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين » (٥ : ١٠٨).

ثم في الوصية أحكام أخرى قد تأتي بطيات آياتها الأخرى كما تناسبها إن شاء الله تعالى .

﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾١٨١ .

أترى ضمير الذكر إلى مَ يرجع ؟ أهو الوصية لأنها مؤنث مجازي جائز

الـوجهين ؟ ولا وجـه للذكورة لسـابق المرجـع المؤنث المجازي ! ولا أن الـوصية تبدَّل في نفسها إثماً لأنها فعل الموصي وله تبديلها إذا شاء وفق المصالح المتجددة ! إنـه حكم الله في الوصيـة ان يبدل من واجبهـا الى ندبهـا ، وأصـل الـوصيـة ان تترك ، ومادة الوصية الحاصلة أن تبدل ، أماذا مما فرضت في هذه الآية .

ف « بدّله » تعم كل تبديل موضوعي او حكمي ، بعضاً او كـلاً ، كتابـةً أم شهادة أم واقعية ، سـواءٌ أكان مبـدِّله ـ أياً كان المبـدِّل ـ وصياً او شـاهداً أم ثالثاً ، او جلُّهم ام كلُّهم ، فهـو ـ إذاً ـ تبديـل مطلق او مـطلق تبديـل ، فالمعنى فمن بدل ما ذكر من الأمر بالوصية ومن مادتها ومن تطبيقها فانما . .

فمن ذلك التبديل تبديـل الحكم المكتوب في الـوصية « كتب عليكم » الى الندب ، فتوى فالإثم ـ إذاً ـ على المقلِّد حين لا يعلم المقلَّد خطأه .

ومنه تبديله عملياً ممن يعرف وجوب المكتوب ثم لا يـوصي ، كما منه تبديل كتاب الوصية تمزيقاً او تغييراً من أيٍّ كان .

كل ذلك تشمله « فمن بـدلّه » مهـما اختلفت دركاتـه كما تختلف درجـات الوصية بالمعروف ! .

« بعد ما سمعـه » كذلـك تعم سماع حكم الله في بُعـدي فرض الـوصية وتنفيذها ، أم سماع الوصية ، والسماع هنـا لا يُحدِّد بنفسـه ، إنما هـو الذريعـة المتعوَّدة للعلم ، إذاً فهو العلم كيفما حصل بأيٍّ من حلقات الوصية حكماً وتنفيذاً ومادة وكيفية ، فلا تبديل في ذلك الحقل لأيٍّ من جنبات الوصية ، اللّهم إلاّ من الموصي وهو خارج عمن بدّله .

ثم « فإنما إثمه على الذين يبدلونه » تحصر إثم التبديل على من بدّل ، فقد يحاول الوصي تطبيق الوصية كما هي والشاهد يبدلها ، او الشـاهد يشهـد لها كـما

الوصي ثم الوكيل او الورثة امّن هو ممن له مدخل الى حقل الوصية ، هو الذي يبدله ، فلا إثم - إذاً - على من سبقه حيث طبّقه ، ولا على الموصي حين أوصى كما يجب .

و « إن الله سميع » الوصيةَ والشهادةَ ، وسميع قول من بدلّه « عليم » بما يُخفي أو يعلن ، فتبديل الوصية الصالحة في كل مواقفها إثم مهما اختلفت دركاته حسب مختلف التبديل ، حتى إن أوصى بمالٍ له ليهودي او نصراني (١) مالم يكن

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٦١ عن الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن الريان بن شبيب قال : أوصت ماردة لقوم نصارى بوصية فقال اصحابنا اقسم هذا في فقراء المؤمنين من أصحابك فسألت الرضا (عليه السلام) فقلت : إن اختي أوصت بوصية لقوم نصارى واردت أن أصرف ذلك الى قوم من اصحابنا المسلمين فقال : امض الوصية على ما اوصت به قال الله تعالى : ﴿ فإنما أثمة على الذين يبدلونه ﴾ وفيه عن ابي سعيد عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : سئل عن رجل أوصى بحجة فجعلها وصية في نسمة ؟ فقال : يغرمها وصية ويجعلها في حجة كما أوصى به فإن الله تبارك وتعالى يقول « فمن بد له . . . » وفيه عن حجاج الخشاب عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : سألته عن امرأة أوصت إلي بمال ان يجعل في سبيل الله فقيل لها : ايحج به ؟ فقالت : اجعله في سبيل الله ، فقالوا لها نعطيه آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قالت : اجعله في سبيل الله فقال ابو عبدالله (عليه السلام) اجعله في سبيل الله كما أمرت ، قلت : مرني كيف اجعله ؟ قال : اجعله كما أمرت ان الله تبارك وتعالى يقول ﴿ فمن بدله بعدما سمعه فانما إثمة على الذين يبدلونه ﴾ أرايتك لو أمرتك ان تعطيه يهودياً كنت تعطيه نصرانياً ؟ قال : فمكثت ثلاث سنين ثم دخلت عليه فقلت له مثل الذي قلت له اوّل مرة ، فسكت هنيئة ثم قال : هاتها ، قلت : من اعطيها ؟ قال : عيسى شلقان اقول : في سبيل الله في عرف ذلك الزمان - كما هو ظاهر الحديث - تعني الجهاد ، وصحيح محمد بن مسلم قال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن رجل اوصى بما له في سبيل الله ؟ فقال : أعطه لمن أوصى به وان كان يهودياً او نصرانياً إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فمن بد له بعد ما سمعه . . ﴾ .

اقول : كل ذلك اذا كانت الوصية لغير المسلم من المعروف تأليفاً لقلوبهم او مودة اليهم كما قال الله : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين - الى قوله - ان تروهم ﴾ والوصية بر ، وهو

في أصل الوصية محظور .

ولماذا « فانما اثمه على الذين يبدلونه » ومن يقبل ذلك التبدل او لا يعارض المبدل وهو عارف بالوصية هما ايضاً آثمان ؟ لأن امكانية المعارضة وواقع القبول ، انهما ليسا في كل الأحوال ، ثم إثم القابل وغير المعارض هو على هامش اثم المبدل ، فهو - إذاً - آثم لقبوله الإثم او تركه النهي عنه ، كما تدل عليه ادلة وجوب النهي عن المنكر .

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١٨٢] .

الجَنَف خلاف الحَنَف هو الميل عن الحق ، والإثم هو التباطىء عن الخير ، ثم « خاف جنفاً أو إثماً » ليس إلا خوفاً عن واقعهما ، لا الذي يخاف أن يقع ، فان خوف وقوعهما لا يُفسد حتى يصلح بينهما ، فهي كخوف نشوز الزوجين : « واللآتي تخافون نشوزهن . . » « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » .

فالوصية ثلاثة : وصية بالمعروف فلا تبديل فيها ، ووصية بجنف أو إثم

= يعم الموت والحياة . ذلك ! فضلاً عمن لا يعرف هذا الأمر موصىً اليه او موصياً كما رواه المشايخ الثلاثة عن يونس بن يعقوب ان رجلاً كان بهمدان ذكر أن اباه مات وكان لا يعرف هذا الأمر فاوصى بوصية عند الموت وأوصى ان يُعطى في سبيل الله فسئل عنه ابو عبدالله (عليه السلام) كيف يفعل به ؟ فاخبرناه أنه كان لا يعرف هذا الأمر فقال : لو ان رجلاً اوصى اني اضع في يهودي او نصراني لوضعته فيهما ان الله عز وجل يقول : ﴿ فمن بدله بعدما سمعه . . . ﴾ فانظر إلى من يخرج إلى هذا الوجه - يعني بعض الثغور - فابعثوا به إليه . (الوسائل ٦٧٠ من الوصايا) اقول : والاحاديث الواردة في المنع عن اشباع كافر محمولة على موارد الحظر ، فان من المؤلفة قلوبهم كفاراً تمال قلوبهم الى الاسلام ولهم نصيب من الصدقات حسب النص في آيتها ! .

أو غير مخيف ، فالواجبة هي الأولى « للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » والمحرمة هنا هي المخيفة بجنفها أو إثمها ، فلا إثم في ردها الى المعروف بل هو مفروض فان تطبيق الإثم إثم ، وترك تطبيق الوصية عن بكرتها إثم ، فلتحول إلى غير ما إثم أو جنف .

ثم عوان بينهما هي بجنف أو إثم لا خوف فيهما من اختلاف بين الورثة او تخلُّف منهم عن شرعة الله ، وهي بين تضييع لحق الورثة ولكنهم يوافقون فتُمضى ، أم تضييع لحق الله كالوصية بما لا يجوز فعله ، فهي إثم يخيف على أية حال فلا تُمضى ، إذاً فكل وصية بالمعروف تُمضى ، وسواها بين ما تمضى - كما في حق الورثة المتوافقين - ام لا تمضي كما في كل عصيان في غير حقوق الناس .

هنا « فأصلح بينهم » يرتكن على ما فيه جنف أو إثم يُخيف بالنسبة للورثة من إختلاف عارم غير محمول ، وليس « فلا إثم عليه » فقط سلباً لإثم ، بل هو ايجاب للإصلاح ، و« لا إثم » ك« لا جناح » في آية الصفا واردٌ موقف الحظر السابق « فمن بدّله . . » فلأن فرض الإصلاح وارد لا ريب فيه ، وانما يُخيَّل فيه اثم لسابق الحظر ، فيرجع ذلك الإصلاح - بعد أن لا إثم فيه - إلى أصله المفروض .

فمن الجَنَف المخيف « إذا اعتدى في الوصية إذا زاد على الثلث »[1] ومن الإثم « ان تأمر بعمارة بيوت النيران واتخاذ المسكر فيحل للوصي أن لا يعمل بشيء من ذلك »[2] . وكضابطة عامة إذا كان في الوصية جَنَف بحق الناس

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٦١ في العلل بسند عن يونس بن عبد الرحمن رفعه الى ابي عبدالله (عليه السلام) في الآية قال : اذا اعتدى . . .

(٢) المصدر في الكافي عن محمد بن سوقة قال : سألت ابا جعفر (عليهما السلام) عن قول الله عز وجل : « فمن بدله . . » قال : نسختها الآية التي بعدها قوله : « فمن خاف . . » قال : يعني -

يُخيف فلا بد من الإصلاح بينهم ، وإلاّ فهي ممضاة حين يوافق أصحاب الحق ، وإذا كان فيها إثم وهو الجنف بحق الله ، فهو على أية حال مخيف ، فكما الأثم - أياً كان - لا يُمضى ، كذلك الوصية بالإثم ليست لتمضى .

إذاً « فاصلح بينهما » في « جنفاً » هو الإصلاح بين أهل الحق ، إما ردّاً إلى الحق أو حملاً لهم على أصل الوصية ، وأما الإصلاح في « إثماً » فلا يعني إلاّ رد الوصية ، فإنها على أية حال تحمل خلافاً بين الموصىٰ له والورثة ، ويختص الإصلاح بينهم برد الوصية ، مهما كان بإرضاء الموصىٰ له بإثم ، أن يُعطى مالاً برضاه .

إذاً فضابطة الوصية الممضاة ألا تخيف بجنف أو إثم ، وهنا يأتي دور الإصلاح بين الموصى له وسائر الورثة ، وحين لا إفساد ولا يُخاف منه فلا موقع لإصلاح فلا رد للوصية ، اللهم إلاّ في الإثم فانه مخيف على أية حال ، او يقال ليس خوف جَنَف او إثم إلاّ مصداقاً بارزاً هنا لواجب الإصلاح ، اصلاحاً بين الورثة انفسهم او بينهم وبين الموصي في إثم الوصية بحقهم ، واما الجنف فإصلاحه محوه .

= الموصى إليه ان خاف جنفاً فيما أوصى به اليه فيما لا يرضى الله من خلاف الحق فلا اثم على الموصى إليه أن يرده الى الحق والى ما يرضي الله به من سبيل الخير .

وفيه عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) اذا أوصى الرجل بوصيته فلا يحل للوصي أن يغير وصيته يوصيها بل يمضيها على ما اوصى ، إلا ان يوصي بغير ما امر الله فيعصي في الوصية ويظلم ، فالموصى اليه جائز ان يرده الى الحق مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كله لبعض ورثته ويحرم بعضاً فالوصي جائز ان يرده الى الحق وهو قوله « جنفاً او اثماً » فالجنف الميل الى بعض ورثتك دون بعض والاثم ان تأمر . . .

(١) الدر المنثور ١ : ١٧٥ - أخرج ابو داود في مراسيله وابن ابي حاتم وابن مردويه عن عائشة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

فحتى اذا لم يكن الجنف مخيفاً ـ وهو مخيف بطبيعة الحال للمؤمن ـ فواجب النهي عن المنكر يفرض اصلاح الوصية .

إذاً فـ « جنفاً أو إثماً » تحلقان على كل جنف وإثم حيث يخاف منها إيمانياً ، وبين الجنف والإثم عموم من وجه يتلاقيان في الوصية بالمحرم الذي فيه إثم وتبعة الخلاف بين الورثة ، ثم قد تكون الوصية جنفاً غير إثم لا تبعة فيه بين المعنيين بالوصية ، أو إثماً غير جَنَف كما أوصى بحِلٍّ ولكن دون رعاية الأقربية والأحوجية ولا مرجح غيرها كمزيد الإيمان .

فروع حول الوصية :

١ إذا أوصى بمال لمن يرثه دون تسهيم ، ام لمن لا يرثه لحاجب الطبقة الوارثة ولكنهم وارثون أصالة لأنهم من طبقات الأرث ، فكيف يقسم الموصى به ؟.

هنا التقسيم كما فرض الله في الفرائض : للذكر مثل حظ الأنثيين ، أمّا ذا من تسهيمات مستفادة من الكتاب والسنة ، فان الوصية في الثلث تقدّر بقدرها تسهيماً إن قررّ لكل من الموصى لهم،أم إلى ما فُرض لهم ان ورثوا ، ان كانوا من غير الطبقة ، كما في صحيحه زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) في رجل أوصى بثلث ماله في أعمامه وأخواله ؟ فقال : لأعمامه الثلثان ولا خواله الثلث (١) .

---

(١) الفقيه ٥٣٠ رقم ١ ، ويؤيده ما روى عن سهل عن ابي محمد (عليهما السلام) في حديث : وكتبت اليه : رجل له ولد ذكور واناث واقر لهم بضيعة أنها لولده ولم يذكر انها بينهم على سهام الله عز وجل وفرائضه ، الذكر والانثى فيه سواء ؟ فوقع (عليه السلام) ينفذون فيها وصية ابيهم على ما سمى فان لم يكن سمى شيئاً ردوها الى كتاب الله عز وجل ان شاء الله تعالى ، (الكافي ٧ : ٤٥ والتهذيب ٣ : ٣٩٣ والفقيه ٥٣٠) .

أقول : ذلك إلّا ان يظهر من كلامه التسوية بينهم ، فانه يقدم على مقدرة السهام .

٢ هل تجوز الوصية بمال دون قبول من الموصى له ؟ ظاهر الآية هو الجواز والمضي ، اللهم إلّا ان يُرد الموصى به ، لأنه هبة تحتاج الى قبول ، ام ولأقل تقدير ان لم يُردّ ، واطلاق الآية لا يقتضي إلا عدم شرط القبول ، واما جوازها مع الرد فلا ، والصحيحة السابقة مما تدل على عدم اشتراط القبول ، فقد تكون الوصية بين عقد وإيقاع ، إيقاع لجوازها دون قبول ، وعقد لردها بالرد ، فهي ـ إذاً ـ برزخ بينهما ، حيث الآية والصحيحة تدلان على جوازها دون شرط القبول ، ثم لا دليل على اشتراط القبول وانما هو على نفاذ الرد ان ردها الموصى له،ومما يؤكد عدم اشتراط القبول صحيح عباس بن عامر قال : سألته عن رجل أوصى بوصيته فمات قبل ان يُقبضها ولم يترك عقباً ؟ قال : اطلب له وارثاً او مولى نعمة فادفعها اليه ، قلت : فان لم اعلم له ولياً ؟ قال : اجهد على ان تقدر له على ولي فان لم تجده وعلم الله منك الجد فتصدق بها ، (١) فان عدم الاستفصال في قبول الموصى به وعدمه دليل عدم اشتراطه .

٣ هل تجوز وصيته في الثلث بعد ما جرح نفسه او فعل ما فيه موته ؟ ظاهر الآية نعم لاطلاق « إذا حضر احدكم الموت » بل ان المقصر في مصيبة موته أحرى من القاصر فيها ان يوصي لعله يجبر من تقصيره ، والصحيح في عدم جواز وصيته لا يستطيع على تقييد الآية بهذه الطلاقة الطليقة (٢) .

---

(١) الفقيه ٥٣٠ ـ ٤ والاستبصار ٤ : ١٣٨ والتهذيب ٣ : ٣٩٧ .

(٢) هو صحيح ابي ولاد سمعت ابا عبدالله (عليه السلام) يقول : من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها قيل : أرأيت إن كان أوصى بوصية ثم قتل نفسه متعمداً من ساعته تنفذ وصيته ؟ قال فقال : إن كان أوصى قبل ان يحدث حدث في نفسه من جراحه أو فعل لعله يموت اجيزت =

٤ هل يجوز ان يرجع عن وصيته صحيحاً او مريضاً ، في مرض الموت وسواه ؟ طبعاً نعم لأنها ليست عقداً لازماً لا رجوع فيه ، اللّهم فيما وهب لقريب له بالمعروف فلا يجوز الرجوع عنه ، وفي سواه يجوز الرجوع الى الأقرب معروفاً ، وأما الى غير المعروف او ان يترك الوصية المعروفة الى تركها عن بكرتها فلا لأنه خلاف واجب الوصية وقد فعله،فكيف يصح تحويل الواجب عما حصل ؟ والمعتبرة في سماح الرجوع عن الوصية مخصوص بما سوى هذه الموارد (١) .

٥ هل تجوز الوصية بما زاد عن الثلث ان لم يجزها الورثة ؟ آية الوصية الطليقة قد تحمل الجواز ، ولكن « بالمعروف » فيها تقيد الوصية بما يتحمله الورثة ، ثم الجنف والإثم تقيد انها بغيرهما ، ومن ثم آيات الفرائض تفرض ميراثاً بعد الدين والوصية ، فلا تجوز الوصية في المال كله ، ومتواتر الروايات تحددها بما لم تزد على الثلث ، فالرواية القائلة بجوازها في المال كله (٢) خلاف الكتاب والسنة ، وان كانت تجوز في كل المال او جله بإجازة الورثة كما في المعتبرة ، ولان المال حقهم فلهم التنازل عنه قدر ما يسمحون .

= وصيته في الثلث وإن كان أوصى بوصية بعدما أحدث في نفسه من جراحه او فعل لعله يموت لم تجز وصية (الوسائل كتاب الوصايا ب ٥٢ ح ١) أقول : عله بطلّ وصيته لحكمه عليه بخلود النار فهو اذاً كافر ووصية الكافر غير نافذة .

(١) كما في موثق بريد بن معاوية عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : « لصاحب الوصية أن يرجع فيها ويحدث في وصيته ما دام حياً » وصحيح محمد بن مسلم عن ابي عبدالله (عليه السلام) المدبر من الثلث وقال : « للرجل ان يرجع في ثلثه إن كان أوصى في صحته او مرض » (الكافي ٧ : ٢٢) ورواه مثله عبيد بن زرارة عنه (عليه السلام) .

(٢) هي رواية عمار الساباطي عن الصادق (عليه السلام) قال : « الرجل احق بماله ما دام فيه الروح إنْ اوصى به كله فهو جائز له » (الفقيه ٥٢٧) .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرس

الموضوع الصفحة

قصة البقرة بحذافيرها وأظافيرها الاسرائيلية، والقاعدة العقيدية والأصولية
والخلقية المستفادة منها. ٥-٢٦
تحريفات إسرائيلية في البشارات المحمدية. ٢٨-٣١
التقاليد الطالحة والصالحة. ٣٣-٣٦
استفتاحات اسرائيلية ببشارات كتابية بمحمد(ص) من قبل ونكرانها من بعد. ٥٧-٦٠
كيف أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم؟ ٦٢-٦٤
دورتمني الموت إيمانياً وسواه. ٦٦-٧١
جبريل بين المسلمين واليهود؟. ٧١-٧٥
ماتتلوا الشياطين على مُلك سليمان وصالح السحر وطالحه وتأثيره باذن الله؟!
ومقارنة بين سليمان التوراة والقرآن. ٧٦-٨٤
«راعنا» في ليّ عبراني إسرائيلي؟. ٨٥-٨٩
ماهونسخ آية اوإنساءها؟. ٩٠-٩٤
«أينما تولوا فثم وجه الله» وهل إلى غيرالقبلة ايضاً؟. ١٠٦-١٠٨
الإمامة الابراهيمية في ابتلاءه بكلمات في قول فصل. ١٢١-١٣٦
البيت المثابة في اثني عشرمكانة ـ صلاة الطواف بمكانها ومكانتها ١٣٦-١٤٨
«من ذريتنا امة مسلمة لك» في دعاء ابراهيم مستجابة بحسب نص التوراة والقرآن. ١٥٣-١٦١
ماهي «صبغة الله»؟ وليست لله صبغة!. ١٦٩-١٧٣
«الجزء الثاني من القرآن» هامةالقبلة وتحويلها، ليست القدس هي أولى القبلتين، بل هي قبلة
ابتلائية مدنية لأشهر عدة! معارك الدعايات حول تحويل القبلة. ١٧٦-١٨٢
الامة الوسط في قول فصل بسبر وتقسيم في محتملاته. ١٨٢-١٨٩
حكمة تحويل القبلة: ... «إلا لنعلم» من العَلَم دون العلم. ١٨٢-١٨٩
ماهو شطرالمسجد الحرام بين محتملاته؟. ١٩٣-١٩٩
«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» في تفسير كتابي مبين. ٢٠٢-٢٠٥
ختام الكلام حول القبلة في قول فصل. ٢١٠-٢١٧
الحياة البرزخية للشهداء وسواهم. ٢٢٥-٢٣٠
آية الإسترجاع بنبراتها. ٢٣٠-٢٣٧

شعيرة السعي بين الصفا والمروة في قول فصل. ٢٣٧-٢٤٨
كتمانٌ لعين إلاّ بإصلاح وتبيين. ٢٤٨-٢٥٤
آيات آفاقية سبع تدل على توحيدالله و حكمته ٢٥٧-٢٧٠
«كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً» ؟ ثم في خطوات الشيطان. ٢٧٣-٢٧٦
عشرة كاملة من حق البروجاه طقوس ظاهرية منه. ٢٨٩-٢٩٥
حقوق القصاص و احكامها الرئيسية ـ«ولكم في القصاص حياة...»؟. ٢٩٥-٣٠٩
واجب الوصية إذا حضرأحدكم الموت؟. فن بدله..
إلاّ «من خاف من موص جنفاً اوأثما». ٣٠٩-٣٢٣
فروع حول الوصية. ٣٢٣-٣٢٥

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی